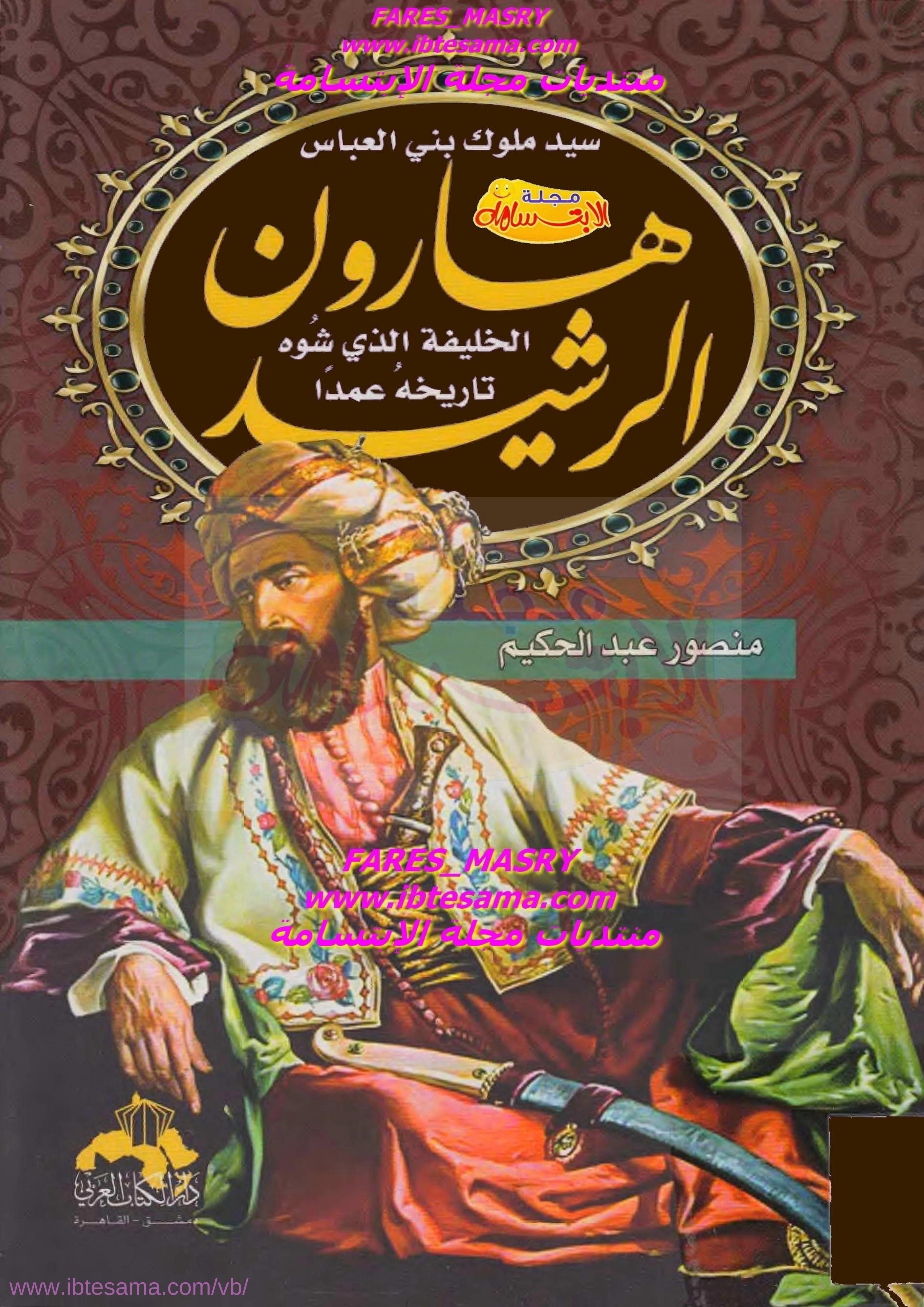

سيد ملوك بني العباس
هارون الرشيد
الخليفة الذي شُوه تاريخهُ عمدًا
منصور عبد الحكيم
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة


FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة



هارون الرشيد

الخليفة المُفْتَرى عليه

اسم الكتاب: هارون الرشيد الخليفة المفترى عليه

اسم المؤلف : منصور عبدالحكيم

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٠/٢٣٨٧٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978 - 977 - 376 - 595 - 9

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠١١



سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

darelkitab@yahoo.com- darelkitab-nassif@hotmail:com

عنوان الموقع: www.darketab.com ـ عنوان البريد الإلكتروني التابع للموقع : info@darketab.com

هارون الرشيد

الخليفة الـمُفْـتَرَىٰ عليه



منصور عبد الحكيم

الناشر
دار الكتاب العربي


FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة



﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

(آل عمران: ٢٦)



المقدمــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى سبحانه وتعالى، يهب الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، هو الملك وهو الظاهر فوق عباده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا شبيه له، أحد صمد مالك الملك.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه آخر الأنبياء والمرسلين، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ثم أما بعد..

فهذا الكتاب عن خامس الخلفاء العباسيين هارون بن المهدى بن المنصور بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى.

تولى الملك والحكم والخلافة فكان أعظم خلفاء بنى العباس وحكم إمبراطورية إسلامية كبرى على مدى ثلاثة وعشرين عاماً اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهده اتساعاً كبيراً وعرف عنه أنه الخليفة الذى يحج عاماً ويغزو عاماً.

أحاط هارون الرشيد نفسه بكبار العلماء والقادة فى عصره ولكن أعداء الإسلام أشاعوا عنه أن مجلسه كان مجلس أنس وغناء وطرب ولهو وخمر فإذا ذكر هارون ذكرت الليالى الحمراء والجوارى والغلمان تحيط به.

وفى هذا الكتاب نستعرض تاريخ هذا الخليفة المفترى عليه وإنجازاته خلال

فترة حكمه وجهاده فى سبيل الله فقد عرف عنه أنه كان يجاهد ويحارب الروم قبل توليه الخلافة واستمر بعد توليه الخلافة حتى إنه اتخذ قلنسوة مكتوباً عليها: «غازٍ وحاج».

توفى هارون فى ريعان شبابه وهو فى الغزو فى بلاد فارس وقد بلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً وقبره مجهول غير معلوم وقد ملأ الأرض علماً وحضارة وارتفعت فى عهده راية الإسلام خفاقة عالية.

وكان هارون يتواضع لأهل العلم والخير فقعد بين يدى العالم مالك ابن أنس رضي الله عنه وغيره من العلماء الأفاضل.

إنه خليفة تستحق سيرته الدراسة والقراءة للتعرف عليه رحمه الله.

نسأل الله العون والسداد والتوفيق فى إخراج هذا العمل على الوجه الذى يرضيه عنا وأن يتقبله منا يوم أن نلقاه، فى يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

منصور عبد الحكيم

القاهرة ٢٠١٠

Mansor_2455@yahoo.com



شجرة عائلة هارون

- العباسيون والثورة على الخلافة الأموية.
- الخلافة الأموية.
- الخلفاء العباسيون قبل الرشيد هارون.
- نساء فى حياة الرشيد.


FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

شجـرة عائلـة الخليفـة هـارون الـرشيـد

تعود أصول شجرة عائلة الخليفة العباسى هارون الرشيد إلى قريش وبالتحديد من نسل العباس عم النبى ﷺ أى من بنى هاشم من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1].

أما أجداد هارون الرشيد فكانوا مؤسسى الدولة العباسية حيث الجد الخليفة المنصور وأخوه عبدالله السفاح ثم الخلفاء من ذرية المنصور.

---

(١) تعود أصول العباسيين أجداد هارون الرشيد إلى العباس عم النبى ﷺ وابنه عبدالله بن العباس الصحابى الجليل ترجمان الأمة:

فأما العباس بن عبدالمطلب بن هشام بن عبد مناف القرشى وهو عم رسول الله ﷺ، كان أسن من الرسول بثلاث سنين وكان من أكبر رجال بنى هاشم مكانة، وأكثرهم مالاً فى الجاهلية فكان رئيسهم المطاع بعد وفاة أبى طالب المتولى لأمورهم وكانت إليه السقاية والرفادة وعمارة المسجد الحرام فإنه كان لا يدع أحداً يسب فى المسجد ولا يقول فيه فجراً يحملهم على عمارته فى الخير، لا يستطيعون لذلك امتناعاً، لأن ملأ قريش كانوا قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك، فكانوا له أعواناً عليه، وأسلموا ذلك إليه وقد حضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم وشهد بدراً مع المشركين مكرها فأسر فافتدى نفسه ورجع إلى مكة، ثم أسلم وكتم إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة قبل الفتح بقليل وشهد فتح مكة وثبت يوم حنين مع النبى ﷺ وكان النبى ﷺ يجله ويقدره وقد كانت وفاته بالمدينة فى رجب سنة اثنين وثلاثين من الهجرة ودفن بالبقيع رضي الله عنه.

وأما ابنه عبدالله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، وكان يقال له الحبر والبحر لاتساع علمه وكثرة فهمه وكمال عقله وسعة فضله ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ولازم رسول الله ﷺ ودعا له ﷺ بالفقه فى الدين وعلم التأويل، وكان عمر رضي الله عنه يجله ويكرمه، وقد شهد رضي الله عنه مع على الجمل وصفين، وكف بصره فى آخر عمره فسكن الطائف وكانت وفاته سنة ثمان وستين من الهجرة فرضى الله عنه، وقد دعا له رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى، فقال: اللهم فقهه فى الدين، وقد استفاد العباسيون من انتسابهم إلى جدهم عبدالله بن عباس حبر الأمة.

فقد جاءت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية وبعد حروب بينهما انتهت بهزيمة الأمويين واستيلاء العباسيين على مقاليد الحكم للدولة الإسلامية الكبرى.

فقد قاد العباسيون حركة التمرد والثورة على حكم بنى أمية ردحاً من الزمان بالمشاركة فى بداية الأمر مع أبناء العمومة من العلويين وهم ذرية ونسل الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ثم انتهى الأمر بانفراد العباسيين بالأمر والخلافة.

وكانت بداية الثورة العباسية أو بنى العباس على الحكم الأموى منذ أيام على بن عبدالله بن العباس المعروف بالإمام محمد الهاشمى المدنى السجاد، ثم جاء من بعده من حمل لواء الثورة، ويرى المؤرخون أن تنظيم الدعوة العباسية قام على ثلاثة أفراد من البيت العباسى لم يقدر أن ينالوا ثمرة غرسهم، وأولهم على بن عبدالله بن العباس الذى رأس الدعوة أكثر من عشرين سنة، وهو الذى نظم الدعاة والنقباء فى كل العراق وخراسان، وولى أمر الدعوة بعده ابنه محمد على ثم ابنه إبراهيم.

فكانت البداية حين أعلن على بن عبدالله بن العباس أحقيته فى الخلافة فقد كان على بن عبدالله بن العباس أجل إخوته قدراً وأعظمهم خطراً وكان مثالاً للرجل الكامل فى تمام خلقته وحسنه وورعه ونبله، قال ابن سعد: كان أصغر ولد أبيه سناً وكان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمه وأكثر صلاة وكان يقال له السجاد لعبادته وفضله وكان زاهداً متقشفاً، فكانت ذريته أشهر الناس تلاوة وقياماً وصياماً وصلاحاً، وكان عالماً له معرفة ورواية عن أبيه.

روى هشام بن سليمان المخزومى: أن على بن عبدالله كان إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها، ولزمت مجلس على بن عبدالله إجلالاً له وإعظاماً وتبجيلاً، فإن قعد قعدوا وإن مشى مشوا جميعاً، ولم يكن يرى لقرشى مجلس «ذكر» يجتمع إليه فيه حتى يخرج على بن عبدالله من الحرم فقد جمع على بن عبدالله العباسى صفات الزعامة من علم وعبادة وهيبة ومكانة فى النفوس.

هكذا كان الإمام أبو محمد المدنى السجاد، وقد أوصاه أبوه عبدالله بن العباس بإتيان الشام والتنحى عن سلطان ابن الزبير إلى سلطان عبدالملك، لما توفى

أبوه عمل بوصيته ورحل إلى الشام واستقبله عبدالملك بن مروان واحتفى به وكان يجلسه على سرير ملكه إذا دخل ويحادثه ويسامره وكان يرعاه ويهدى إليه الجوارى، ويقضى حوائجه ويقبل شفاعته.

لكن الخليفة الأموى قد علم أن علياً يطلب الخلافة ويتنبأ بانتقالها إلى بنيه فضيق عليه ونال منه وشهر به، ثم جلده وطرده من بلاد الشام، واشتد إيذاؤه فى عهد الوليد بن عبدالملك وظلت به الحال من الاضطهاد حتى عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك الذى رده إلى دمشق، وأخلى سبيله، وأزال عنه ما لحق به من ظلم، وأنصفه وتألفه فصلحت حاله واستقامت، ورجع إلى الحميمة، فأقام بها وعاود فيها نشاطه بحرية.

ولما جاء عهد عمر بن عبدالعزيز أمر بالكف عن اضطهاد بنى هاشم، وقسم فيهم سهم ذى القربى، وكتبوا إليه يشكرون له ما فعله من صلة أرحامهم وكانوا من المؤيدين له فى خلافته.

ولما تولى هشام اعتنى بعلى بن عبدالله بن العباس، وأحسن إليه، فكان يتهلل له ويدينه ويحمل عنه ديونه إذا وفد عليه، وصبر على نشاطه السياسى وتغافل عنه وتغاضى عن أمله فى الخلافة، واستهان بعمله للفوز بها.

وقد توفى على بن عبدالله بن العباس عام ١١٨ هـ ثم جاء من بعده ابنه محمد بن على بن عبدالله بن العباس وكان أفضل إخوته، وهو الذى رسخ قواعد الدعوة لبنى العباس وشيد أركانها، ورفع بنيانها، فوضع أنظمتها وشعاراتها وأنشأ مجالسها واختار قادتها، ومكنَّ لها فى الكوفة وخراسان وشحذ عزائم أنصارها وهيأهم ليوم إعلان الثورة وتفجيرها، وكان من أجل الناس وأعظمهم قدراً وكان بينه وبين أبيه أربع عشرة سنة، فيظن من لا يعرفهما أن محمد هو على.

وكان عابداً زاهداً وكان له علم وفقه ورواية وكان ثقة ثبتاً مشهوراً، وكان سيد ولد أبيه، وخيرهم ديناً.

وانتقلت الدعوة بالأحقية فى الخلافة فى عهده إلى مرحلة أخرى مهمة حيث

وثق وقوى علاقته بأبناء عمومته من العلويين من أجل الثورة على الأمويين فاتحد مع عبد الله ابن الإمام محمد بن على بن أبى طالب المعروف بمحمد ابن الحنفية وكان على رأس أكبر الفرق العلوية وأدقها تنظيماً وأكثرها حماساً وعبدالله المكنى بأبى هاشم عرف برجاجة عقله وسعة علمه، وحسن تدبيره، ومعرفته بأحوال الفرق.

زادت شيعته بعد وفاة والده، فأخذ يدير الأمور، ويبعث الدعاة مع السرية التامة بأحقيته بالخلافة التى هى لهم دون الأمويين ناشراً فظائع ومظالم بعض خلفاء الدولة الأموية وكان أبو هاشم قدم على سليمان بن عبدالملك بدمشق، فأكرمه وأجازه.

وسار أبو هاشم يريد فلسطين أو الحجار، فمرض فى الطريق وأحس بالموت، ولم يكن له ولد، فعدل إلى الحميمة، ونزل على محمد بن على العباسى فأوصى إليه بالإمامة وسلم إليه كتب الدعاة وأوقفه على ما يعمل به، وصرف شيعته إليه وأمرهم بالسمع له.

واعتمد بنو العباس وشيعتهم على تلك الوصية فى تقرير حقهم فى الخلافة ولم يزالوا ينكرون أن الخلافة أتتهم من جهتها إلى أيام أبى جعفر المنصور.

وقد أكد جماعة من المؤرخين تحول دعوة أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية إلى العباسيين والتى عمل من أجلها حوالى سبع عشرة سنة، واستقطب فيها كبار الشيعة العلوية من أهل العراق وخراسان وفرقهم على المدن والأقاليم نظم هذه الدعوة ورعاها وأعدها لليوم المرتقب وقد كانت وفاته عام ٩٨ هـ بعد موت محمد بن على بن الحنفية بالمدينة عام «٨١ هـ».

تسلم محمد بن على العباسى التنظيم السرى من أبى هاشم العلوى وبدأ مسار التنظيم الجديد يتغير عن القديم فى بنيته الفكرية والاجتماعية وغيرها ولكن مع التدريج حيث توفرت صفات الزعامة فى شخصية محمد بن على، من قيادة واعية وقدرة على التخطيط الصحيح، وقد برهن على عبقرية فذة فى التنظيم والتخطيط للدعوة مع قناعة الاتباع بزعامته الروحية والعلمية، فقد اشتهر

بالعبادة والعلم واستمر فى تشكيل الحركة على أصول العقائد السنية.

وعمل على جذب الأنصار والأخذ بأسباب النصر على الأمويين، وقد استفاد من تشكيلات محمد على التنظيمية كثير ممن جاء بعده ممن سعى لقيام دولة مع التطوير كالموحدين، والفرق الباطنية وغيرها، وقد استطاع محمد على العباس أن يحكم قبضته على أمور الدعوة من خلال جهاز بالغ الدقة فى التنظيم والإدارة وقد استمر فى عمله السرى حتى وفاته عام ١٢٥ هـ.

انتقل محمد بن على بعد دراسة وتفكير إلى تنظيم الدعوة تنظيماً محكماً ورسم لكبار الدعوة الطريق الذى سوف يسيرون عليه للوصول بالدعوة إلى غايتها.

وجعل محمد بن على الدعوة تتحرك فى ثلاثة محاور، فقد جعل قرية الحميمة مكاناً للتخطيط والدراسة، فهى المركز الأول للدعوة والكوفة للإشراف على الدعوة، والنقل تعاليم الإمام الصادرة من الحميمة إلى الدعاة فى خراسان، وأصبحت خراسان مسرحاً للدعوة، كما أصبحت فيما بعد منطلقاً للعمل العسكرى، وقد أكد محمد على لقادة الدعوة عدم ذكر اسمه، وأن تكون دعوتهم غاية فى السرية، فهو يقول لأبى عكرمة السراج عندما أرسله إلى خراسان: فلتكن دعوتكم إلى الرضا من آل محمد، فإذا وقعت بالرجل فى عقله وبصيرته فاشرح له أمركم، وليكن اسمى مستوراً عن كل أحد، إلا عن رجل عدلك فى نفسك، وتوثقت منه وأخذت بيعته.

كما حذر محمد بن على العباسى دعاته من أهل الكوفة قائلاً: ولا تستكثروا من أهل الكوفة، ولا تقبلوا منهم إلا أهل النيات الصحيحة.

واحتاط لنفسه أن يبعد الشكوك التى تحوم حول الحميمة، فقد جعل دعاة خراسان يتصلون بالكوفة بدل الحميمة، حتى لا يلفت أنظار الأمويين فينكشف أمره. ولضمان السرية التامة لدعوته، فقد أمر كبار دعاته بأن يسلكوا فى طريقهم إليه الطرق الرئيسية وأن يحاولوا التستر بزى التجار، كما يقللون التردد على

---

(١) وكان النقباء هم:

- سليمان بن كثير الخزاعى. - عيسى بن كعب التميمى. =

الحميمة ما أمكن، واختار أبو عكرمة السراج بعد ذلك اثنى عشر نقيباً(١).

وعن اختيار إثنى عشر نقيباً قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. إن السنة فى الأولين، والمثل فى الآخرين، وإن الله يقول: واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ثم قال فى آية أخرى: ﴿وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا﴾ وأن رسول الله ﷺ وافاه ليلة العقبة سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فبايعوه، فجعل منهم اثنى عشر نقيباً.. فإن سنتكم سنة بنى إسرائيل وسنة النبى ﷺ.

ووجه للكوفة ميسرة العبدى وخلفه بعد ذلك بكير بن خاهان وهكذا وزع الدعاة فى العراق وخراسان وعين كبيراً للدعاة.

وجعل الكوفة موقعاً له ومقاماً، إذ هى أقرب إلى خراسان من الحميمة، وبها شيعة أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذين انضموا إلى بنى العباس وكان كبير الدعاة مسئولاً عن نشر الدعوة والإشراف عليها بخراسان، فكان يرسل إليها وفود الدعاة، وكان يكتب إلى محمد على بأنباء الدعوة ويعلمه بأحوالها، وكان يلقاه فى موسم الحج، وكان يزوره بالحميمة إذا طرأ له أمر واحتاج إلى أن يعرف رأيه فيه، حتى يأخذ به وينفذه.

وكان الدعاة من أهل خراسان يمرون بالكوفة، ويعرجون على كبير الدعاة، فيطلعونه على ما بلغوا فى بث الدعوة ويشرحون له ظروفها، ثم يمضون إلى الحجاز، فيقابلون محمد بن على بالمدينة ومكة فى موسم الحج، فيؤدون إليه ما اجتمع لهم من أموال، ويخبرونه بأخبار الدعوة ويعرضون عليه مسيرتها

= ـ مالك بن الهيثم الخزاعى أبو عيينة.
ـ طلحة بن رزيق الخزاعى.
ـ عيسى بن أعين الخزاعى مولى لخزاعة.
ـ عمرو بن أعين أبو الحكم، مولى لخزاعة.
ـ لاهز بن قريظ التميمى.
ـ موسى بن كعب التميمى أبو على.
ـ القاسم بن مجاشع التميمى أبو نصر.
ـ خالد بن إبراهيم من بنى عمر بن شيبان.
ـ شبل بن بن ظهمان الشيبانى.
ـ قحطبة بن شبيب الطائى.

وملابساتها، ويتشاورون فى أمرها حتى يستدركوا النقص، ويتلافوا الأخطاء، ويذللوا الصعاب، ويتجنبوا الأخطار، تقوية للدعوة وحماية لها من الانهيار فإذا انقضى موسم الحج زودهم بتوجيهاته وإرشاداته، ورجعوا إلى خراسان، فواصلوا القيام بأمر الدعوة وجدوا فى نشرها، هكذا سارت الدعوة والتخطيط والسرية.

وحدد محمد بن على للدعاة المكان الذى يمكن أن تنمو فيه الدعوة وتحقق أكبر النجاح للقضاء على الحكم الأموى بعد أن بين الموانع القائمة بكل إقليم على حدة، ثم ذكر المؤهلات التى تجعل إقليم خراسان هو المكان المناسب لاحتضان الدعوة العباسية، فقد كانت خراسان موطن المقاتلة العرب الذين مرستهم الحرب الطويلة مع تركستان والذين عبروا مراراً عن تذمرهم من السياسة الأموية والعسكرية فقد تضايقوا من سياسة التجمير وهى إبقاء المقاتلة فى الثغور وعلى خطوط المواجهة شتاء فى الوقت الذى يرغب المقاتلة فى قضاء الشتاء مع عوائلهم.

كان الوالى الأموى يسلبهم حصتهم من الفىء والغنيمة أحياناً أو يأخذ أكثر من حقه منها أحياناً أخرى.

سئمت القبائل من النزاع المستمر بين الشيوخ والرؤساء الطموحين للوصول إلى السلطة حيث خلق هذا بين قبائل خراسان نوعاً من القلق ولذلك وجدت تلك القبائل فى الدعوة العباسية أملاً جديداً لحياة أكثر استقراراً ويسراً.

وكانت منطقة الحجاز فى نظر محمد بن على يغلب على أهلها الزهد والعبادة، ويركنون إلى السلم وترك الاشتغال بالسياسة، فهم لا يرون أن الخلافة حق من حقوق بنى هاشم ـ وإنما فى قريش عموماً ـ ولهذا فشلت حركة المدينة التى قام بها بعض المعارضين للحكم الأموى، كموقعة الحرة عام ٦٣ هـ، وفى مكة انتهت خلافة عبدالله بن الزبير عام ٧٣ هـ دون أن تحقق الهدف المنشود كما أن أهل الحجاز يعرفون أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وصلوا إلى الخلافة بالشورى، والاختيار والقبول من الأمة الإسلامية من غير تسلط أو سفك دماء.

أما البصرة فهى فى نظر محمد بن على لا تصلح لهذه الدعوة، فسكانها خليط من البشر، وفيها عدد من الأجناس والأديان، والبصرة مدينة اقتصادية لا

شأن لها بالسياسة، ويقطنها قليل من الشيعة لا يفى بالغرض المطلوب، والكثير منهم منهجهم: «كن عبدالله المقتول» أى ولا تكن عبدالله القاتل.

وأما الكوفة: ففيها شيعة على وولده، ولا تقبل غير الدعوة لأولاد على، فأهلها يرون أن الخلافة هى حق من حقوق العلويين دون غيرهم.

وتعمقت الدعوة العباسية فى نفوس الأتباع، وتطلع الناس لها، وانتشرت فكرتها، وعلقوا الآمال عليها، فهى دعوة آل البيت، وهى التى سوف تخلصهم من الدولة الأموية وهى بجانب هذا ستعيد لهم عزهم وسلطانهم التليد، فتمسكوا بها وناصروها فاتسعت خلايا الدعوة، وتعمقت جذورها فى السهول والجبال فعمت المدن والقرى والأقاليم.

وانتهت مرحلة محمد بن على بموته عام ١٢٥ هـ وأوصى بأن يتولى الأمر من بعده ابنه إبراهيم الذى تسمى فيما بعد بالإمام وكان رئيس دعوة الكوفة بكير بن ماهان موجوداً فى هذه الأثناء بالحميمة فحمل هذه الوصية إلى خراسان وأبلغها إلى النقباء فصدقوه، ودفعوا إليه ما اجتمع لديه من نفقات شيعته، ورجع إلى الحميمة، حيث طمأن الإمام عن سير الدعوة فى خراسان وأبلغه إخلاص هؤلاء الدعاة لإمامهم الجديد وسلم إليه ما لديه من الأموال فعاد إلى الكوفة ومعه بعض الشيعة العباسيين بعد أن تعرفوا على إمامهم الجديد، وقد حثوه على تعجيل الثورة المسلحة.

كان إبراهيم بن محمد، أرفع إخوته مكاناً وأعلاهم شأناً، وكان عظيم القدر عند أهل المدينة ومكة وكان تقياً ورعاً، جواداً، معطاء، حكيماً، حليماً، وحازماً صارماً، وكان له عناية بالحديث ومعرفة بالبلاغة ورواية للشعر، ولما تولى قيادة الدعوة العباسية سعى فى بث الدعوة ونشرها وجدَّ فى تقويتها وترسيخها واجتهد فى تنظيمها وإحكامها.

ولما مرض بكير بن ماهان أرسل إلى إبراهيم الإمام يستئذنه بتولية زوج ابنته «أبو سلمة الخلال» رئاسة الدعوة بدلاً منه، فكتب إبراهيم إلى أبى سلمة يأمره بالقيام بعمل بكير بن ماهان، كما أرسل إلى خراسان يخبرهم بتولى أبى سلمة أمر الدعوة، فأجابوه بالطاعة والتصديق له، فمات بكير بعد ذلك بقليل سنة ١٢٧ هـ.

قامت حركات تمرد فى أنحاء خراسان ضد السلطة الأموية حيث قام بها زعماء القبائل مثل جديع بن على الكرمانى وهناك ثورة قد اشتعلت بالكوفة قام بها عبدالله بن معاوية من ولد جعفر بن أبى طالب وانضم معه الكثير من الغاضبين مما فت من عضد الدولة وأربكها، وقد دخل فيها بعض أفراد الأسرة العباسية ومن بينهم أبو جعفر، والسفاح، وعمهما عبدالله بن على الذين ربما قصدوا من ذلك إفشال هذه الثورة، وقد حدث ذلك حيث كانت نهايته على أيدى رجال الدعوة العباسية فى خراسان، ولأن خراسان لا تحتمل أكثر من دعوة وهى الدعوة العباسية، واشتداد العصبية القبلية فى خراسان والعراق والشام، فقد كانت تتخبط بالانقسامات والفوضى، وحتى الأندلس وصلت العصبية فيها إلى حروب طاحنة بين المضرية واليمنية، وخروج الضحاك بن قيس الشيبانى فى العراق والجزيرة، وثورة الخوارج فى كل مكان فى العراق، أو الحجاز، واليمن، وعصيان كثير من المدن، فى سوريا وفلسطين والأردن حيث خرجت عن طاعة الخليفة الأموى.

على ضوء هذه الأحداث وغيرها جد إبراهيم الإمام بعد ذلك إلى نقل الدعوة العباسية السرية، إلى طور العمل والنضال الحربى فعرض القيادة العامة للجيش على «سليمان بن كثير» رئيس دعاة خراسان فرفض ذلك، ثم عرضها بعد ذلك على إبراهيم بن سلمة فرفض هو الآخر هذا الطلب وكانا بالحميمة موفدين من قبل الشيعة العباسية لطلب الموافقة من إبراهيم الإمام لإعلان الثورة المسلحة.

استقر رأى إبراهيم الإمام على تولية القيادة العامة لأبى مسلم الخراسانى وكان ذلك عام ١٢٨ هـ، ولم يتجاوز عمره ـ آنذاك ـ تسع عشرة سنة، وقد كتب معه كتاباً إلى شيعته فى الكوفة قائلاً: إن هذا أبو مسلم، فاسمعوا له وأطيعوا وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان.

أخذ أبو مسلم هذا الكتاب ليعرضه على الدعاة وكان أول ما عرضه على أبى سلمة الخلال بالكوفة، وهو فى طريقه إلى خراسان، ولكنه لم يجد منه قبولاً، فقد استصغره وحقره، وتوجه إلى خراسان بعد ذلك حيث عرض هذا الكتاب على كبار

الدعاة فيها، فتخوفوا من عواقب ذلك وردوه لأنه غلام عديم التجربة، فلا يمكن أن يكون لمثل هذه الأمور الخطرة، فأرسل وأرسلوا إلى إبراهيم الإمام بالحميمة حول هذا الموضوع فأجابهم الإمام إلى وجوب الالتقاء به عند موسم الحج.

خرج هؤلاء والتقوا بإبراهيم الإمام فى مكة فأخبر أبو مسلم أن هؤلاء رفضوا الطاعة، والانقياد له، فقال لهم: لقد عرضت هذا الأمر على غير واحد لكنهم رفضوا ذلك فاستقر رأيى على أبى مسلم لتولى رئاسة الجيش، فأمرهم بالسمع والطاعة له(١).

وقد شهد عصر الخليفة الأموى مروان الحمار واسمه أبو عبدالملك بن محمد بن مروان بن الحكم نهاية العصر الأموى والخلافة الأموية، ومما ساعد على هزيمة وانحسار عهد الأمويين ما شهدته الدولة الأموية بعد عصر الخليفة هشام بن عبدالملك من أحداث أدت إلى انهيار دولتهم سريعاً، فقد توفى الخليفة هشام عام ١٢٥ هـ، فتولى الحكم والخلافة بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبدالملك، والذى اشتهر بالفسق والفجور منتهكاً لحرمات الله حتى أنه أراد الحج ليشرب الخمر فوق ظهر الكعبة، فخرج عليه الناس ومعه أبناء عمومته من بنى أمية وقتل عام ١٢٦ هـ، وتولى بعده قائد الثورة عليه ابن عمه يزيد الناقص أبو خالد بن عبد الملك الذى لم يتمتع بالخلافة سوى ستة أشهر حيث مات بالطاعون.

ثم تولى الحكم والخلافة إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك أخو يزيد الناقص ومكث فى الخلافة سبعين ليلة ثم خلع حيث خرج عليه ابن عمه مروان بن محمد

---

(١) أبو مسلم الخراسانى: اسمه عبدالرحمن بن مسلم، ويقال: عبدالرحمن بن عثمان بن يسار الخراسانى، الأمير صاحب الدعوة، وهزم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية، كان ذا شأن عجيب ونبأ غريب من رجل يذهب علي حمار بإكاف من الشاف حتي يدخل خراسان، ثم يملك خراسان بعد تسعة أعوام ويعود بكتائب أمثال الجبال، ويقيم دولة كبرى هناك حتي عظم خطره أيام المنصور، كان قصيراً أسمر أحور العين وبعيد الجبهة عن اللحية وكان سفاكاً للدماء كما قال بذلك الذهبي، وقد أمر العباسيين بلبس السواد بعد مقتل إبراهيم الإمام.

الشهير والملقب بمروان الحمار وتولى مروان الحمار الخلافة عام ١٢٧ هـ[١].

وفى عهد مروان الحمار كان خروج العباسيين وقتالهم لبنى أمية بل وخرج عليه الكثير من الشعوب من كل جانب عام ١٣٢ هـ وكان إبراهيم الإمام قائد ثورة بنى العباس قد ولى أبو مسلم الخراسانى قيادة جيش العباسيين كما ذكرنا، وقد علم مروان الحمار بأمر إبراهيم الإمام، فقبض عليه وسجنه وظل فى السجن ثم قتله فكان مقتله الشرارة التى فجرت الثورة فى وجه الأمويين.

فقد كان مقتل إبراهيم الإمام عام ١٣١ هـ ونهاية دولة بنى أمية عام ١٣٢ هـ، وقد أوصى إبراهيم بالأمر من بعده لأخيه عبدالله الشهير بالسفاح، فخرج جيش العباسيين وقد رفعوا الرايات السود وعليهم عبدالله بن على عم السفاح وقائد الجيش أبو مسلم الخراسانى والتقى جيش مروان الحمار الأموى بهم قرب الموصل فانكسر جيش الأمويين وفر إلى الشام فتبعه جيش العباسيين بقيادة عبدالله بن على وهزمه وفر مروان إلى مصر وهناك قتل بقرية تسمى بوصير على يد صالح أخى عبدالله السفاح عام ١٣١ هـ، وكانت مدة حكم الأمويين قرابة ٩١ عاماً منذ تولى معاوية الأمر عام ٤٠ هـ حتى هزيمة مروان الحمار عام ١٣١ هـ.

وبنهاية مروان الحمار والدولة الأموية بدأ عصر جديد للدولة العباسية وكان أول الخلفاء للدولة العباسية هو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم الشهير بالسفاح بويع له بالخلافة ١٣٢ هـ.

وقد روى ابن جرير الطبرى أن سبب ثورة العباسيين وتطلعهم للخلافة أن رسول الله ﷺ أعلم العباس عمه أن الخلافة تؤول إلى ولده[٢].

■ ■ ■

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ـ للحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ وقد تولى الخلافة فى الدولة الأموية ثلاث عشرة خليفة أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الحمار.

(٢) انظر تاريخ الطبرى.

الخلفاء العباسيون الأربعة الأوائل
قبل الرشيد هارون

تولى بنى العباس أمر الخلافة العباسية بعد انتصارهم على الأمويين كما ذكرنا عام ١٣١ هـ واستمر حكمهم للعالم الإسلامى حتى سقوط دولتهم على أيدى التتار المغول عدم ٦٥٦ هـ[١].

وكان أميرالمؤمنين أبو العباس عبدالله بن محمد بن على ابن عبدالله بن عباس هو أول الخلفاء العباسيين واشتهر بالسفاح[٢]، ولد بالحميمة من ناحية البلقاء ونشأ بها وبويع بالكوفة وأمه ريطة الحارثية.

حدث عن أخيه إبراهيم بن محمد الإمام وروى عنه عمه عيسى بن على وكان أصغر من أخيه المنصور.

واستخلف وهو ابن سبع وعشرين سنة، بويع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة لأربع عشر خلت من ربيع الأول سنة اثنين وثلاثين ومائة، وذلك بوصية من إبراهيم الإمام الذى سجنه الخليفة الأموى مروان الحمار.

وروى المدائنى عن جماعة أن الإمام محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال لنا ثلاثة أوقات: موت يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق بإفريقية فعند ذلك تدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيولهم المغرب.

(١) تولى الخلافة فى دولة بنى العباس سبعة وثلاثون خليفة أولهم عبدالله السفاح وآخرهم المستعصم بالله عبدالله بن المستنصر بالله قتيل التتار وكانت نهاية دولتهم فى العراق على يد هولاكو المغولى عام ٦٥٦ هـ ثم انتقلت الخلافة العباسية بعدها بثلاث سنوات كخلافة رمزية فى القاهرة لا حول لهم ولا سلطان وانتهى أمرهم بإعلان السلطان العثمانى سليم الأول نفسه خليفة للمسلمين بعد انتصاره على السلطان قنصوة الغورى سلطان مصر والشام فى موقعة مرج دابق.

(٢) سمى بالسفاح لكثرة من قتل من بنى أمية.

فلما قتل يزيد بن أبى مسلم بإفريقية ونقضت البربر بعث محمد الإمام رجلا إلى خراسان وأمره أن يدعو إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ولا يسمى أحداً ثم وجه أبا مسلم الخراسانى وغيره وكتب إلى النقباء فقبلوا كتبه ثم لم ينشب أن مات محمد فعهد إلى أبنه إبراهيم فبلغ خبره مروان فسجنه ثم قتله فعهد إلى أخيه عبد الله وهو السفاح فاجتمع إليه شيعتهم وبويع بالخلافة بالكوفة فى ثالث ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة وصلى بالناس الجمعة وقال فى الخطبة الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه ثم ذكر قرابتهم فى آيات القرآن.

مات السفاح بالجدرى فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وكان قد عهد إلى أخيه أبى جعفر وكان فى سنة أربع وثلاثين قد انتقل إلى الأنبار وصيرها دار الخلافة.

ومن أخبار السفاح قال الصولى: من كلامه إذا عظمت القدرة قلت الشهوة وقل تبرع إلا معه حق مضاع وقال: إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عد البخل حزماً والحلم ذلا وقال إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة والصبر حسن إلا على ما أوقع الدين وأوهن السلطان والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة.

قال الصولى: وكان السفاح أسخى الناس ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ولا قام من مجلسه حتى يقضيه وقال له عبد الله بن حسن مرة سمعت بألف ألف درهم وما رأيتها قط فأمر بها فأحضرت وأمر بحملها معه إلى منزله.

وكان نقش خاتمة «الله ثقة عبدالله وبه يؤمن» وكان سريعاً إلى سفك الدماء فاتبعه عماله بالمشرق والمغرب وكان مع ذلك جواداً بالمال[1].

٢ ـ الخليفة أبو جعفر المنصور:

أبو جعفر عبد الله المنصور (٧١٢ ـ ٧٧٥م)، اسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ثانى خلفاء بنى العباس وأقواهم. وهو

(١) تاريخ الخلفاء ـ للسيوطى.

أسن من السفاح بست سنين ولكن أخاه الإمام إبراهيم بن محمد بن على حينما قبض عليه جنود مروان بن محمد سلم الإمامة لأبى العباس دون المنصور.

والمنصور هو مشيد مدينة بغداد التى تحولت العاصمة للدولة العباسية. وتولى الخلافة بعد وفاة اخيه السفاح من عام ٧٥٤م حتى وفاته فى عام ٧٧٥م «١٣٦ هـ - ١٥٨ هـ».

ولد أبو جعفر المنصور سنة (٩٥هـ - ٧١٤م) فى قرية الحميمة التى تقع فى معان جنوب الأردن، ونشأ بين كبار رجال بنى هاشم الذين كانوا يسكنون الحميمة، فشب فصيحا عالما بالسير والأخبار، ملما بالشعر والنثر.

وكان أبوه محمد بن على هو الذى نظّم الدعوة العباسية، وخرج بها إلى حيز الوجود، واستعان فى تحركه بالسرية والكتمان، والدقة فى اختيار الرجال والأنصار والأماكن التى يتحرك فيها الدعاة، حيث اختار الحميمة والكوفة وخراسان، وأمه أم ولد بربرية اسمها سلامة.

وبعد نجاح الثورة العباسية وإطاحتها بالدولة الأموية؛ تولى أبو العباس عبدالله السفّاح الخلافة (١٣٢هـ - ٧٤٩م) واستعان بأخيه أبى جعفر المنصور فى محاربة أعدائه والقضاء على خصومه وتصريف شئون الدولة، وكان عند حسن ظنه قدرة وكفاءة فيما تولى، حتى إذا مرض أوصى له بالخلافة من بعده، فوليها فى (ذى الحجة ١٣٦هـ - يونيو ٧٥٤م) وهو فى الحادية والأربعين من عمره.

تولى أبى جعفر المنصور أمر الدولة العباسية والخلافة الإسلامية فكان همه الأكبر أثناء حكمه هو تقوية حكم أسرة بنى العباس والتخلص من أى خطر يهدد سيطرتهم حتى لو كان حليفا سابقا مثل أبى مسلم الخراسانى الذى قاد الثورة العباسية ضد الأمويين فى خراسان وكان له الفضل الكبير فى نجاح الدعوة والثورة العباسية عسكرياً، ولهذا يعتبر المؤرخون أن أبا جعفر هو المؤسس الحقيقى للدولة العباسية.

ولا شك إن الفترة التى قضاها المنصور فى الخلافة العباسية تعتبر من أهم

عصور الخلافة، فقد حكم ما يقرب من ٢٢ عاما، حكما قويا وركز الخليفة فيها جميع سلطات الدولة فى يده.

يقول ابن طباطبا عنه إنه هو الذى سن السنن وأرسى السياسة واخترع الأشياء، وسار أبناؤه الخلفاء من بعده على مسيرته؛ وهو فوق ذلك جعل لبنى العباس سنداً شرعياً فى وراثة الدولة أعطت لهم السبق على أبناء عمهم الطالبيين تمثلت فى المكاتبات بينه وبين محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية ويتلخص ذاك السند فى الفتوى بإن العم أحق فى الوراثة من البنت وابن العم ويقصد بذلك فاطمة الزهراء، وعلى بن أبى طالب.

كما أن المنصور هو من سن السياسة الدينية وجعلها أساسا لحكم العباسيين وذهب فى ذلك إلى أبعد حد حتى قال إنما أنا سلطان الله فى أرضه.

ولهذا يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس وإن تولى الخلافة بعد أخيه أبى العباس عبدالله السفاح.

بُويع بالخلافة بعد عودته من الحج ووفاة أخيه أبى العباس، بايعه أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام التى كان عمه «عبد الله بن على» أميرًا، فقد رفض مبايعته اعتقادًا منه بأنه أولى بالخلافة، فما كان من أبى جعفر إلا أن أرسل إليه القائد "أبا مسلم الخراسانى" ومعه جماعة من أمراء بنى العباس فهزموهم هزيمة منكرة، وخضعت بلاد الشام لأبى جعفر المنصور بعد مقتل عمه عبدالله بن على.

وبدأ الجو يصفو لأبى جعفر بعد مقتل عمه "عبد الله" إلا من بعض الإزعاج الذى كان يسببه له أبومسلم الخراسانى؛ وبسبب مكانته القوية فى نفوس أتباعه، واستخفافه بالخليفة المنصور، ورفضه المستمر للخضوع له؛ فكان ساعده يقوى، وكلمته تعلو، وقد شم منه رائحة خيانة وهنا فكر المنصور جديًا فى التخلص منه بوصفه عدواً ويمثل خطراً على الدولة الفتية فخطط المنصور لذلك.

فأرسل إلى أبى مسلم يخبره أن الخليفة ولاه على مصر والشام، وعليه أن يوجه إلى مصر من يختاره نيابة عنه، ويكون هو بالشام ؛ ليكون قريبًا من الخليفة

وأمام عينيه وبعيدًا عن خراسان ؛ حيث شيعته وموطن رأسه، إلا أن أبا مسلم أظهر سوء نيته، وخرج على طاعة إمامه، ونقض البيعة، ولم يستجب لنصيحة أحد، فأغراه المنصور حتى قدم إليه فى العراق، وقتله فى سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٦م.

وبعد مقتل أبى مسلم الخراسانى، خطب المنصور مبينًا حقيقة الموقف، قال: "أيها الناس، لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تمشوا فى ظلمة الباطل بعد سعيكم فى ضياء الحق، إن أبا مسلم أحسن مبتدئًا وأساء معقبًا، فأخذ من الناس بنا أكثر مما أعطانا، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره، وعلمنا من خبيث سريرته وفساد نيته ما لو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا فى قتله، وعنفنا فى إمهالنا، فما زال ينقض بيعته، ويخفر ذمته حيث أحل لنا عقوبته، وأباحنا دمه، فحكمنا فيه حكمه لنا فى غيره، ممن شق العصا، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه».

ولكن الأمور لم تهدأ فقد غضب البعض لمقتل أبى مسلم، وكان ممن غضب لمقتل أبى مسلم الخراسانى، رجل مجوسى اسمه سُنباد، فثار والتف حوله الكثيرون من أهل خراسان، فهجموا على ديار المسلمين فى نيسابور وقومس والرى، فنهبوا الأموال وقتلوا الرجال وسبوا النساء، ثم قالوا: إنهم عامدون لهدم الكعبة، فأرسل إليهم المنصور جيشًا بقيادة جمهور ابن مرار العجلى، فهزمهم واستردَّ الأموال والسبايا سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٦م.

ولم يتنه الأمر إلى هذا الحد، فقد ثار ضده قائد جيوشه التى وجهها لسحق تمرد «سنباد» وهو «جمهور بن مرار العجلى» الذى أغراه المال والغنيمة التى كانت فى خزائن أبى مسلم الخراسانى فطمع «جمهور»، فلم يرسل المال إلى الخليفة المنصور، ونقض البيعة ونادى بخلع المنصور، وأرسل المنصور القائد «محمد بن الأشعث» على رأس جيش عظيم، فهزم «جمهوراً» وفر هارباً إلى «أذربيجان»، وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ/ ٧٥٦م.

ثم واجه الخليفة المنصور ثورة أخرى هى أشد من ذلك وهى ثورة الخوارج الذين أصبحوا مصدر إزعاج للدولة العباسية حيث خرج آنذاك مُلَبّد بن حرملة

الشيبانى فى ألف من أتباعه بالجزيرة من العراق، وانضم إليه الكثيرون، فغلب بلادًا كثيرة، إلى أن تمكنت جيوش المنصور بقيادة خازم بن خزيمة من هزيمته فى سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٧م.

وتحرك الخوارج مرة ثانية فى خلافة المنصور سنة ١٤٨هـ بالموصل تحت قيادة حسا بن مجالد الهمدانى، إلا أن خروجه هو الآخر قد باء بالفشل.

وواجه الخليفة المنصور العباسى ثورات أخرى لطائفة من الخوارج يقال لها «الراوندية» ينتسبون إلى قرية راوند القريبة من أصفهان وهم يؤمنون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى واحد يسمى عثمان بن نهيك وأن جبريل هو الهيثم بن معاوية -رجل من بينهم-، بل لقد خرجوا عن الإسلام زاعمين أن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو أبوجعفر المنصور، فراحوا يطوفون بقصره قائلين: هذا قصر ربنا. ولم يكن ينفع هؤلاء إلا القتال، فقاتلهم المنصور حتى قضى عليهم جميعًا بالكوفة.

ثم واجه المنصور ثورة أبناء العمومة من العلويين أنصار وأعوان الأمس وهى من أخطر الثورات التى واجهت المنصور خروج محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على، وكان من أشراف بنى هاشم علمًا ومكانة، وكان يلقب بـ النفس الزكية فاجتمع العلويون والعباسيون معًا وبايعوه أواخر الدولة الأموية، وكان من المبايعين المنصور نفسه، فلما تولى الخلافة لم يكن له هم إلا طلب محمد هذا خشية مطالبته بطاعة هؤلاء الذين بايعوه من قبل، وهنا خرج محمد النفس الزكية بالمدينة سنة ١٤٥هـ/٧٦٣م، وبويع له فى كثير من الأمصار.

وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة، واجتمع معه كثير من الفقهاء، وغلب أتباعه على فارس وواسط والكوفة، وشارك فى هذه الثورة كثير من الأتباع من كل الطوائف.

وبعث المنصور إلى محمد النفس الزكية يعرض عليه الأمن والأمان له ولأولاده وإخوته مع توفير ما يلزم له من المال، ويرد محمد بأن على المنصور نفسه أن يدخل فى طاعته هو؛ ليمنحه الأمان.

وكانت المواجهة العسكرية هى الحل بعد فشل المكاتبات، واستطاعت جيوش أبى جعفر أن تهزم النفس الزكية بالمدينة وتقتله، وتقضى على أتباع إبراهيم فى قرية قريبة من الكوفة وتقتله أيضاً.

واستمرت الثورات على الخليفة المنصور ففى سنة ١٥٠هـ يخرج أحد الملاحدة ببلاد خراسان ويستولى على أكثرها، وينضم له أكثر من ثلاثمائة ألف، فيقتلون خلقًا كثيرًا من المسلمين، ويهزمون الجيوش فى تلك البلاد، وينشرون الفساد هنا وهناك، ويبعث أبوجعفر المنصور بجيش قوامه أربعون ألفا بقيادة خازم بن خزيمة، فيقضى على هؤلاء الخارجين، وينشر الأمن والاستقرار فى ربوع خراسان.

وشهد عهد الخليفة أبوجعفر المنصور عدداً من القادة الأبطال أبرزهم معِن بن زائدة الشيبانى:وهو القائد العربى المسلم الذى قضى على أعداء الدولة العباسية.

ومن أهم أعمال الخليفة المنصور قيامه ببناء مدينة بغداد وأطلق عليها اسم مدينة السلام ودار السلام وبها تعرف العراق القديمة والحديثة.

وتم بناء المدينة فى عدة سنوات من «١٤٩ ـ ١٤٥» على شكل دائرة يحيط بها سور يسمى السور الأعظم واربع بوابات البوابة الأولى تسمى باب الشام التى تقود إلى بلاد الشام والبوابة الثانية تسمى باب الكوفة التى تقود إلى محافظة الكوفة والبوابة الثالثة تسمى باب البصرة التى تقود إلى محافظة البصرة والبوابة الرابعة باب خراسان التى تقود إلى الفارسيين أو دولة إيران وداخل المدينة كان هناك جامع المنصور الذى كان مربع الشكل ودواوين الحكومة ومساكن الناس والجيش.

ونشطت الحركة العلمية حيث وصلت الحضارة العباسية إلى أوج عظمتها فكان هناك عدد من العلماء منهم الخليل بن احمد الفراهيدى الذى اشتهر بعلوم النحو وعلوم العروض (لمعرفة نظام الشعر وأوزانه) والقاضى أبويوسف فى علم الفقه والمسعودى فى الجغرافية واليعقوبى والطبرى فى التاريخ ويبرز جابر بن حيان فى الكيمياء والحسن بن الهيثم فى الرياضيات وابتكروا الإسطرلاب لرصد حركة النجوم والكواكب وحنين بن إسحاق ومعظم أفراد أسرته فى اللغة والأدب

وكان حنين يشرف على أهم مكتبة فى عهد المأمون وهى مكتبة بيت الحكمة فأصبحت بغداد أكبر مركز علمى وثقافى آنذاك يقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم للدراسة فى مدارسها وجامعاتها مثل المدرسة المستنصرية.

وتقع مدينة بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة عند أقرب نقطة بين دجلة والفرات، لتصبح ملتقى الطرق القادمة من الشام شمالا، ومن الصين شرقًا، ومن طوائف مصر، ومن الحجاز جنوبًا، إلى جانب موقعها العسكرى الخطير، فهى بين نهرى الفرات ودجلة، فلا وصول إليها إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطع الجسر وخربت القنطرة لم يتمكن العابر من الوصول إليها، ولبغداد مزايا أخرى عديدة، واستعان بهم المنصور فى ضبط العمل ببغداد كالإمام الجليل أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب.

ووضع المنصور بنفسه أول لبنة وهو يقول: باسم الله، والحمد لله، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال: ابنوا على بركة الله.

وكان الإمام الأعظم أبوحنيفة النعمان هو القائم على بناء المدينة والمتولى لضرب اللبنة «الطوب».

وأصبحت بغداد عاصمة لها شأنها بين عواصم العالم.

وكانت بغداد تتمتع بالطرق الواسعة النظيفة التى تمتد إليها المياه من فروع نهر دجلة فى قنوات مخصوصة تمتد بالشوارع صيفًا وشتاءً، وكانت شوارعها تكنس كل يوم، ويحمل ترابها خارجها، وعيَّن المنصور على أبوابها جندًا يحفظون الأمن بها، فصانها وحفظ لها نظامها ونظافتها من الداخل، وقد فرغ من بناء بغداد وسورها وأسواقها وخندقها بعد ٤ سنوات أى سنة ١٤٩هـ/ ٧٦٦م.

وأمام كثرة النازحين إلى عاصمة الخلافة أجمل مدن العالم آنذاك، كان لابد أن يهتمَّ المنصور ببناء سوق يضم أصحاب الصناعات والتجار والباعة. وفعلا بنيت الكرخ سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م لتظل عاصمة الخلافة محتفظة بجمالها وسحرها وتألقها.

وكانت الكرخ سوقًا نموذجية، فلكل تجارة سوق خاصة بها، ولم يبقَ إلا أن يبنى المنصور مسجدًا جامعًا يجتمعون فيه حتى لايدخلوا بغداد، فبنى للعامة جامعًا، وهو غير جامع المنصور الذى كان يلى القصر، وفى سنة ١٥١هـ/ ٧٦٨م يبنى المنصور مدينة أخرى لابنه المهدى على الضفة الشرقية لنهر دجلة وهى مدينة الرصافة ثم بنى الرافقة وكانت هاتان المدينتان صورتان من بغداد.

وإلى جانب هذه النهضة العمرانية راح المنصور يسهر على تنفيذ طائفة من الإصلاحات الداخلية على مستوى الدولة كلها واختار المنصور خيار الرعية لتولى الوظائف العامة لإقامة العدل بين الناس فكان نظامهم أن يتم اختيارهم بعيدًا عن الهوى والمصالح. روى أن الربيع ابن يونس وزير أبى جعفر قال له ذات يوم: إن لفلان حقّا علينا؛ فإن رأيت أن تقضى حقه وتوليه ناحية.

فقال له المنصور: يا ربيع، إن لاتصاله بنا حقًا فى أموالنا لا فى أعراض الناس وأموالهم.

ثم بين للربيع أن لا يولى إلا الأكفاء، ولا يؤثر عليهم أصحاب النسب والقرابة.

وكان يقول: ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر، لا يكون على بابى أعف منهم، هم أركان الدولة، ولا يصلح الملك إلا بهم، أما أحدهم: فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم، والآخر: صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث: صاحب خراج، يستقضى ولا يظلم الرعية، فإنى عن ظلمها غنى.

ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول فى كل مرة: آه. آه. قيل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصّحَّة.

هكذا كان المنصور حريصًا على إقامة العدل، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، وإلى جانب هذا، فقد كان يراقب عماله وولاته على الأقاليم، ويتتبع أخبارهم أولا بأول، ويتلقَّى يوميًا الكتب التى تتضمن الأحداث والوقائع والأسعار ويبدى رأيه فيها، ويبعث فى استقدام من ظُلم ويعمل على إنصافه متأسيًا فى ذلك

بما كان يفعل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأعطى المنصور كل العناية للمساجد، خاصة المسجد الحرام، فعمل على توسعته عام ١٤٠هـ، وسار إلى بيت المقدس بعد أن أثر فيه ذلك الزلزال الذى حدث بالشام، فأمر بإعادة بنائه مرة أخرى، وبنى مسجدًا بمنى وجعله واسعًا، يسع الذين يقفون فى منى من حجاج بيت الله، وشهدت مدن الدولة الكبرى نهضة إنشائية وعمرانية، روعى فيها بناء العديد من المساجد فى البصرة والكوفة وبغداد وبلاد الشام وغيرها من أقاليم الدولة.

ويذكر التاريخ للمنصور- إلى جانب هذه النهضة الإصلاحية العمرانية اهتمامه بالزراعة والصناعة وتشجيعه أصحاب المهن والصناعات، وتأمينه خطوط التجارة والملاحة فى الخليج العربى حتى الصين من خطر القراصنة الهنود الذين كانوا يقطعون طرق التجارة، ويقتلون التجار، ويستولون على الأموال، وراح قُواده يؤدبون هؤلاء اللصوص. وكثيرًا ما يعود قواد البحر بالغنائم والأسرى حتى انقطعت القرصنة بعد سنة ١٥٣هـ/ ٧٧٠م، ولقد تم فى عهده إعادة فتح طبرستان سنة ١٤١هـ/ ٧٥٩م، فيما وراء النهر.

وأعطى المنصور اهتمامًا بالغًا بجهة الشمال؛ فراح يأمر بإقامة التحصينات والرباطات على حدود بلاد الروم الأعداء التقليديين للدولة الإسلامية.

ثم كانت الغزوات المتتابعة سببًا فى أن ملك الروم راح يطلب الصلح، ويقدم الجزية صاغرًا سنة ١٥٥هـ. وقام بحملته التأديبية على قبرص لقيام أهلها بمساعدة الروم، ونقضهم العهد الذى أخذوه على أنفسهم يوم أن فتح المسلمون قبرص فى عهد الأمويين.

فكان يلبس الخشن، ويرقع القميص ورعاً وزهداً وتقوى، ولم ير فى بيته أبداً لهو ولعب ولم يقف ببابه الشعراء لعدم وصله لهم بالأعطيات كما كان يفعل غيره من الخلفاء حتى اتهم بالبخل الشديد.

وذكر عن حماد التركى أنه قال: «كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فى الدار فقال ما هذا يا حماد انظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال وأى شىء الطنبور فوصفته له فقال له أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرجه من قصره.

وقد عرف عن المنصور ميله إلى الاقتصاد فى النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه، ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وإنما كانت أعطياته أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق هو الفضل بن سهل الوزير.

وتوفى الخليفة المنصور أثناء رحلته لأداء الحج عام ١٥٨ هـ - ٧٧٥م حيث مرض فى الطريق، وكان ابنه محمد المهدى قد خرج ليشيعه فى حجه، فأوصاه بإعطاء الجند والناس حقهم وأرزاقهم ومرتباتهم، وأن يحسن إلى الناس، ويحفظ الثغور، ويسدد دينًا كان عليه مقداره ثلاثمائة ألف درهم، كما أوصاه برعاية إخوته الصغار، وقبل أن يدخل مكة لقى ربه وترك الخزانة عامرة، فيها ما يكفى عطاء الجند ونفقات الناس لمدة عشر سنوات.

وكتب أبو جعفر فى وصيته لابنه المهدى: ولدت فى ذى الحجة، ووليت فى ذى الحجة، وقد هجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة، وإنما حدانى على الحج ذلك، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى، يجعل لك فى كربك وحزنك فرجًا ومخرجًا، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب.

يا بنى: احفظ محمدًا فى أمته، يحفظك الله، ويحفظ عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوبٌ (إثم) عند الله عظيم، وعار فى الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود، فإن فيها خلاصك فى الآجل، وصلاحك فى العاجل، ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله تعالى لوعلم شيئًا أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمرٍ به فى كتابه.

واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه، أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فسادًا، مع ما ادّخر له عنده من العذاب العظيم، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣).

فالسلطان يا بنى حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودينه القيم، فاحفظه وحصنه، وذُبَّ عنه، وأوقع بالملحدين فيه، وأقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن، واحكم بالعدل ولا تشطط؛ فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع فى الدواء، وعفّ عن الفىء، فليس بك إليه حاجة مع ما خلفه الله لك.

وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة، وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمّن السبل، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم، وادفع المطاردة عنهم، وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبذير، فإن النوائب غير مأمونة، وهى من شيم الزمان، وأعد الكراع والرجال والجند ما استطعت.

وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد، فتتدارك عليك الأمور وتضيع، جد فى إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا، واجتهد وشمر فيها، وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن بربك، وأسئ الظن بعمالك وكتّابك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقد من تثبت على بابك، وسهّل إذنك للناس.

وانظر فى أمر النزاع إليك، ووكل بهم عينًا غير نائمة، ونفسًا غير لاهية، ولا تنم، وإياك، فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة، ولا دخل عينه النوم إلا وقلبه مستيقظ.

يا بنى: لا يصلح السلطان إلا بالتقوى، ولا تصلح الرعية إلا بالطاعة، ولا تعمر البلاد بمثل العدل، هذه وصيتى إليك، والله خليفتى عليك.

تلك وصية جامعة من خليفة قد عمر الإسلام قلبه إلى خليفة آخر سار على

نهجه فى ضبط الأمور والرعية فى سنوات عز الإسلام ومجده.

٣ ـ الخليفة الثالث وابن الخليفة الثانى وأبو الخليفة الرشيد:

أبو عبدالله المهدى محمد بن منصور عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس تولى الخلافة عام ١٥٨ حتى ١٦٩ هـ «٧٧٥م ـ ٧٨٥م»، ولد عام ١٣٧ هـ ـ ٧١٤م بإذج من كور الأهواز. ولى الخلافة بعد وفاة أبيه أبى جعفر المنصور عام ١٥٨م.

كان المهدى جواداً شهما فطنا مليح الشكل محبباً إلى الرعية حسن الاعتقاد تتبع الزنادقة وأفنى منهم خلقاً كثيراً وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين روى الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة حدث عنه يحيى بن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعى ومحمد بن عبد الله الرقاشى وأبوسفيان سعيد بن يحيى الحميرى، قال الذهبى وما علمت قيل فيه جرحاً ولا تعديلا.

ولاه أبوه المنصور الإمارة على طبرستان وما والاها وجالس العلماء وتميز ثم إن أباه عهد إليه فلما مات بويع بالخلافة ووصل الخبر إليه ببغداد فخطب الناس فقال: إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب وأمر فأطاع واغرورقت عيناه فقال قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وبه أستعين على خلافة المسلمين أيها الناس أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية وتحمدوا العاقبة واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الإصر عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدما ذلك والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم والإحسان إليكم.

قال نفطويه: لما حصلت الخزائن فى يد المهدى أخذ فى رد المظالم فأخرج أكثر الذخائر ففرقها وبر أهله ومواليه وقال غيره: أول من هنأ المهدى بالخلافة وعزاه بأبيه أبودلامة فقال:

عيناى واحدة ترى مسرورة ... بأميرها جذلى وأخرى تذرف

تبكى وتضحك تارة ويسوؤها ... ما أنكرت ويسرها ما تعرف

فيسوؤها موت الخليفة محرماً ... ويسرها أن قام هذا الأرأف

ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى ... شعراً أسرحه وآخر ينتف
هلك الخليفة يا لدين محمد ... وأتاكم من بعد من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة ... ولذاك جنات النعيم تزخرف

ولد المهدى: موسى أمير المؤمنين الهادى؛ وهارون أمير المؤمنين الرشيد أمهما الخيزران، أم ولد؛ وعبد الله، شقيقهما؛ وعلى، وعبيد الله، أمهما ريطة بنت أبى العباس السفاح؛ وإبراهيم، القائم ببغداد، أمه شكلة من سبى طبرستان؛ ومنصور، عمر حتى أدرك المتوكل؛ وإسحاق: ويعقوب؛ وبنات، منهن علية الشاعرة، تزوجها موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس؛ ومنهن العباسة، تزوجها محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس، ونقلها إلى البصرة.

وكان ابنه إبراهيم شاعراً فاضلاً مقدماً فى قومه وعلمه ودينه، من أعلم الناس بالغناء. وكان يعقوب بن المهدى زامراً. وكان لإبراهيم ابن فاضل اسمه هبة الله، جالس الخليفة المعتمد؛ وطال عمره. وكان لعلى بن المهدى بنون وبنات؛ منهم: العباس بن على؛ تزوج المتوكل ابنته، وعاشت بعد موت زوجها ثلاثاً وسبعين سنة، وماتت فى أيام المقتدر. وبمصر، أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن منصور بن المهدى.

وفى سنة ثلاث وستين وما بعدها كثرت الفتوح بالروم، وفى سنة ست وستين تحول المهدى إلى قصره المسمى بعيساباذ وأمر فأقيم له البريد من المدينة النبوية ومن اليمن ومكة إلى الحضرة بغالا وإبلا.

قال الذهبى: وهو أول من عمل البريد من الحجاز إلى العراق.

وفيها فيما بعدها جد المهدى فى تتبع الزنادقة وإبادتهم والبحث عنهم فى الآفاق والقتل على التهمة.

وفى سنة سبع وستين أمر بالزيادة الكبرى فى المسجد الحرام وأدخل فى ذلك دوراً كثيرة.

وفى سنة تسع وستين مات المهدى، سار خلف صيد فاقتحم الصيد خربة وتبعه الفرس فدق ظهره فى بابها فمات لوقته وذلك لثمان بقين من المحرم وقيل إنه مات مسموماً.

ومن أخبار المهدى قال الصولى لما عقد المهدى العهد لولده موسى قال مروان بن أبى حفصة:

عقدت لموسى بالرصافة بيعة ... شد الإله بها عرى الإسلام

موسى الذى عرفت قريش فضله ... ولها فضيلتها على الأقوام

وقال قريش الختلى: رفع صالح بن عبد القدوس البصرى إلى المهدى فى الزندقة فأراد قتله فقال أتوب إلى الله وأنشده لنفسه:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه

فصرفه فلما قرب من الخروج رده فقال: ألم تقل والشيخ لا يترك أخلاقه؟ قال: بلى.

قال: فكذلك أنت لا تدع أخلاقك حتى تموت.

ثم أمر بقتله.

وقال زهير قدم على المهدى بعشرة محدثين: منهم فرج بن فضالة وغياث بن إبراهيم وكان المهدى يحب الحمام فلما أدخل غياث قيل له حدث أمير المؤمنين فحدثه عن فلان عن أبى هريرة مرفوعاً لا سبق إلا فى حافر أونصل وزاد فيه أو جناح.

فأمر له المهدى بعشرة آلاف درهم فلما قام قال أشهد أن قفاك قفا كذاب وإنما استجلبت ذلك.

ثم أمر بالحمام فذبحت.

وروى أن شريكاً دخل على المهدى فقال له لا بد من ثلاث إما أن تلى القضاء أو تؤدب ولدى وتحدثهم أو تأكل عندى أكلة ففكر ساعة ثم قال الأكلة أخف على.

فأمر المهدى بعمل ألوان من المخ المعقود بالسكر وغير ذلك فأكل فقال الطباخ لا يفلح بعدها.

قال: حدثهم بعد ذلك وعلمهم العلم وولى القضاء لهم.

وأخرج البغوى فى الجعديات عن حمدان الأصبهانى قال كنت عند شريك فأتاه ابن المهدى فاستند وسأل عن حديث فلم يلتفت شريك ثم أعاد فعاد فقال كأنك تستخف بأولاد الخلفاء قال لا ولكن العلم أزيد عند أهله من أن يضيعوه.

فجثا على ركبتيه ثم سأله فقال شريك هكذا يطلب العلم.

وأسند عن إسحاق الموصلى قال: كان المهدى فى أول أمره يحتجب عن الندماء تشبيهاً بالمنصور نحواً من سنة ثم ظهر لهم فأشير عليه أن يحتجب فقال إنما اللذة مع مشاهدتهم.

وأسند عن مهدى بن سابق قال: صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه:

قل للخليفة: حاتم لك خائن   فخف الإله وأعفنا من حاتم

إن العفيف إذا استعان بخائن   كان العفيف شريكه فى المأتم

فقال المهدى: يعزل كل عامل لنا يدعى حاتماً.

وأسند عن أبى عبيدة قال كان المهدى يصلى بنا الصلوات الخمس فى المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها فأقيمت الصلاة يوماً فقال أعرابى لست على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك فأمر هؤلاء بانتظارى.

فقال: انتظروه ودخل المحراب فوقف إلى أن قبل قد جاء الرجل فكبر فعجب الناس من سماحة أخلاقه.

وأسند عن إبراهيم بن نافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا إليه فى نهر من

أنهار البصرة فقال: إن الأرض لله فى أيدينا للمسلمين فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه على كافتهم وفى مصلحتهم فلا سبيل لأحد عليه.

فقال القوم: هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه قال: من أحيا أرضاً ميتة فهى له وهذه موات.

فوثب المهدى عند ذكر النبى ﷺ حتى ألصق خده بالتراب وقال: سمعت لما قال وأطعت ثم عاد وقال بقى أن تكون هذه الأرض مواتاً حتى لا أعرض فيها وكيف تكون مواتاً والماء المحيط بها من جوانبها فإن أقاموا البينة على هذا سلمت.

وأسند عن الأصمعى قال: سمعت المهدى على منبر البصرة يقول إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته فقال: إن الله وملائكته يصلون على النبى (الآية) آثره بها من بين الرسل إذ خصكم بها من بين الأمم.

ذكر أحاديث من رواية المهدى: قال الصولى: حدثنى أحمد بن محمد ابن صالح التمار حدثنا يحيى بن محمد القرشى حدثنا أحمد بن هشام حدثنا أحمد ابن عبد الرحمن بن مسلم المدائنى وهو ثقة صدوق قال سمعت المهدى يخطب فقال: حدثنا شعبة عن على بن زيد عن أبى النضرة عن أبى سعيد الخدرى قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطبة من العصر إلى مغرب الشمس حفظها من حفظها ونسيها من نسيها فقال: إلا إن الدنيا حلوة خضرة الحديث بطوله.

وفى سنة تسع وخمسين بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ثم من بعده لهارون الرشيد ولديه.

وفى سنة ستين فتحت أربد من الهند عنوة وفيها حج المهدى فأنهى إليه حجبة الكعبة أنهم يخافون هدمها لكثرة ما عليها من الأستار فأمر بها فجردت واقتصر على كسوة المهدى وحمل إلى المهدى الثلج إلى مكة قال الذهبى لم يتهيأ ذلك لملك قط.

وفى سنة إحدى وستين أمر المهدى بعمارة طريق مكة وبنى بها قصوراً وعمل

البرك وأمر بترك المقاصير التى فى جوامع الإسلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر رسول الله ﷺ.

وفى سنة ثلاث وستين وما بعدها كثرت الفتوح بالروم.

وقال سلم الخاسر يرثيه:

وباكية على المهدى عبرى ... كأن بها وما جنت جنونا

وقد خمشت محاسنها وأبدت ... غدائرها وأظهرت القرونا

لئن بلى الخليفة بعد عز ... لقد أبقى مساعى ما بلينا

سلام الله عدة كل يوم ... على المهدى حين ثوى رهينا

تركنا الدين والدنيا جميعاً ... بحيث ثوى أمير المؤمنينا

ومن أخبار المهدى قال الصولى لما عقد المهدى العهد لولده موسى قال مروان بن أبى حفصة:

عقدت لموسى بالرصافة بيعة ... شد الإله بها عرى الإسلام

موسى الذى عرفت قريش فضله ... ولها فضيلتها على الأقوام

بمحمد بعد النبى محمد ... حيى الحلال ومات كل حرام

مهدى أمته الذى أمست به ... للذل آمنه وللإعدام

موسى ولى عهد الخلافة بعده ... جفت بذاك مواقع الأقلام

وقال آخر:

يا بن الخليفة إن أمة أحمد ... تاقت إليك بطاعة أهواؤها
ولتملأن الأرض عدلا كالذى ... كانت تحدث أمة علماؤها
حتى تمنى لوترى أمواتها ... من عدل حكمك ما ترى أحياؤها
فعلى أبيك اليوم بهجة ملكها ... وغدا عليك إزارها ورداؤها

وأسند الصولى أن امرأة اعترضت المهدى فقالت يا عصبة رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر فى حاجتى فقال المهدى: ما سمعتها من أحد قط اقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

ومن شعر المهدى ما أنشده الصولى:

ما يكف الناس عنا ... ما يمل الناس منا
إنما همتهم أن ... ينبشوا ما قد دفنا
لو سكنا بطن أرض ... فلكانوا حيث كنا
وهم إن كاشفونا ... فى الهوى يوماً مجنا

ولما مات قال أبوالعتاهية وقد علقت المسوح على قباب حرمه:

رحن فى الوشى وأصبحن ... عليهم المسوح
كل نطاح من الدهر ... له يوم نطوح
لست بالباقى ولوعم ... رت ما عمر نوح
نح على نفسك يا ... مسكين إن كنت تنوح

قال الذهبى - رحمه الله - ما علمت قيل فيه جرحا ولا تعديلا .كان له حظ وافر من العلم، وحظ أوفر من البطولة والشجاعة، كان كريما سخيا ورعا، أكرم

أهل العلم والدين، وأخباره مع سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ مشهورة، ويوما وعظه صالح بن عبد الجليل وذكره بسيرة العمرين حتى أبكاه.

وبلغ من تقواه وخشيته لله تعالى ما ذكره الطبرى ـ رحمه الله ـ إذ قال أحدهم أصابتنا ريح فى أيام المهدى حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر، فخرجت أطلب أمير المؤمنين، فوجدته واضعا خده على الأرض يقول: اللهم احفظ محمدا ـ ﷺ ـ فى أمته، اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم، اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك، قال:فما لبثنا إلا يسيرا حتى انكشفت الريح وانجلى ما كنا فيه).

وحين انقطع الغيث أمر بالصوم سنة ١٦٦هجرية ليستسقى للناس فى اليوم الرابع فلما كان فى الليلة الثالثة أصابهم الثلج فقال لقيط بن بكير المحاربى فى ذلك:

يا إمام الهدى سقينا بك الغيث وزالت عنا بك اللاواء[١]

وكان عهده عهد وفاء ويسر، ونشاط وعمران، وأبرز معالم نشاطه الدينى تظهر فى محاربته الزندقة وتقصى الزنادقة والاقتصاص منهم فأنشأ ديوانا لهم سمى القائم عليه صاحب الزنادقة، وولى عليه عثمان بن نهيك الذى كان يتتبعهم ويقتل من تثبت عليه التهمة وبلغ الأمر بالمهدى إن أخذ ابن وزيره محمد بن عبيد الله بالزندقة، لأنه لايحفظ شيئا من القرآن الكريم[٢].

وفى الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ أنه اعترف بالزندقة فقتله. ويزداد سعى المهدى فى البحث عن الزنادقة فى الآفاق، فقلد عمر الكلواذانى ديوان الزنادقة فطلبهم، فظفر بجماعة منهم، فيهم يزيد بن فيض كاتب المنصور الذى أقر بالزندقة فحبس[٣].

---

(١) انظر تاريخ الطبرى المسمى تاريخ الأمم والملوك.

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

(٣) تاريخ الطبرى مصدر سابق.

وبعد وفاة عمر ولى الديوان محمد بن عيسى حمدوية وكان أتى بابن لداود بن على، ويعقوب بن الفضل بن عبد المطلب وأقرا بالزندقة وأقرت ابنة الأخير بأنها حامل منه، ولم تلبث أن ماتت فزعا فاقسم المهدى على يعقوب قائلا ولولا أنى كنت جعلت لله على عهدا إذا ولانى هذا الأمر ألا اقتل هاشميا لما ناظرتك ولقتلتك، وأقسم على أخيه أن يقتلهما. ولم يعرف من الهاشميين متزندقا سواهما، وهذا يكشف خطر أفكار الزنادقة وانتشارها.

وقد اشتد نشاط الزنادقة عن طريق ترجمة كتب العقائد الفارسية التى تعتنى بدعوة أصحاب مانى المجوسية وكتاب زرادشت صاحب الثنوية، ولقد مزج مانى بين الزرادشتية: (الإلهى النور والظلمة والزواج بالبنات والأخوات)، والبوذية: (التناسخ وتحريم ذبح الحيوان)، والنصرانية: (الزهد والنسك)، وكذلك تعنى المزدكية التى تؤمن بالثنوية، والإمعان فى اللذات والشهوات (الإباحية).

واتسع معنى الزندقة هذا من ديانة الفارسية إلى سائر أتباع الديانات الفارسية التى تظاهر أهلها بالإسلام، وأبطنوا كل كفر وإلحاد وشك وفلسفة مع مجاهرة بالمجون والإثم.

لهذا نشط المهدى ـ رحمه الله ـ وشدد الحملة عليهم حتى عرف بـ (جزار الزنادقة).

(وحينما خرج لحرب الروم سنة ١٦٣ هـ أرسل إلى حلب فجمع من تلك الناحية الزنادقة، فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين).

واخذ المهدى فى سنة ١٦٦ هـ داود بن روح بن حاتم، وإسماعيل بن سليمان، ومحمد بن أبى أيوب المكى، ومحمد بن طيفور، بالزندقة، فاستتابهم وخلى سبيلهم، وبعث داود إلى أبيه والى البصرة فأمره بتأديبه.

وأخذ بشار بن برد فأمر صاحب الزنادقة بقتله بعد إن أذن وهو سكران فى غير الوقت وبشار هذا ينسب إلى الإلحاد المحض والثنوية.

وقبل وفاته أوصى ابنه الهادى بتعقب الزنادقة فقال له يا بنى إن صار لك هذا

الأمر فتجرد لهذه العصابة فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم يخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب ـ أى صلبهم ـ وجرد فيها السيف وتقرب بآمرها إلى الله لاشريك له فإنى رأيت جدك العباس ﷺ فى المنام قلدنى سيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين)[1].

لهذا قام الهادى بحرب الزندقة أحسن القيام، وأبقى على منصب صاحب الزنادقة، ونفذ وصية أبيه فقتل يعقوب بن الفضل، وأما عبد الله بن داود بن على فقد مات فى السجن، ثم قتل يزدان بن باذان كاتب يقطين وابنه على من أهل النهروان، وكان يزدان هذا لعنه الله قد شبه الطائفين حول الكعبة بالبقرة تدوس البيدر فقتله ثم صلبه[2].

٤ ـ ثم كان الخليفة الرابع ابن الخليفة الثالث وأخو الخليفة الخامس الرشيد هارون إنه الخليفة الهادى موسى بن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس.

المولود فى ١٤٧ هـ وتولى الخلافة بعد أبيه الهادى عام ١٦٩ حتى ١٧٠هـ «٧٨٥ ـ ٧٨٦» ولد بالرى وبويع بالخلافة بعد أبيه بعهد منه.

---

(١) تاريخ الطبرى ـ مصدر سابق.

(٢) تاريخ الطبرى.

والزندقة: هى التأويل الفاسد بمعنى البدعة والإلحاد.

وهى: القول بالدهر مثل قول ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤)، وإنكار النبوات والكتب المنزلة كما فى «رسالة الغفران» للمعرى.

وهى: «الثنوى «مروج الذهب».

وهى: النفاق: «تحريم النظر عند كتب أهل الكلام» لبن قدامة.

وهى: الدهريين والبيعيين لإنكارهم الله واليوم الآخر «المنقذ من الضلال للغزالى صد ١٨».

لم يل الخلافة قبله أحد فى عمره فأقام فيها سنة وأشهراً وقد أوصاه أبوه بقتل الزنادقة فجد فى أمرهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وكان فصيحاً قادراً على الكلام أديباً تعلوه هيبة وله سطوة وشهامة.

توفى أبوه فى المحرم من أول سنة تسع وستين ومائة، وكان ولى العهد من بعد أبيه، لكن كان أبوه قد عزم على تقديم أخيه هارون الرشيد عليه فى ولاية العهد، فلم يتفق ذلك حتى مات أبوه بماسبذان فى شهر الله المحرم، وكان الهادى إذ ذاك بجرجان، فهم بعض الدولة منهم، الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له، وكان حاضرا ببغداد، وعزموا على النفقة فى الجند لذلك تنفيذا لما رآه المهدى من ذلك.

فأسرع الهادى السير من جرجان إلى بغداد حين بلغه الخبر، فساق منها إليها فى عشرين يوما فدخل بغداد وقام فى الناس خطيبا، وأخذ البيعة منهم فبايعوه، وتغيب الربيع الحاجب، فتطلبه الهادى حتى حضر بين يديه، فعفا عنه وأحسن إليه.

وشرع الهادى فى تطلب الزنادقة من الآفاق، فقتل منهم طائفة كثيرة، واقتدى فى ذلك بأبيه، وقد كان موسى الهادى من أفكه الناس مع أصحابه فى الخلوة، فإذا جلس فى مقام الخلافة لا يستطيعون النظر إليه؛ لما يعلوه من المهابة والرياسة.

وكانت أول مشكلة يواجهها فور توليه الخلافة أنه وفى سنة تسع وستين ومائة ـ خرج بالمدينة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض، وجلس فى المسجد النبوى، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين، والتف عليه جماعة، فبايعوه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والرضا من أهل البيت.

وكان سبب خروجه أن متوليها خرج منها إلى بغداد لتلقى أمير المؤمنين وتهنئته بالولاية، وتعزيته فى أبيه المهدى.

ثم جرت أمور اقتضت خروجه، والتف عليه جماعة، وجعلوا مأواهم المسجد النبوى، ومنعوا الناس من الصلاة فيه، ولم يجبه أهل المدينة، وجعلوا يدعون عليه لانتهاكه المسجد.

ثم ارتحل إلى مكة، فأقام بها إلى زمن الحج، فبعث إليه الهادى جيشا، فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم، فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه، وهرب بقيتهم، وتفرقوا.

وكانت مدة خروج الحسين بن على بن الحسن إلى مقتله تسعة أشهر وثمانية عشر يوما، وقد كان كريما من أجود الناس ـ رحمه الله ـ فقد روى عنه أنه دخل يوما على المهدى، فأطلق له أربعين ألف دينار، ففرقها فى أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة، وما خرج منها وعليه قميص، إنما عليه فروة ليس دونها قميص.

قال الصولى: لا يعرف خليفة ركب البريد إلا الهادى من جرجان إلى بغداد، قال: وكان نقش خاتمه «الله ثقة موسى وبه يؤمن».

وقال الصولى: ولسلم الخاسر فى الهادى يمدحه:

موسى المطر ... غيث بكر

ثم انهمر ... ألوى المرر

كم اعتسر ... وكم قدر

ثم غفر ... عدل السير

باقى الأثر ... خير وشر

نفع وضر ... خير البشر

فرع مضر ... بدر بدر

لمن نظر ... هو الوزر

لمن حضر والمفتخر لمن غبر

قال: وهذا على جزء جزء مستفعلن مستفعلن وهو أول من عمله ولم نسمع لمن قبله شعراً على جزء جزء.

وأسند الصولى: عن سعيد بن سلم قال: إنى لأرجو أن يغفر الله للهادى بشىء رأيته منه حضرته يوماً وأبوالخطاب السعدى ينشده قصيدة فى مدحه إلى أن قال:

يا خير من عقدت كفاه حجزته   وخيـر من قلدته أمرها مضر

فقال له الهادى: إلا من ويلك قال سعيد: ولم يكن استثنى فى شعره فقلت: يا أمير المؤمنين إنما يعنى من أهل هذا الزمان ففكر الشاعر فقال:

إلا النبى رسـول الله إن له   فضلا وأنت بذاك الفضل تفتخر

فقال: الآن أصبت وأحسنت وأمر له بخمسين ألف درهم.

وقال المدائنى: عزى الهادى رجلاً فى ابن له فقال: سرك وهو فتنة وبلية ويحزنك وهو ثواب ورحمة.

وقال الصولى: قال سلم الخاسر فى الهادى جامعاً بين العزاء والهناء:

لقد قام موسى بالخلافة والهدى   ومات أمير المؤمنين محمد

فمات الذى غم البرية فقده   وقام الذى يكفيك من يتفقد

وفى سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية عزم الهادى على خلع أخيه هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه جعفر بن الهادى فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب، واستدعى الهادى جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك، وأبت ذلك أمهما الخيزران، وكانت تميل إلى ابنها هارون أكثر من موسى، وكان الهادى قد منعها من التصرف فى شىء من المملكة لذلك، بعدما كانت قد استحوذت عليه فى أول ولايته، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء إلى جانبها.

فحلف الهادى لئن عاد أمير إلى بابها ليضربن عنقه ولا يقبل منه شفاعة، فامتنعت من الكلام فى ذلك، وحلفت لا تكلمه أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر.

وألح هو على أخيه هارون فى الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك -

وكان من أكابر الأمراء الذين هم فى صف الرشيد ـ فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابنى جعفر؟

فقال له خالد: إنى أخشى أن تهون الأيمان على الناس، ولكن المصلحة تقتضى أن تجعل جعفراً ولى العهد من بعد هارون، وأيضاً فإنى أخشى ألا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس.

فأطرق ملياً – وكان ذلك ليلاً – ثم أمر بسجنه ثم أطلقه.

وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادى ينظر إليه ملياً ثم قال: يا هارون ! تطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً؟

فقال: إى والله، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأنصفن من ظلمت، ولأزوجن بنيك من بناتى.

فقال: ذاك الظن بك.

فقام إليه هارون ليقبل يده فحلف الهادى ليجلس معه على السرير فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه.

ففعل ذلك كله ورضى الهادى عن الرشيد.

ثم سافر الهادى إلى حديثة الموصل بعد الصلح، ثم عاد منها فمات بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول، وقيل: لآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة.

وكان طويلاً جميلاً، أبيض، بشفته العليا تقلص.

وقد توفى هذه الليلة: خليفة وهو الهادى، وولى خليفة وهو الرشيد، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد.

وقد قالت الخيزران أمهما فى أول الليل: إنه بلغنى أن يولد خليفة ويموت خليفة ويولى خليفة.

ويقال: إنها سمت ولدها الهادى خوفاً منه على ابنها الرشيد، ولأنه كان قد أبعدها وأقصاها وقرب حظيته خالصة وأدناها، فالله أعلم(١).

قال ابن كثير فى البداية والنهاية: ولى الخلافة فى محرم سنة تسع وستين ومائة.

ومات فى النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث، وقيل: أربع، وقيل: ست وعشرون سنة، والصحيح الأول.

ويقال: إنه لم يل الخلافة أحد قبله فى سنه، وكان حسناً جميلاً طويلاً، أبيض، وكان قوى البأس يثب على الدابة وعليه درعان، وكان أبوه يسميه: ريحانتى.

ذكر عيسى بن دأب قال: كنت يوماً عند الهادى إذ جىء بطست فيه رأس جاريتين قد ذبحا وقطعا، لم أر أحسن صوراً منهما، ولا مثل شعورهما، وفى شعورهما اللآلئ والجواهر منضدة، ولا رأيت مثل طيب ريحهما.

فقال لنا الخليفة: أتدرون ما شأن هاتين ؟

قلت: لا.

فقال: إنه ذكر أنه تركب إحداهما الأخرى يفعلان الفاحشة، فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءنى فقال: إنهما مجتمعتان، فجئت فوجدتهما فى لحاف واحد وهما على الفاحشة، فأمرت بحز رقابهما.

ثم أمر برفع رؤوسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الأول كأنه لم يصنع شيئاً.

وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً، ومن كلامه: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجانى، والعفو عن الزلات، ليقل الطمع عن الملك.

وغضب يوماً من رجل فاسترضى عنه فرضى، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادى: إن الرضا كفاك مؤنة الاعتذار.

وعزى رجلاً فى ولده فقال له: سرك وهو عدو وفتنة، وساءك وهو صلاة ورحمة.

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبى حفصة أنشد الهادى قصيدة له منها قوله:

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدرى لأيهما الفضل

فقال له الهادى: أيما أحب إليك؟ ثلاثون ألفاً معجلة أو مائة ألف تدور فى الدواوين؟

فقال: يا أمير المؤمنين! أو أحسن من ذلك؟

قال: ما هو؟

قال: تكون ألفاً معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين.

فقال الهادى: أو أحسن من ذلك، نعجل الجميع لك.

فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة.

ذكر الخطيب البغدادى: حدثنى الأزهرى، ثنا سهل بن أحمد الديباجى، ثنا الصولى، ثنا الغلابى، حدثنى محمد بن عبد الرحمن التيمى المكى، حدثنى المطلب بن عكاشة المزنى، قال: قدمنا على أبى محمد الهادى شهوداً على رجل منا أنه شتم قريشاً وتخطى إلى رسول الله ﷺ، فجلس لنا مجلساً أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه.

فتغير وجه الهادى ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال: إنى سمعت أبى المهدى يحدث عن أبيه المنصور، عن أبيه على بن عبد الله بن عباس، قال: من أهان قريشاً أهانه الله، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن آذيت قريشاً حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله ﷺ؟

اضربوا عنقه، فما برحنا حتى قتل.

توفى الهادى فى ربيع الأول من هذه السنة، وصلى عليه أخوه هارون، ودفن

فى قصر بناه وسماه: الأبيض بعيساباذ من الجانب الشرقى من بغداد، وكان له من الولد تسعة: سبعة ذكور وابنتان، فالذكور: جعفر، وعباس، وعبد الله، وإسحاق، وإسماعيل، وسليمان، وموسى الأعمى، الذى ولد بعد وفاته فسمى باسم أبيه.

والبنتان هما: أم عيسى التى تزوجها المأمون، وأم العباس تلقب: توبة(١).

■ ■ ■



(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

نساء في حياة الرشيد
الأم والأخت والزوجة

كان للمرأة فى حياة الرشيد دور مهم وبارز، فالمرأة إما أن تكون أماً أو زوجة أو أختاً أو ابنة.

فالأم كانت سيدة عظيمة ذات شأن وهى الخيزران بنت عطاء والزوجة وإن تعددت زوجاته إلا أن أبرزهن كانت السيدة زبيدة وكذلك الأخت وهى العباسة علية بنت المهدى.

أما زوجات الرشيد وأولاده فتأتى الزوجة الأولى زبيدة بنت جعفر بن المنصور وهى ابنة عمه، ورغم أن الرشيد قد تزوج أكثر من امرأة إلا أنها كانت المتربعة على عرش قلبه، فقد تزوجها عام ١٦٥ هـ فى خلافة أبيه المهدى وولدت له ابنه محمداً الأمين الذى صار بعد وفاة الرشيد خليفة.

وتزوج أيضاً «أمة العزيز» أم ولد كانت لأخيه الهادى فولدت له ابنه علياً بن الرشيد، وتزوج «أم محمد» ابنة صالح المسكين بنت عمه سليمان بن أبى جعفر عام ١٨٧ هـ فى ليلة واحدة وهو بالرقة بالعراق، وتزوج ابنة عبدالله بن محمد عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان وتلقب الجرشية لأنها ولدت بجرش باليمن وتوفى الرشيد وتحته أربع زوجات زبيدة وأم محمد بنت صالح وعباسة بنت سليمان والجرشية[١].

ومن زوجاته عزيزة بنت العطرين وهى بنت خاله أخو أمه الخيزران.

هذا بخلاف الجوارى ملك اليمين قال ابن كثير رحمه الله فى البداية والنهاية: أما الحظايا من الجوارى فكثير جداً حتى خال بعضهم: «إنه كان فى داره أربعة آلاف جارية سرارى حسان».

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الطبرى.

وكثرة الجوارى والحظايا كان أمراً معروفاً فى هذا الزمان وخاصة عند الملوك والأمراء وكبار القوم.

وأما أولاد الرشيد الذكور فكانوا: محمداً الأمين من زوجته زبيدة، وعبدالله المأمون من جارية فارسية اسمها «مراجل»، ومحمداً أبا إسحاق المعتصم من أم ولده «تركية» يقال لها ماردة، والقاسم المؤتمن من جارية يقال لها قصف، وابنه على من زوجته أمة العزيز، وصالح من جارية اسمها «رثم»، وكذلك لديه محمد أبو يعقوب ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو العباس ومحمد أبو على كل هؤلاء من أمهات أولاد[١].

وأما بنات الرشيد فهن: سكينة من جارية اسمها قصف، وأم حبيبة من ماردة، وأروى وأم الحسن، وأم محمد وهى حمدونة وفاطمة وأمها عفص، وأم سلمة وخديجة وأم القاسم رملة، وأم على، وأم الغالية وريطة وكلهن من أمهات أولاد.

أى أنه قد أنجب عشرة من الذكور، واثنتى عشرة من الإناث.

ولنتعرف بشىء من التفصيل على أهم زوجاته وهى زبيدة ثم على أمه وأخته:

١ ـ زبيدة بنت جعفر بن المنصور:

اسمها أم العزيز ولقبها زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى كان يلاعبها ويرقصها وهى صغيرة ويقول: إنما أنت زبيدة تصغير كلمة «زبدة» لبياضها، فغلب عليها هذا اللقب وأصبح اسمها الذى تعرف به[٢].

تزوجها الرشيد فى أيام أبيه المهدى سنة ١٦٥ هـ فولدت له ابنه محمد الأمين.

وكانت تلقب بصاحبة القرآن والمهندسة العباسية، فأما اللقب الأول لكثرة تلاوة القرءان فى قصرها حيث إن لديها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن وكان يسمع لهن فى القصر دوى كدوى النحل من قراءة القرآن، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن.

---

(١) ومعنى أم ولد أى جارية مملوكة لسيدها أنجبت له فصارت أم ولد لا يجوز ولا يحل بيعها فتصير حرة تماماً بعد موت سيدها ولهذا يقال عنها أعتقها ولدها.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

وأما لقب مهندسة العباسية لصنعها ما عرف بئر زبيدة فى مكة والتى جلبت إليها الماء من أقصى وادى نعمان شرقى مكة وأقامت له الأقنية حتى أوصلته مكة، وكذلك قيامها بتمهيد طرق الحج من العراق للأراضى المقدسة. وهو المشروع الذى تكلف من مالها نحو مليونى دينار.

وقد ورد أنها رؤيت فى المنام فسُئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصداقات وما عملته فى طريق الحج فقالت: ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله، وما نفعت إلا ركعات كنت أركعهن فى السحر[١].

قال عبدالله بن المبارك رحمه الله: رأيت زبيدة فى المنام فقلت: ما فعل الله بك؟

فقالت: غفر لى فى أول معول ضرب فى طريق مكة.

قلت: مم هذه الصفرة؟

قالت: دفن بين ظهرانينا رجل يقال له «بشر المريس» زفرت عليه جهنم زفرة، فاقشعر لها جسدى فهذه الصفرة من تلك الزفرة[٢].

ولدت زبيدة فى الموصل عام ١٤٥ هـ ولم تحظ امرأة بما حظيت به فهى زوجة الخليفة الرشيد وأم الخليفة الأمين وزوجة الأب للخليفة المأمون وأحفادها من زوجها الخلفاء الواثق والمتوكل، وعمها الخليفة عبدالله السفاح وابن عمها الخليفة الهادى.

وكان خلفاء بنى العباس الذى وصل تعدادهم سبعة وثلاثين خليفة من أمهات غير عربيات إلا ثلاثة هم عبدالله السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور ومحمد الأمين ابن الرشيد من زوجة زبيدة فكان الخليفة القرشى ابن القرشية.

ولما خطبها هارون الرشيد وتزوجها كان زواج فيه إسراف وصلت نفقات ذلك الزواج ٥٥ مليون درهم و نصبت الزينات وأقيمت الولائم لكل الناس فى بغداد والتى لم يشهدها أحد من قبل فى بلاد العرب وتزينت زبيدة بالحلى والجواهر والمسك والعنبر. وكانت الروائح الطيبة تنتشر فى مكان العرس والناس مسرورون

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

بهذا الزواج المبارك.

وتزوجت زبيدة من هارون الرشيد فملأت المحبة قلبيهما واستطاعت بذكائها ولباقتها أن تزيد من حبه لها حتى أصبح لايطيق فراقها ولا يملُّ صحبتها ولا يرفض لها طلبًا. ومرت الأيام وأنجبت زبيدة من هارون الرشيد ابنها محمدًا ولقب بالأمين وقد أحبته كثيرًا وكانت شديدة العطف عليه والرفق به لدرجة أنها بعثت ذات يوم جاريتها إلى الكسائى مؤدبه ومعلمه وكان شديدًا عليه تقول له ترفق بالأمين فهو ثمرة فؤادى وقرة عينى.

وأرادت زبيدة أن تولى ابنها الأمين الخلافة بعد أبيه لكن هارون الرشيد كان يرى أن المأمون وهو ابنه من الجارية الفارسية أحق بالخلافة لذكائه وحلمه رغم أنه أصغر من الأمين فدخلت زبيدة على الرشيد تعاتبه وتؤاخذه فقال لها الرشيد: ويحك إنما هى أمة محمد، ورعاية من استرعانى طوقًا بعنقى وقد عَرفت ما بين ابنى، وابنك يا زبيدة ابنك ليس أهلا للخلافة فقد زينه فى عينيك ما يزين الولد فى عين الأبوين فاتَّقى الله فوالله إن ابنك لأحب إلىّ إلا أنها الخلافة لا تصلح إلا لمن كان أهلا لها ونحن مسئولون عن هذا الخلق فما أغنانا أنا نلقى الله بوِزْرِهِمْ وننقلبَ إليه بإثمهم فدعينى حتى أنظر فى أمرى.

وعلى الرغم من ذلك فقد انصاع لرغبة زبيدة، وعهد بولاية العهد فى نهاية الامر لابنه محمد الأمين ثم للمأمون من بعده.

لكن جرى خلاف وصراع بينهما حول منصب الخلافة وكانت زبيدة غاضبة من ابنها ولم تؤيده فى هذا الصراع الذى تسبب بدمار بغداد وتفككت عرى الخلافة حتى انتهى الصراع حين بعث المأمون جيشه بقيادة اثنين من الفرس هزموا جيوش الامين بعد مواجهات عديدة تقدم طاهر بن الحسين الفارسى نحو بغداد وحاصرها نحو عام كامل وضربت بالمنجنيق وهدمت أسوارها وخربت معالم المدينة بعد أن كانت زينة الدنيا وحاضرة الإسلام ثم قتل محمد الأمين على يد طاهر بن الحسين وتولى المأمون بعده الخلافة.

ولما دخل المأمون بغداد بعد مقتل أخيه الأمين استقبلتْهُ زبيدة وقالت له:

(أهنيكَ بخلافة قد هنأتُ نفسى بها عنكَ قبل أن أراكَ، ولئن كنتُ قد فقدتُ ابنًا خليفةً، لقد عُوِّضْتُ ابنًا خليفة لم ألِدْه، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ. وإمتاعًا بما عوض).

فقال المأمون ما تلد النساء مثل هذه وماذا أبقت فى هذا الكلام لبلغاء الرجال.

كانت فريدة فى الفضل والعلم والتقوى والعفاف والثقافة وكانت تتمتع بعلوم القرآن والسنة والمعارف والأدب وكانت شاعرة تصف رقائق الكلام، ومن أعظم أعمالها مشروعها العظيم «درب زبيدة» وبدأت قصة إنشاء الطريق (درب زبيدة) عام ٨٠٠م، عندما شارفت على الهلاك وهى فى طريقها لأداء مناسك الحج، ونذرت على نفسها ألا يعانى الحجاج بعد ذلك من العطش وهم فى طريقهم إلى الحج. فأحضرت الخبراء والمال ومن له دراية بشؤون الهندسة والصناعة فقالت: احفروا لى منبع ماء يأتى إلى الناس ينقذ الناس مما هم فيه. فبدءوا يبحثون فقالوا: أقرب مصدر ماء ممكن نعتمد عليه ويكون متدفقاً باستمرار ولا ينقطع و فيه آبار، ولكن يبعد ١٠ أميال، ولكن لا تكفى الحجيج ولو حاولنا أن نحفر قناة فإن هذه القناة يجب أن تكون فوق الجبال والماء لا يصعد فوق الجبال.

قالت: اكسروا الجبال.

قالوا: كيف نكسر الجبال هذا يتطلب مبالغ ضخمة جدا.

قالت: وإن كانت.

وبدأ العمل فى نحت الصخور وحفر الجبال من الحل (من خارج منطقة الحرم)، وأخذ وكيلها وكاتبها يتولى الأمر ويخبرها بالتفاصيل وجاءها يقول لها: يلزمك فى هذا العمل نفقة كبيرة.

قالت: اعمل ولو كلفة ضربة الفأس دينار.

واستمر الحفر وشقت الجبال فى مشروع من أعظم المشاريع فى الزمن القديم حيث خدم حجاج بيت الله الحرام من بغداد عاصمة الخلافة العباسية إلى مكة المكرمة.

وقد تكلف هذا العمل مليونى دينار ذهبى ومع ذلك حفرت عين زبيدة وخلد التاريخ اسمها واستحقت لقب المهندسة العباسية وضحت بأموالها من أجل أن تنقذ الحجيج وأن يكون لها هذا الأجر من الله رب العالمين.

ولما انتهى المشروع وجاء الوكيل إلى زبيدة مع العمال والمهندسين ومعهم الحسابات الختامية للمشروع فرحت فرحا شديدا لما رأت الماء والناس تشرب وتذكرها بالخير فقالت: ائتونى بماء فجاؤها بالماء فأخذت الدفاتر التى عليها الحسابات وغسلتها بالماء وقالت: الحساب يوم الحساب.

ويعد درب زبيدة مفخرة هندسية لتأمين المياه للحجاج ويعد نموذجا لعبقرية المهندس المسلم، وما زالت آثاره موجودة حتى الآن.

وقد تم شق الطريق عبر أشد المناطق شحاً بالمياه، وأصبح الطريق أشهر وأطول طريق لخدمة الحجاج، ويبلغ طول الطريق بشكل عام حوالى ١٥٠٠ كيلومتر، ونبض بالحياة طوال ١٣ قرنا لتأمين المياه للحجاج من خلال بناء شبكة هائلة من خزانات المياه عُرفت باسم «البرك» (برك زبيدة) لجمع الماء بطريقة ذكية حيث تم وضع كل بركة أسفل واد صغير تجمع ماء المطر، تبدأ من الكوفة مروراً بالحدود الشمالية من البلاد السعودية، ثم حائل فالقصيم، ثم يميل الطريق إلى جهة الجنوب الغربى، شاقاً الصحراء إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة. والتى تتوزع على طول الطريق بمسافات لا تزيد على ٤٠ كيلومترا، كما وتم وضع علامات على الطريق لإرشاد الحجاج.

وذكر هذا الدرب فى كتب الجغرافيين والرحالة القدامى من المسلمين وغيرهم، وذكره الرحالة الفنلندى جورج فالين وذكرته الليدى آن بلنت فى كتابها (رحلة إلى بلاد نجد).

وكانت زبيدة تتقن فن التوقيعات فكانت من أرقى الناس فى هذا الفن، فكان لزبيدة كلام مختصر وأسلوب أدبى بليغ جدا فى أقل من سطر فمن يحسن مثل هذا.

كانت تحرص على الأدباء والعلماء تستشيرهم وكانت تراسل العالم الأدبى البليغ الأصمعى تستشيره فى قضايا اللغة وتسأله عما يشكل عليها وكانت تهتم بقضايا الفقه فكان إذا جاء أحد كبار العلماء تدعوه لقصرها يحاور العلماء وطلاب العلم وتجلس خلف الستار (من وراء حجاب).

قال الرشيد لزبيدة يوما: أتزوج عليك؟

قالت زبيدة: لا يحل لك أن تتزوج على.

قال: بلى.

قالت: بينى وبينك من شئت.

قال: ترضين بسفيان الثورى؟

قالت: نعم. فوجه إلى سفيان الثورى.

فقال الرشيد: إن زبيدة تزعم أنه لا يحل لى أن أتزوج عليها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: ٣)، ثم سكت، فقال سفيان: تمم الآية، يريد أن يقرأ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وأنت لا تعدل.

فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم، فأبى سفيان أن يقبلها[1].

وجرى بين الرشيد وبين ابنة عمه زبيدة مناظرة وملاحاة فى شىء من الأشياء، فقال الرشيد لها فى عرض كلامه: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم ندم واغتما جميعا بهذه اليمين، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عمه منه، فجمع الفقهاء وسألهم عن هذه اليمين فلم يجد منها مخرجاً.

وفى جلسة ضمت فقهاء من سائر الأمصار، تكلم كلهم باستثناء الليث بن سعد، فدعاه الرشيد وقربه، فطلب من الرشيد إحضار مصحف جامع، فأمر به فأحضر، فقال الليث بن سعد: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه؛ حتى يصل إلى سورة الرحمن، فأخذه الرشيد وتصفحه، حتى وصل إلى سورة الرحمن، فقال الليث: يقرأ

(١) انظر حلية الأولياء.

أمير المؤمنين، فقرأ فلما بلغ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦).

قال: قف يا أمير المؤمنين ههنا، فوقف، فقال: يقول أمير المؤمنين والله، فاشتد على الرشيد، فقال له الرشيد: ما هذا؟! قال: يا أمير المؤمنين على هذا وقع الشرط.

فنكس أمير المؤمنين رأسه ـ وكانت زبيدة فى بيت مسبل عليه ستر قريب من المجلس تسمع الخطاب ـ ثم رفع الرشيد رأسه إليه فقال: والله! قال الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إلى أن بلغ آخر اليمين، ثم قال الليث: إنك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله؟

قال الرشيد: إنى أخاف مقام الله، فقال: يا أمير المؤمنين فهى جنتان؛ وليست بجنة واحدة، كما ذكر الله تعالى فى كتابه.

ففرحت زبيدة، وقال الرشيد: أحسنت والله بارك الله فيك.

ثم أمر بالجوائز والخلع لليث بن سعد، وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد، فحمل إليه، واستأذن فى الرجوع إلى مصر، فحمل مُكَرَّماً.

قال عنها ابن تغرى بردى: أعظم نساء عصرها دينا وأصلا وجمالا وصيانة ومعروفا، ولقد تركت على طريق الحج مرافق ومنافع عمت الجميع قرونا، وهكذا كانت بحق من فضليات النساء وشهيراتهن.

ومما يروى عنها ويدل على مدى حبها الشديد لابنها الأمين أنها بعثت ذات يوم بجاريتها إلى مدرس ابنها الكسائى الذى كان يقسو عليه. فقالت له الجارية ما أمرتها زبيدة أن تقوله وهو: ترفق بالأمين فهو ثمرة فؤادى و قرة عينى وأنا أرق عليه رقة شديدة. وأيضاً عندما توفيت الفطيم زوجة الأمين حزن عليها حزنا شديدا وبلغ أم جعفر زبيدة بذلك وكان الأمين قد تولى الخلافة. فذهبت إليه فاستقبلها. وقال لها: يا سيدتى ماتت فطيم.

فقالت:

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهف ... ففي بقائك ممن قد مضى خلف

عوضت موسى فهانت كل مرزئة ... ما بعد موسى على مفقودة أسف

وقالت له: أعظم الله أجرك ووفر صبرك وجعل العزاء عنها ذخرك. أما الأمين فكان يرد على حنان وعطف أمه بتعظيمها وتبجيلها.

وكانت الشجاعة من صفات الأمين والدليل على ذلك ما قاله لزبيدة عندما كان العدو محيطا به: إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عقدت التيجان، والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع وراءك.

ولما قتل قالت زبيدة فى رثائه:

أودى بألفين من لم يترك الناسا ... امنح فؤادك عن مقتولك الباسا

لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا

فبت متكئأ ارعى النجوم له ... أخال سنته فى الليل قرطاسا

والموت كان به والهم قارنه ... حتى سقاه التى أودى بها الكاسا

رزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر أساسا

فليس من مات مردودا لنا أبدا ... حتى يرد علينا قبله ناسا

وأمرت أبا العتاهية بكتابة أبيات على لسانها للمأمون:

ألا إن صرف الدهر يدنى ويبعد ... ويمتع بالآلاف طورا ويفقد

أصابت بريب الدهر منى يدى ... سلمت للاقدار والله أحمد

وقلت لريب الدهر إن هلكت يد ... فقد بقيت والحمد لله لى يد

إذا بقى المأمون لها فالرشيد لى ... ولى جعفر لم يفقدا ومحمد

وعند قراءة المأمون للأبيات أرسل فى الطلب إليها وقال لها: من قائل هذه الأبيات؟

قالت: أبو العتاهية.

قال: وكم أمرت له؟

قالت: عشرون ألف درهم.

قال: وقد أمرنا له بمثل ذلك.

واعتذر إليها من قتل أخيه محمد. وقال: لست صاصيه ولا قاتله؟

فقالت: يا أمير المؤمنين إن لكما يوما تجتمعان فيه وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله.

وأخذ المأمون يزيد فى كرمه على زبيدة وأسرتها فكان يعطيها كل سنة مائة ألف دينار وألف ألف درهم، وكانت تعطى أبا العتاهية مائة دينار وألف درهم. وإن نسيته سنه كتب إليها يقول:

خبرونى ان فى ضرب السنه ... جددا بيضا و صفرا حسنه

سككا قد أحدثت لم أرها ... مثل ما كنت أرى كل سنه

فكانت ترد زبيدة وتقول: إنا لله أغفلناه ثم أرسلت إليه ما ترسله من مال.

ومن صفاتها أيضاً أنها كانت ذات عقل وفصاحة ورأى وبلاغة. ومثال فضلها فى العمران عندما حجت بيت الله تعالى سنة ١٨٦ هجرية، أدركت ما يعانيه أهل مكة من تعب فى سبيل الحصول على ماء للشرب فدعت خازن أموالها وأمرته أن يجمع المهندسين والعمال من أنحاء البلاد. وقالت له: اعمل ولو كلفت ضربة الفأس دينارا. فاحضر خازن المال أكفأ المهندسين ووصلوا إلى منابع الماء فى الجبال. ثم أوصلوه بعين حنين بمكة. فأسالت الماء عشرة أميال من الجبال ومن تحت الصخر، ومهدت الطريق للماء فى كل خفض وسهل وجبل وعرفت العين باسم عين

الشماش. وأقامت الكثير من البرك والمصانع والآبار والمنازل على طريق بغداد إلى مكة أيضا، كما بنت المساجد والأبنية فى بغداد كذلك.

وهناك وصف اليافعى لعين الشماش فى القرن الثامن للهجرة فقال: إن آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة ذات بنيان محكم فى الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ذى درج كثيرة جدا لا يوصل إلى قراره إلا بهبوط كالبير يسمونه لظلمته يفزع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهارا فضلا عن الليل.

ومن الأطباء الذين كانت تعطف عليهم جبريل الذى منحته راتباً شهرياً، وقدره خمسون ألف درهم. وكانت صاحبة اليد البيضاء بعطفها على الفقراء والمساكين. وقدر لها مئة جارية يحفظن القرآن. ويقال إنه من شدة قراءتهن للقرآن كان يسمع لهن فى قصرها دوىٌّ كدوىٌّ النحل. وقد كان لها الدور الكبير فى تطور الزى النسائى فى العصر العباسى.

وهناك حادثة تدل على فصاحة الكلام. وهى أن بعث إليها مرة من أحد عمالها كتاب فردته إليه وبه ملاحظة تقول: (أن أصلح كتابك وإلا صرفناك).

فتعجب العامل لذلك وأقلقه الأمر؛ لأنه لم يستطع معرفة موضع الخطأ. وعرض كتابه على أصحاب الفصاحة والبلاغة فقالوا له: إنك تدعو لها فى كتابك وتقول: أدام الله كرامتك، وذلك دعاء عليها وليس لها؛ لأن كرا مة النساء بدفنهن فعرف العامل الخطأ وأصلحه. ثم عاد وأرسله لها فقبلته.

وهى أول من اتخذ الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون برسائلها وكتبها، وهى أيضاً أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل والكلاليب من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق[1].

---

(١) انظر خير الدين الزركلى، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين وأعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام لعمر كحالة.

وبلغت نفقاتها فى بعض حجاتها ألف ألف دينار، وبلغت نفقتها فى ستين يوما أربعة وخمسين ألف درهم، فرفع إليها وكيلها حساب النفقة، فنهته عن ذلك وقالت: ثواب الله بغير حساب.

وقال ابن جُبَيْرٌ بعد أن ذكر المصانع، والبرك، والآبار، والمنازل التى من بغداد إلى مكة: إن كل ذلك من آثار زبيدة، فانتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت فى هذه الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة فى ذلك، لما سلكت هذه الطريق، والله كفيل بمجازاتها، والرضا عنها[١].

وينسب إلى زبيدة مسجد زبيدة أم جعفر ببغداد، كان قريبا من مسجد الشيخ معروف الكرخى، وقد اندرس سنة ١١٩٥ هـ، وكان هذا المسجد واسعا، وطيد البناء، قوى الأركان، ولما بنى سليمان باشا الكبير والى بغداد سور الجانب الغربى استعملت أنقاضه فى بناء السور، ولم يبق من ذلك المسجد سوى قبر زبيدة، وعليه قبة مخروطية الشكل من نوادر الفن المعمارى.

وينسب إليها (المحدث): وهو منزل فى طريق مكة بعد النقرة، على ستة أميال منها، فيه قصر وقباب متفرقة، وفيه بركة وبيران ماؤها عذب، وينسب إليها (العنابة)، وهى بركة لزبيدة بعد قباب على ثلاثة أميال تلقاء سميراء، وبعد توز[٢]، وماؤها ملح غليظ، وينسب إليها بركة أم جعفر، وهى فى طريق مكة بين المغيثة[٣] والعذيب[٤]، وينسب إليها القنيعة، وهى بركة بين الثعلبية[٥] والخزيمية[٦] بطريق مكة، وينسب إليها الحسنى، وهو بئر على ستة أميال من قرورى[٧] قرب معدن النقرة، وينسب إليها الزبيدية، وهى بركة بين المغيثة والعذيب، وبها قصر ومسجد

(١) المصانع: أحواض يحفظ فيها الماء.

(٢) سميراء: منزل بطريق مكة بعد توز، وتوز منزل فى طريق الحج أيضاً.

(٣) المغيثة: منزل فى طريق مكة بعد العذيب نحو مكة.

(٤) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال.

(٥) الثعلبية: منزل من منازل الطريق إلى مكة من الكوفة بعد الشوق وقبل الخزيمية.

(٦) الخزيمية: منزل من منازل الحاج بعد الثعلبية من الكوفة وقبل الأجعفر.

(٧) قرورى: موضع بين المعدن والحاجر على اثنى عشر ميلاً من الحاجر.

عمرتهما زبيدة.

وقع خلاف بين هارون الرشيد وزبيدة فى بيت من الشعر هو:

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ   قَتَلْنَنا ثم لم يحيين قتلانا

فكان الرشيد يقول: «يحيين»: وزبيدة تقول: «يجنين» بالجيم والنون، فتخاطرا على ذلك بألفى دينار، ودعوا مسرورا الخادم، وأعطياه على أن يخرج فيسأل أفضل من ببغداد من أهل العلم، فإن صوب قول الرشيد أعطاه ألفا، وإن صوب قول زبيدة فألفها، وخرج مسرور بالشموع يطلب من يفتيه فى ذلك فدل على الكسائى، وكان قريب عهد القدوم من الكوفة إلى بغداد، وكان يأوى إلى المسجد، فدخل مسرور عليه بخيله وحشمه، فتحفز له الكسائى، فقال: لا بأس، إنه بيت أشكل علينا، واستفتاه فى الكلمتين فصوبهما جميعا، فأعطاه الألفين، فأصبح وقد استفاد بكلمة أوضحها ما أغناه، وهذا دليل على حسن تأتيه ولطافة أدبه.

وأنشد رجل زبيدة شعراً فقال لها:

أزبيدة ابنة جعفر   طوبى لزائرك المثاب

تعطين من رجليك ما   تعطى الأكف من الرغاب

فوثب إليه الخدم يضربونه، فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيرا وأخطأ، وهو أحب إلينا ممن أراد شرا فأصاب؛ سمع قولهم: شمالك أندى من يمين غيرك، فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ، أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل.

ومات لها قرد، فساءها ذلك، ونالها من الغم ما عرفه الصغير والكبير من خاصتها، فكتب إليها أبو هارون العبدى: أيتها السيدة الخطيرة، إن موقع الخطب بذهاب الصغير المعجب، كموقع السرور بنيل الكثير المفرح، ومن جهل قدر التعزية عن التافه الخفى، عمى عن التهنئة بالجليل السنى، فلا نقصك الله الزائد فى سرورك، ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك، فأمرت له بجائزة.

جسدت زبيدة المثال الأكبر فى مكانة المرأة الزوجة والقائدة، وقد كانت حياة الرشيد الحافلة بالعمل والعبادة والفكر نموذجا آخر لنجاحها، فقد عرف عن

الرشيد التفقه ومحبة العلماء ومزاولة الرياضات البدنية والذهنية حتى أنه مارس الشطرنج بشغف واستمرارية ليتعلم ترويض الذهن والصبر وطول البال.

وكان بالإضافة إلى كل ذلك يجد متسعا من الوقت للعبادة وأداء الفرائض والسنن، وكانت تتنابه حالات من التوجد الروحى حتى وصفه البعض بأنه كان من البكائين المتأثرين بالنصوص القرآنية وسير الصالحين. كانت زبيدة بنت جعفر تقف وراء ملحمة الملك وبيت الزوجية وتقديم النموذج، وعندما يرد ذكرها فى التاريخ تنتصب الخلافة العباسية فى طورها الأكثر رقيا ورفعة.

ويقول بعض النقاد من الأدباء إن كتاب ألف ليلة وليلة إنما بنى على أساس من نمط حياة الرشيد وزبيدة، ويحاولون العثور على أوجه التشابه بين زبيدة وعدد من شخصيات الرواية.

عاشت السيدة زبيدة ٣٢ عاما بعد وفاة هارون الرشيد، وتوفيت فى بغداد سنة ٢١٦ هـ بعد أن عاشت فى ظل المأمون معززة مكرمة كما كانت فى عهد أبيه. وكان المأمون يعاملها معاملة الأم، وكثيرا ما كان يلجأ إلى مشورتها فى أمور الدولة، ويقبل برأيها، حتى لو كان مخالفا لما يراه هو شخصياً.

٢ ـ الخيزران بنت عطاء وهى زوجة الخليفة العباسى المهدى ووالدة هارون الرشيد والهادى

والخيزران هى جارية عربية[١] استقدمت من اليمن اشتراها المهدى وأعتقها وتزوجها، واصطحبها معه إلى بلاد العجم، وكان طبيبها الحكيم عبد الله الطيفورى، ولم تلد امرأةٌ خليفتين غيرها، سوى ولادة أم الوليد وسليمان ابنى عبد الملك بن مروان.

وقد روت الخيزران عن زوجها المهدى حديثاً مسنداً عن النبى ﷺ قالت: حدثنى أمير المؤمنين المهدى عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله: (من اتقى الله وقاه من كل شىء).

(١) قيل إن أعرابياً اختطفها وباعها فى مكة للخليفة المنصور فوقع ابنه المهدى فى حبها فوهبها له فأعتقها وتزوجها.

وفى شهر رمضان سنة ١٦١ هـ، ذهبت الخيزران إلى مكة واشترت الدار المعروفة باسمها وأضافتها إلى المسجد الحرام، وأقامت فى مكة إلى موسم الحج وحجت، وقد استوحش الخليفة المهدى لفراقها فكتب إليها مع الحجاج يتشوق:

نحن فى غاية السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودى إنكم غيب ونحن حضور

فأجدوا فى السير بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته الخيزران بأبيات وقالت:

قد أتانا الذى وصفتم من الشوق ولكن ما قدرنا نطير

ليت إن الرياح ينقلن شوقى إليكم وما يكن الضمير

كانت الخيزران ذات شخصية قوية ولها رأى وتدبير فى أمور الرعية، وكانت ترعى العلماء وتشجعهم وتصلهم بالعطايا والهبات.

وكان لها رأيها الحاسم فى تصريف كثير من الأمور؛ إذ كان زوجها الخليفة يرجع إليها مستشيراً فمنفذاً ما توحى به، وقد سجلت فى صحيفة أعمالها طرائف زاكية من أعمال البر مثل إنشاء المساجد، ورعاية الأيتام، ثم رأت أن تحج بيت الله الحرام فتهيأ لها من الموكب الحاشد ما يناسب قدرها العظيم كزوجة لأمير المؤمنين، وقد حملت من بغداد من طرائف الغذاء والكساء وبدرات المال، ما كان حديث الرائح والغادى فى الموسم المشهود.

ثم بدا لها أن تقوم بعمل تاريخى، يخلد اسمها فى التاريخ الإسلامى ويعم بالنفع على المسلمين، وكانت تعلم أن أبا جعفر المنصور اشترى دار الأرقم بمكة من حفدة الأرقم بمال كثير بذله فى إرضائهم كى يتنازلوا عنها، ولكنها بقيت على حالها دون عمارة مَّا فى عهد المنصور فأرادت أن تحلها المحل اللائق بمنزلتها كأول معهد دينى فى الإسلام[1]، فاشترت ما حولها من الدور، وأحاطتها بسور متين،

(١) كانت دار الأرقم بن أبى الأرقم بجوار المسجد الحرام يجتمع فيها النبى ﷺ مع أتباعه بمكة قبل الهجرة بعيداً عن أعين المشركين.

وقد كتب اسمها فى لوحة تسجل مآثرتها، فكان الناس فيما بعد يسمونها دار الخيزران، ثم توالى تجديدها من بعد ذلك.

وحين تركت الخيزران مكة قاصدة المدينة المنورة لزيارة مسجد النبى ﷺ رأت أن تكسو الحجرة الطاهرة بستائر حريرية مرصعة بالألوان الزاهية، وهى أول من كسا الحجرة الشريفة، وفرقت كثيراً من الصدقات بهذه المناسبة، وأرضت شعورها الدينى بما قامت به فى مكة والمدينة من أعمال.

وعلى غير عادة العرب نجحت الخيزران فى إقناع زوجها الخليفة بتعيين ولديها كوريثين شرعيين له؛ واستبعاد أبناء النساء الأخريات. ومن بين المبعدين كان أبناؤه من ابنة عمه الخليفة السفاح مؤسس الأسرة الحاكمة.

كانت الخيزران جميلة؛ ممشوقة القوام وقد بهرت حياتها النخبة من سيدات القوم اللواتى كن يقلدن حليها وتسريحات شعرها. وكان لها سطوة على كبار الشخصيات فى قصر زوجها الخليفة. ولكن كيد النساء لا أول له ولا آخر؛ فعندما تولى ابنها البكر موسى الهادى الخلافة؛ شعر الهادى بأنه مهدد بطموحات والدته التى كانت تلتقى كبار القادة فى قصرها على غير عادة العرب؛ فحاول قتلها!

يقول (الطبرى) فى تاريخه: حاول الهادى قتل والدته حين أرسل إليها أطعمة فى طبق؛ لكن (الخيزران) عملت على أن يتذوق كلب من هذا الطبق أولاً وقد سقط الكلب ميتا على الفور.

كانت الخيزران تتدخل فى تعيين كبار الضباط والولاة والحكام؛ مما ساء ولدها الهادى وأخافه؛ فاستدعاها إلى قصره وقال لها: اسمعى كلامى جيداً؛ إن كل من يذهب إليك من قادتى أو ممن يحيط بى أو من خدمى ليتوسط فى أمر ما؛ سوف أقطع رأسه وأصادر أمواله، ماذا تقصد هذه الجموع التى تقف كل يوم على بابك؟ أفلا يوجد عندك مغزل يشغلك ومستقر يحجبك عن هذه الوساوس، انتبهى؛ والويل لك إذا فتحت فمك لمصلحة أىٍّ كان.

يقول الطبرى: فتركت ابنها وهى لا تكاد تتحسس مكان قدميها؛ فقد أعلنت الحرب بينهما.

فى الليلة ذاتها أمرت الخيزران جواريها الحسان التسلل إلى مخدع ابنها الخليفة حيث ينام وخنقه تحت الوسائد؛ فقد وضعن هؤلاء الوسائد على رأس الحاكم وكأنهن يداعبنه وجلسن عليها حتى لفظ أنفاسه.

قال فيها أبو المعافى:

يا خيزران هناك ثم هناك إن العباد يسوسهم ابناك

وعندما سمعت الخيزران بخبر وفاة ابنها الهادى قالت فى بادئ الأمر: ما أفعل، فطلبت منها خادمتها أن تذهب إليه، وتنسى كل الحقد والغضب، فقامت (الخيزران) وهمت للوضوء وصلت عليه.

وبعد هذه الحادثة ذهبت (الخيزران) للحج، وعندما انتهت منه رأت أبا دلامة يصيح عندها، وتبين لها بعد ذلك أنه يريد جارية من جواريها؛ لتقوم بخدمته نظراً لأنه رجل كبير فى السن، فلبت طلبه.

تولى ابنها الثانى (هارون الرشيد) الخلافة ودخلت (الخيزران) فى صراع جديد مع زوجته زبيدة.

وتوفيت ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة عام ١٧٣/ ٧٨٩ م، وخرج الخليفة هارون الرشيد خلف جنازتها وعليه جبة وطيلسان، قد شد به فى وسطه، وهو آخذ بقائمة السرير، حافياً يمشى فى الطين، وصلى عليها ونزل فى قبرها، ودفنت فى الأعظمية ببغداد فى المقبرة التى سميت باسمها مقبرة الخيزران.

٢ ـ العباسة أخت الرشيد:

هى علية بنت المهدى بن المنصور وأخت الرشيد الخليفة، شاعرة أديبة من ربات الفضل والجمال والأدب وكانت من أجمل النساء فى عصرها.

قال الصولى: لا عرف خلفاء بنى العباسى بنتاً مثلها، كانت أكثر أيام ظهرها مشغولة بالصلاة ودرس القرآن ولزوم المحراب فإذا لم تصل اشتغلت بلهوها ـ أى الغناء ـ وكان أخوها الرشيد يبالغ فى إكرامها ويجلسها معه على سرير الملك.

تزوجها موسى بن عيسى العباسى وهو الثابت عن الثقات من المؤرخين كما ذكر ذلك الصولى.

وذكر بعض المؤرخين أن الرشيد زوجها من جعفر البرمكى واشترط عليه ألا يطأها لأنها كانت تحضر مجالس اللهو معهما وقد ألف البعض روايات وقصصا عن هذه القصة المزعومة وذكروا أن أمها احتالت على جعفر حتى وطأها وأنجبت منه طفلاً أرسلته ليتربى فى مكة وقد علم الرشيد بهذا الأمر فانتقم من جعفر البرمكى والبرامكة[1].

وأمها أم ولد اسمها مكنونة كانت جميلة بارعة الغناء اشتريت بمئة ألف وكانت عليه من ملاح زمانها وأظرف بنات الخلفاء روى إبراهيم بن إسماعيل الكاتب أنها كانت لا تغنى إلا زمن حيضها فإذا طهرت أقبلت على التلاوة والعلم إلا أن يدعوها الخليفة ولا تقدر تخالفه وكانت تقول لا غفر لى فاحشة ارتكبتها قط وما أقول فى شعرى إلا عبثا وجاء عنها أنها قالت: ما كذبت قط.

وكان أخوها لا يصبر عن غيابها وأخذها معه إلى الرى.

قال ابن خلدون فى المقدمة:

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما فى مجلسه وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها زعموا فى حالة السكر فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب.

وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس وليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده والعباسة بنت محمد المهدى ابن عبد الله بن أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد ابن على أبى الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبى ﷺ ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالمُلك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى.

وإقامة الملة ونور الوحى ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها.

ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسية بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها، واستنكره ولوج فى تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس(١).

وكان سبب انتشار قصة العباسة وجعفر البرمكى وزواجهما ما رواه الطبرى فى تاريخه ونقله عنه المؤرخون دون تمحيص للقصة وتبيان الحقيقة فيها، فقد روى الطبرى هذه القصة عن زاهر بن حرب، فى معرض حديثه عن أسباب الإيقاع بالبرامكة، فقال:

«إن سبب هلاك جعفر والبرامكة: أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدى، وكان يحضرهما إذا جلس لشرب؛ وذلك بعد أن أعلم جعفرا قلة صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسى، وتقدم إليه ألا يمسها، ولا يكون منه شىء مما يكون للرجل إلى زوجته؛ فزوجها منه على ذلك، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما، فيثملان من الشراب، وهما شابان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك.

فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريها شر، فأنهت أمرها وأمر الصبى إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه؛ ومع من هو من جواريها، وما معه من الحلى الذى كانت زينته به أمه.

فلما حج هارون هذه الحجة، أرسل إلى الموضع الذى كانت الجارية أخبرته أن الصبى به من يأتيه بالصبى وبمن معه من حواضنه، فلما أحضروا سأل اللواتى معهن الصبى، فأخبرته بمثل القصة التى أخبرته بها الرافعة على عباسة، فأراد -

(١) انظر مقدمة ابن خلدون.

فيما زعم ـ قتل الصبى، ثم تحوب من ذلك».

تابع المؤرخون ابن جرير فى ذكر هذه القصة بروايات مختلفة ومتناقضة، حتى قال ابن كثير فى البداية والنهاية: «ومن العلماء من أنكر ذلك، وإن كان ابن جرير قد ذكره» فقد أنكر العلماء هذه القصة، ولكنهم ذكروها متابعة لابن جرير رحمه الله.

فالمؤرخون قد تساهلوا فى نقل بعض المرويات التاريخية حتى إن ابن جرير وابن كثير قد ذكرا قصة العباسة وجعفرا البرمكى وهى لا تصح كما ذكر ابن خلدون وغيره وكما سنوضح بإذن الله، بل إن ابن كثير وابن جرير لم يترجما للعباسة ولم يذكرا سنة وفاتها ولم يذكرا سيرتها إلا فى معرض حديثهما عن أزمة البرامكة.

بل إن بعض المؤرخين المحدثين ومنهم الأستاذ محمود شاكر قد ذكر قصة العلاقة بين العباسة وجعفر وأنها السبب الرئيسى فى نكبة البرامكة بل وعاتب الرشيد بوصفه السبب فى ذلك.

وهناك جمع غفير من المؤرخين فى العصر الحديث قد كذَّب القصة ومنهم الدكتور حسن إبراهيم حسن فى كتابه تاريخ الإسلام: والدكتور محمد أسعد طلس، عندما يقول: «ومنهم من قال: إن السبب هو قصة العباسة أخت الرشيد التى تجرأ جعفر البرمكى وطلب يدها، وقد راجت هذه بين العامة حتى ألفت فيها الروايات، كما فعل الأتليدى صاحب «أعلام الناس»، وجُرجى زيدان صاحب «العباسة أخت الرشيد»، وأنطون رباط صاحب «الرشيد والبرامكة»، وعزيز أباظة فى «مسرحيته».

ولا نريد الإطالة فيها بعد أن نفاها مؤرخ ثقة كالجهشيارى حين قال فى معرض كلامه عن نكبة البرامكة: أن عبيد الله بن يحيى بن خاقات سأل مسروراً الكبير خادم الرشيد فى خلافة المتوكل عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامك فأجاب مسرور: «كأنك تريد ما تقول العامة فيما كان من أمر المرأة لا والله ما الشىء من هذا أصل». وقد نقض الفكرة من أساسها المؤرخ ابن خلدون[1].

ومن الذين استنكروا القصة الدكتور أحمد مختار العبادى، أستاذ التاريخ بجامعة الكويت، عقب عليها بقوله: «هذا ملخص قصة العباسة التى يظهر فيها

---

(١) انظر تاريخ العرب ج٢ د. محمد أسعد.

الخيال والاختراع، وواضح أن القصد منها هو الحط من مكانة الرشيد وطعنه فى كرامته وعرضه، ولا شك أنها من وضع الشعوبية الفارسية، التى أرادت الانتقام من الخليفة الهاشمى العربى الذى أوقع بالبرامكة العجم، ولا شك أن الرشيد لا يمكن أن يطعن فى رجولته ومروءته بمثل هذه الصورة المزرية التى تصوره يجمع بين أخته وجعفر بزواج صورى»[1].

وقد ذكر مؤلفا كتاب هارون الرشيد الخليفة المظلوم أسباب بطلان القصة فيما يلى:

١ ـ لم يذكر كل من الدِّينَورى واليعقوبى والأصفهانى القصة، وهم من أوائل من كتب فى تاريخ العراق وأحداثه[2].

٢ ـ روى الطبرى القصة عن أحمد بن زهير، عن عمه زاهر بن حرب، وهما لا يعرفان، والقصة لا تصح[3].

٣ ـ ذكرها الجهشيارى مستهزئاً بها مستنكراً لها، حيث نقل عن مسرور الكبير قوله لمن سأله عن أسباب نكبة البرامكة: «كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة، لا والله ما لشىء من هذا أصل، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم»[4].

٤ ـ أنكرها ابن خلدون المؤرخ ومؤسس علم الاجتماع وقال: إنها من الحكايات المدخولة للمؤرخين»[5].

٥ ـ ناقض ابن كثير رواية ابن جرير الطبرى مناقضة واضحة، ثم اعترف: «أن العلماء أنكروها، وإن كان ابن جرير قد ذكرها»[6].

---

(١) انظر فى تاريخ العباسى والفاطمى د. أحمد مختار.

(٢) الحدود التاريخية للوزارة العباسية.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ج٩ ص ٦٦ (الهامش).

(٤) الجهشيارى.

(٥) مقدمة ابن خلدون.

(٦) البداية والنهاية.

٦ ـ كانت العباسة متزوجة من الأمير محمد بن سليمان الهاشمى والى البصرة، وقد جمع له المنصور بين ولاية البصرة والكوفة، وزوجه المهدى ابنته العباسة، وقد توفى سنة ثلاث وسبعين ومائة[١].

ثم تزوجت من الأمير إبراهيم بن صالح العباسى المتوفى سنة ١٧٦ هـ[٢].

ثم تزوجها موسى بن عيسى العباسى الذى توفى سنة ١٨٣ هـ، وقد توفيت العباسة بنت المهدى سنة ١٨٢ هـ[٣]، وبهذا يتضح أن العباسة لم تكن فى يوم من الأيام دون زواج، اللهم إلا فترات العدة التى تفصل بين كل زواج وآخر، وقد دفع موت أزواجها بعضهم متندرا بقوله: «من أراد الموت فليتزوج من العباسة»[٤].

٧ ـ رغم غرام الأصفهانى فى كتابه الأغانى بمثل هذه القصة، فإنه لم يتعرض لها بذكر، بل لم يأت للعباسة بأثر، ولم يتعرض لاسمها، وقد ترجم لها كثير من المؤرخين على أن اسمها «عُلَيَّة» وأن العباسة لقب لها.

ومما يؤيد القصة أيضاً ما ذكره الأصفهانى فى كتابه الأغانى عن صفات العباسة فقال:

عن محمد النوفلى عن عمه قال: كانت من أحسن الناس وأظفرهم تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة، وكان بها عيب فى جبينها فضل سعة حتى تسمح العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها فأحدثت والله أعلم شيئاً ما رأيت فيما ابتدعته النساء وأحدثته أحسن منه.

وصفها إبراهيم بن إسماعيل الكاتب فقال: كانت عُلية حسنة الدين وكانت لا تغنى ولا تشرب النبيذ[٥] إلا إذا كانت معتزلة الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، فلا تلذ بشىء غير قول الشعر فى الأحيان.

---

(١) البداية والنهاية .

(٢)، (٣) أزمنة التاريخ الإسلامى: ج١ ص ٢٣٤ .

(٤) ينسب هذا القول إلى أبى نواس الشاعر «الجذور التاريخية للوزارة العباسة ص ١١٧».

(٥) تمرات تنبذ (تلقى) فى الماء يشربها البعض فلا تسكر.

وتقول: ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل فيما حلل منه عوضاً فبأى شىء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته.

وتقول: لا غفر الله لى فاحشة ارتكبتها قط.

وقال الحصرى فى نزهة الجلساء: «كانت عُلية تعدل بكثير من أفاضل الرجال، فى فضل العقل وحسن المقال، ولها شعر رائق وغناء رائع».

أما من ناحية العقل فإن رواية الطبرى لا تصدق لأنه ذكر أن الرشيد لا يصبر على فراقها، وهذا حق وصحيح، ولا يصبر على فراق جعفر البرمكى، ويذكر كذلك أنها حملت من جعفر وولدت صبيا أرسلته إلى مكة، ومقتضى كلامه أن تداوم على مجالسة الرشيد ومنادمته مع جعفر، فكيف لم يلحظ الرشيد كبر بطنها وزيادة حجمه بسبب الحمل، ولفترتين متتاليتين، حيث إن ابن كثير خالف الطبرى فيذكر أنها ولدت غلامين، فهل يخفى حمل المرأة ولفترتين متتاليتين، ويخفى على مثل الرشيد بالطبع لا، وبالتالى فالقصة لا تُصدق عقلاً[1].

ومما ذكر فى نسق قصة العباسة وجعفر من أساسها ما ذكره صاحبا «هارون الرشيد والخليفة المظلوم»[2] حيث ذكرا معلومة معروفة للمؤرخين أن هارون الرشيد كان أخو جعفر البرمكى من الرضاعة، وهذا مجمع عليه من المؤرخين قديماً وحديثاً، ومشهور أنه كان يخاطب يحيى البرمكى بقوله: «يا أبت»، ولما حبس البرامكة كانت أم جعفر تدخل عليه، وتتوسل إليه بثدييها اللذين أرضعته بهما، وكان الرشيد يجلها ويحترمها ويتمرغ على صدرها، ويخاطبها بقوله: «يا أم الرشيد».

فالرشيد رضع من نساء يحيى البرمكى، وأن أولاد يحيى قد رضعوا من الخيزران.

---

(١) انظر كتاب هارون الرشيد ـ الخليفة المظلوم ـ أحمد القطان وآخر.

(٢) انظر هارون الرشيد الخليفة المظلوم ـ أحمد القطان وآخر.

ولكن هذا لا يعنى أن العباسة تكون أخت جعفر من الرضاعة وذلك لأنه لم يثبت أنها رضعت من أم جعفر أو الخيزران أم الرشيد حيث إنها من أم أخرى جارية اسمها مكنونة.

قال ابن النجار: أمها «مكنونة» اشتريت للمهدى بمائة ألف درهم، وكانت علية من أحسن النساء، وأظرفهن وأعقلهن، ذات صيانة وأدب بارع، تقول الشعر الجيد وتسوغ فيه الألحان الحسنة، ولها ديوان شعر معروف بين الأدباء.

وكان الرشيد يبالغ فى إكرام العباسة واحترامها وكانت من أعف الناس، إذا طهرت لزمت المحراب، وإذا لم تكن طاهراً غنت. وتزوجت موسى بن عيسى بن موسى بن محمد العباسى.

ولدت سنة ستين ومائة، وتوفيت سنة عشر ومائتين، ومن شعرها:

أهلى سلوا الله العافيه ... فقد دهتنى بعدكم داهيه

ما لى أرى الأبصار بى جافيه؟ ... لم تلتفت منى إلى ناحيه

ما ينظر الناس إلى المبتلى ... وإنما الناس مع العافيه!

ومنه:

ألبس الماء مداما ... واسقنى حتى أناما

وأفض جودك فى ... الناس تكن فيهم إماما

لعن الله أخا البخل ... وإن صلى وصاما

ومنه:

كتمت اسم الحبيب عن العباد ... ورددت الصبابة فى فؤادى

فوا شوقى إلى ناد خلى ... لعلى باسم من أهوى أنادى

ومنه:

إني كثرت عليه في زيارته فمل ... والشيء مملول إذا كـثـرا

ورابني منه أني لا أزال أرى ... في طرفه قصراً عني إذا نظرا

ومنه:

أما والله لو جوزيت بالإحسان إحسانا ... لما صد الذي أهوى ولا مل ولا خانا

رأيت الناس من ألقى عليهم نفسه هانا ... (فزر غبًّا تزد حباً) وإن حملت أشجانا

وقال الحصري في كتاب النورين: كانت علية تعدل بكثير من أفاضل الرجال في فضائل العقل، وحسن المقال، ولها شعر رائق، وغناء رائع وهي القائلة:

وضع الحب على الجـور ... فلو أنصف المعشوق فيه لسمج

ليس يستحسن في وصف الهوى ... عاشق يحسن تأليف الحجج

وقليل الحب صرفاً خالصاً ... لك خير من كثير قد مزج.

قال: وخرج الرشيد إلى الري ومعه علية، فلما قارب المرج عملت شعراً وغنته:

ومغترب بالمرج يبكي لشأنه ... وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ... تنشق يستشفي برائحة الركب

فلما سمع الصوت رقَّ عليها، وعلم أنها اشتاقت إلى بغداد فأمر بردها.

وكانت تكاتب الأشعار خادمين: يقال لأحدهما «طل» وتكنى عنه «بظل»، والآخر «رشا» وتكنى عنه بـ «زينب» على أنهما جاريتان، فحجب طل عندما أحس الرشيد بما بينهما فقالت:

أيا سروة البستان طال تشوقي ... فهل لي إلى ظل إليك سبيل؟

متى يلتقي من ليس يرجى خروجه ... وليس لمن تهوى إليه دخول؟!

وكان الرشيد قد حلف عليها ألا تكلم طلاً ولا تذكر اسمه، فدخل عليها غفلة وهى تقرأ فى المصحف ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ (البقرة: ٢٦٥). فما نهى عنه أمير المؤمنين.

فضحك وقبل رأسها وقال: ولا كل هذا!... وقد وهبت لك طلاً.

ومن قولها فى رشا:

القلب مشتاق إلى ريب	يا رب أما هذا من العيب !
قد تيمنت قلبى فلم أستطع	إلا البكا يا عالم الغيب
خبأت فى شعرى ذكر الذى	أحببته كالخبء فى الجيب

لأن قولها فى الشطر الأول ريب تصحيف رشا[١].

■ ■ ■

(١) انظر نزهة الجلساء فى أشعار النساء ـ للسيوطى.

2

ولاية العهد محور الصراع

فى العصرين الأموى والعباسى

- ظهور نظام ولاية العهد واستحداثه فى عهد معاوية بن أبى سفيان.
- ولاية العهد فى العصر العباسى.
- ولاية العهد فى العصر الحديث.



نظام الحكم فى الإسلام
واستحداث ولاية العهد

كان النزاع والصراع بين البشر بوجه عام هو صراع تنافس على السلطة والحكم، وكانت أزهى عصور الإسلام هو العصر النبوى وما تلاه من عصر الخلفاء الراشدين الأربعة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم.

وقد توفى ﷺ ولم يستخلف أحدا من الصحابة صراحة وتركها شورى، وقد جاء هذا المعنى فيما رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين طعن وشارف على الموت أنه قال: «إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى ـ يعنى أبو بكر الصديق ـ وإن ترككم فقد ترككم من هو خير منى ـ يعنى رسول الله ﷺ.

فقد أشار أبو بكر رضي الله عنه على المسلمين فى مرض موته باستخلاف عمر رضي الله عنه فرضى بذلك الصحابة وتم مبايعته، أما عمر رضي الله عنه فقد ترك الأمر شورى فى ستة من خيار الصحابة اختارهم هو وطلب منهم الاجتماع لاختيارهم أحدهم.

وقد أوضح الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ذلك الأمر يوم موقعة الجمل وهو يومها أمير المؤمنين وقد نازعه البعض فى أمر الخلافة فقال: أيها الناس إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا فى هذه الإمارة شيئاً، ثم رأينا من الرأى أن نستخلف أبا بكر، فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه ـ أى استقر الأمر ـ ثم إن أقواماً طلبوا الدنيا فكانت أمور يقضى الله فيها»(١).

وفى رواية للحاكم فى المستدرك على الصحيحين وصححه البيهقى فى دلائل النبوة عن أبى وائل قال: قيل لعلى: ألا تستخلف علينا؟، قال: ما استخلف رسول الله ﷺ ولكن إن يرى الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدى على خيرهم كما جمعهم

(١) رواه أحمد فى المسند والبيهقى فى دلائل النبوة بسند صحيح عن عمرو بن سفيان.

بعد نبيهم على خيرهم».

هكذا كان أمر الخلافة فى العصر الأول ولم يكن هناك ما يعرف بنظام ولاية العهد الذى ظهر فى خلافة معاوية بن أبى سفيان واستمر فى خلفاء بنى أمية ثم خلفاء بنى العباس واستمر حتى الآن.

فما هى الولاية وما معناها فى اللغة والاصطلاح وكيف دخلت فى الدولة الإسلامية الأولى فى منتصف القرن الأول الهجرى؟

أولاً اشتقت كلمة ولاية من الفعل الثلاثى وَلِىَ، فيقال ولى الشىء بمعنى ملك أمره وقام به كما ذكر ابن منظور والقاموس المحيط.

والولى هو الحافظ والناصر وهى من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ (الأعراف: ١٩٦) فالله هو المتولى لأمور العالم والخلائق والقائم بها. ويعرف الولى بأنه نقيض العدو، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٥) وقوله عز وجل: ﴿لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ (المائدة: ٥١).

قال الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢) بأنهم أنصار الله، وهم خُلَّصُ المؤمنين، وذلك لقربهم من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته، وسمى الولى ولياً من موالاته الطاعات أى متابعته لها.

وتحمل كلمة الولاية معنى الإمارة والسلطان والتى تشعر بالتدبر والقدرة والفعل، وتحتاج إليها ليتمكن صاحبها من القيام بواجب هذه الإمارة، ومنها قيل ولى الشىء ولاية بمعنى ملك أمره وقام به وتقلده، وأولاه الأمر إيلاء بمعنى جعله والياً عليه وأوصاه به وأورثه إياه.

وردت كلمة الولاية ومشتقاتها فى القرآن فى تسعين موضعاً أربعة وخمسين منها فى جانب أولياء الله وحملت معانىَ مثل: الناصر والحافظ والمالك والقريب والنصير وستة وثلاثون فى جانب أولياء الشيطان.

وقد اشتُقت كلمة العهد من الفعل الثلاثى عَهِدَ بمعنى أوصَى، فيقال عهد إليه بمعنى أوصاه، وشرط عليه، فالعهد هو الوصية كما جاء فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ (يس: ٦٠) وقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ (طه: ١١٥).

والعهد هو الموثق واليمين يحلف بها الرجل، يستوثق بهما لمن يعاهده على أمر ما، ومنها أخذت عليه عهد الله وميثاقه ويشمل العهد هنا كل ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من مواثيق.

وتحمل كلمة العهد أيضاً معنى الوفاء ورعاية الحق والمودة كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ (الأعراف: ١٠٢).

والمعاهد هو المبايع والمحالف، وقد سمى الذمى معاهداً لأنه بايع على إقراره على ما هو عليه ودفع الجزية قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠).

وقال أيضاً: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠).

ومن معانى مصطلح الولاية والعهد جاء مصطلح ولاية العهد لأن الولاية تحمل فى معانيها الإمارة والسطان، والعهد يحمل معنى الوصية ومصطلح ولى العهد يعنى الوصى أو الوارث للملك وذلك لأنه ولى الميثاق الذى يؤخذ على من بايع الخليفة، وبالتالى فقد استخدم مصطلح ولى العهد ليدل على الشخص الذى يخلف الحاكم ويرث ملكه أو ينوب عنه بعد وفاته فى إدارة شؤون الدولة، وذلك لأنه ولى الميثاق الذى عوهد عليه من قبل المبايعين له بهذا الأمر، وهناك فرق بين منصب ولى العهد ومنصب نائب الرئيس فى النظم الديمقراطية.

وقد ظهر نظام وراثة الملك وحصره داخل الأسرة الواحدة فى التاريخ الإسلامى، على يد معاوية بن أبى سفيان الذى أخذ البيعة لابنه يزيد من بعده، ومن ثم سار الخلفاء على هذا النهج، حيث أصبح الخليفة يعهد لمن يرغب فى أن يتولى الحكم من بعده سواء من أبنائه أو أقاربه، بولاية العهد على أن يتسلم هذا الشخص المستخلف مقاليد الحكم بعد وفاة الخليفة ومبايعته ببيعة الخلافة،

ويستثنى من هذا الخليفة الأموى معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الذى تولى الخلافة بعد أبيه يزيد وكان مريضاً وتوفى بعدها بأيام فكانت خلافته أربعين يوماً وقيل شهرين ورفض أن يستخلف أحدا بعده وقال: ما أصبت من حلاوتها فلما أتحمل مرارته(١).

وقد راعى الأمويون فى اختيارهم لأولياء عهدهم ضرورة اتصافهم بمجموعة من الصفات، منها أن يكونوا عرباً صرحاء يجمعون عراقة النسب وكرم الأصل من ناحية آبائهم وأمهاتهم، لذا فقد استثنوا أبناء الإماء من ولاية العهد وحرموهم من تولى الخلافة ويؤكد ابن عبد رَبِّهِ فى كتابه العِقْد الفريد أن الأمويين كانوا يخرجون أبناء الإماء من ولاية العهد، لأن العرب لا تطيعهم ولا تخضع لهم بل تستخف بهم، وفى هذا يقول: «كانت بنو أمية لا تستخلف بنى الإماء وقالوا: لا تصلح لهم العرب.

ويبدو أن تأثر الأمويين بتقاليد السيادة القبلية التى كانت تمنع أبناء الإماء من السيادة، وشعورهم أن منصب الخلافة منصب رفيع لا يتناسب مع تدنى منزلة أبناء الإماء، كان وراء استثنائهم من ولاية العهد، خاصة وأنهم كانوا يرون أن زوال ملكهم سيكون على يد ابن أَمَةٍ، وبالفعل كان ذلك مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وقد راعى الأمويون أيضاً أن يكون ولى العهد كبير السن قد وصل لسن الرشد، فقد أحجم الأمويون عن عقد البيعة لصغار السن وكانوا إذا بايعوا أحدهم، جعلوه ولى العهد الثانى، وقدموا عليه من هو أكبر منه، فقد فضل يزيد بن عبد الملك أخاه هشاما لكبره وآثره على ابنه الوليد لصغر سنه وقد شذ عن ذلك الوليد بن يزيد عندما بايع لولديه الحكم وعثمان بولاية العهد وهما صغيران فأنكر الناس عمله، وقالوا: بايع لمن لم يحتلم، وكانت بيعته هذه من الأسباب التى أدت إلى ثورة أبناء عمومته وأهل الشام عليه ومن ثَمَّ قتله.

وحرص الأمويون على أن يكون أولياء عهدهم على معرفة جيدة باللغة العربية، ولذلك لم يقبل خلفاء بنى أمية اللحن فى اللغة من أبنائهم الذين بايعوا لهم، فقد

---

(١) تاريخ الخلفاء ـ السيوطى.

ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ أن الخليفة عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد عندما عقد له العهد، وكان كثير اللحن: «إنه لا يلى أمر العرب إلا من يحسن كلامهم».

وقد حدد معاوية الصفات التى يجب أن يتحلى بها الخليفة أو من يتطلع إلى الخلافة بالصدق والجود والحلم والعفة والشجاعة، وكان يرى أن الحلم والكرم من أهم الصفات التى يجب توافرها فيمن يقوم بالحكم، حيث إن الحلم يمنع الخلاف ويوحد الصفوف، وقال لابنه يزيد: «واعلم أنه لا تكون مع الحلم ندامة ولا مذمة.

ويروى البلاذرى عن معاوية فيقول: «لم يزل أمره مستقيماً ولم تزل الأموال عليه داره، فاستمال القلوب بالمال، وكان يقول البذل يقوم مقام العدل».

وسار الأمويون على النهج الذى اختطه لهم معاوية، فتأثروا بسياسته وورّثوها لأولياء عهودهم، وتمسكوا بالصفات الحميدة استجابة لتأثرهم بأعراف السيادة القبلية التى كانت ترفض سيادة شخص، إلا إذا توافرت فيه الصفات الحميدة.

ولهذا اهتم الأمويون بتربية أبنائهم تربية صالحة وتنشئهم تنشئة إسلامية أن وضعوا لهم المؤدبين من كبار علماء المسلمين، ولهذا فقد كان لمعظم الخلفاء الأمويين معرفة بالحديث والفقه، كان مروان بن الحكم من أقرأ الناس للقرآن ومن الفقهاء المعدودين. وكان عبد الملك أحد فقهاء المدينة المقدمين وكان عبد العزيز بن مروان من رواة الحديث وكان عمر بن عبد العزيز قارئاً للقرآن حافظاً للحديث كما كان لهشام بن عبد الملك معرفة بالحديث.

وكذلك راعى الأمويون فى أولياء عهدهم ضرورة اتصافهم بالخبرة العسكرية وذلك لإظهار قدراتهم القيادية وما يرتبط بذلك من مقدرتهم على تحمل مسؤوليات الدولة المناطة بهم، ركز الخلفاء على ضرورة مشاركة أولياء عهودهم فى الغزوات والعمليات الجهادية التى قامت بها الدولة فى مختلف المناطق.

وكان معاوية حين استحدث نظام ولاية العهد فى الحكم بهدف من وجهة نظره منع الاختلاف والاضطراب فى حقوق المسلمين كما حدث بعد مقتل الخليفة عثمان

بن عفان رضي الله عنه ورأى معاوية أن هذا النظام يعمل على وحدة الصف بعد وفاته.

ووجهة نظر معاوية تلك لم تمنع حدوث الخلاف والاختلاف والصراع على السلطة من بعده[1].

وكان السبب الرئيسى فى استحداث نظام ولاية العهد عند معاوية هو الحفاظ على الملك الأموى، واستمرار الأمويين فى كتاب الحكم.

وقد تم استمرار نظام ولاية العهد خلال حكم المروانيين، وفى هذا يقول سليمان بن عبد الملك فى كتاب عهده: «هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إنى وليتك الخلافة من بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيَطْمَع فيكم[2].

كما سعى المروانيون من خلال نظام ولاية العهد إلى إبقاء الخلافة فى أولاد مروان بن الحكم، وفى حفدته أبناء عبد الملك بن مروان، وذلك ليحافظوا على وحدة الأسرة المروانية، واستمرارية ملكها ومنعه من الزوال، خاصة بعد ما حل بالسفيانيين الذين انتهت خلافتهم بموت معاوية الثانى، لأن معاوية الثانى لم يرشح أحداً من أهل بيته للخلافة. لذلك عمل المروانيون على الحفاظ على سلطانهم حتى تبقى الخلافة فيهم، ولا تنتقل إلى أسرة أخرى من الأمويين، أو إلى غيرهم من القرشيين، وأيدهم فى ذلك أهل الشام الذين كانوا إلى جانب استمرار الخلافة فى أيدهم، حتى لا تسقط دولتهم، فأرادوا الحفاظ على مصالحهم وسيادتهم على أهل العراق الذين أيدوا الإمام على رضي الله عنه فى خلافه مع معاوية.

وتشير كثير من الروايات التاريخية إلى أن المغيرة بن شعبة هو أول من أشار على معاوية بن أبى سفيان بأخذ البيعة لابنه يزيد بولاية العهد من بعده، وذلك فى عام (٤٩ هـ ـ ٦٦٩ م)، وأن معاوية بدأ بالعمل ليزيد منذ ذلك الوقت حيث استشار زياد ابن أبيه الذى كان رده بضرورة التريث والتأنى فى اتخاذ مثل هذا القرار[3].

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ـ مصدر سابق.

(٢) انظر تاريخ الطبرى وابن الأثير فى الكامل وتاريخ الذهبى.

ويرى البعض أن معاوية لم يكن بحاجة إلى - رأى - المغيرة، وأنه فكر فى هذا الأمر قبل عرض المغيرة، وذلك فى سعيه لمنع الاختلاف المتوقع حدوثه بعد وفاته مع كثرة الطامحين فى تولى الخلافة وخاصة وأن الصراع بين الأمويين وبنى هاشم كان لا يزال فى أوجه.

وقد شكلت الحجاز أكبر مركز معارضة لتوجهات معاوية، بخلاف الأمصار الإسلامية الأخرى كالعراق والشام ومصر التى كانت معظم قبائلها من القبائل اليمانية التى لم تر فى نظام ولاية العهد أية مشكلة خاصة وأن تراثها السياسى قديماً كان ملكياً لذلك كان على معاوية إقناع الحجازيين بفكرته، وخاصة أبناء الصحابة الذين أنكروا هذا الأمر، حيث رأى عبد الرحمن بن أبى بكر أن معاوية قد خرج عن سياسة أسلافه وجعل الخلافة وراثية، معتبراً أن معاوية لا يسعى لخير المسلمين، وإنما يريد أن يجعلها هرقلية أى على نظام الروم فى حكمهم[1].

وقد اعتبر الحسين بن على وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، ما يقوم به معاوية باطلاً لأنه إذا كانت الخلافة وراثية فإن لهم الحق فيها أكثر من يزيد، أما إذا كانت بالاختيار لأفضل المرشحين، فإن يزيد يعتبر بعيداً عن كل حق فيها لعدم توفر أى من الصفات المطلوبة فيه إضافة إلى أنهم كانوا يعارضون انتهاء الدور السياسى للمدينة وانتزاع الشورى منها عبر نظام ولاية العهد الذى يسعى إليه معاوية بن أبى سفيان.

لأن بيعة الحجازيين كانت ضرورية، فالحجاز مهد الإسلام ومستقر الصحابة وأبنائهم، فقد سعى معاوية للحصول على بيعتهم بكل الوسائل المتاحة له، وكلف عمرو بن سعيد بن العاص بالدعوة ليزيد فى الحجاز حيث جمع وجهاء الحجاز وخطب بهم قائلاً: «أما بعد فإن يزيد بن معاوية أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، إذا استضعفتم إلى حلمه وسعكم وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم وإن افتقرتم إلى ذات يد أغناكم، جذع قارح، سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فخرج، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه[2].

(١) انظر الكامل فى التاريخ - لابن الأثير.

(٢) انظر العقد الفريد - لابن عبد ربه.

وواجهت جهود معاوية لإرضاء أهل الحجاز على اختياره لابنه فى ولاية العهد معارضة شديدة مما جعله يتوجه بنفسه إلى المدينة ومكة لإقناع الرافضين المعارضين حيث استخدم فى البداية سياسة اللين فأظهر لهم حلمه ومسامحته لهم، وصلته لأرحامهم، وبأنهم سيحتفظون بمكانة مميزة فى ظل خلافة يزيد.

إلا أنه لم يجد الرد الذى كان يرغب به، بل إن أبناء الصحابة خيروا معاوية بين ثلاثة أمور، أولها أن يصنع كما صنع رسول الله ﷺ، حيث إنه لم يعهد ولم يستخلف أحداً، فاختار المسلمون أبا بكر، وثانيهما أن يصنع كما صنع أبو بكر، حيث عمد إلى رجل من قريش فاستخلفه، وأما إن يصنع كما صنع عمر بأن جعل الأمر شورى فى ستة نفر من قريش ليس فيهم أحد من ولده ولا من رهطه كما أشار عليه ابن الزبير باعتزال الإمارة إذا مل منها، حيث خاطبه قائلاً:

«إذا كنت مللت الإمارة فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك لأيكما نسمع؟ لأيكما نطيع؟ نجمع البيعة لكما أبداً.

ولجأ معاوية إلى أسلوب الترهيب بعد الترغيب فى فرض اختياره لابنه ولياً للعهد حتى إنه جعل على رأس كل رجل من أبناء الصحابة رجلين مسلحين، حتى إذا رد عليه أحدهم وهو يخطب بكلمة تصديق أو تكذيب ضرباه بسيفيهما[1].

ثم خطب معاوية بالناس قائلاً: «إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمراً دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وأنهم رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله[2] وعندما سمع الناس هذا القول اعتقدوا أن زعماءهم بايعوا، فأقبلوا وبايعوا، وغادر معاوية إلى الشام وهو يعتقد أنه استطاع بهذه الطريقة أن ينتزع بيعة الحجازيين، وأن يضمن إجماع الأمصار على هذه البيعة.

ثم وجه معاوية لابنه كتاب التكليف بولاية العهد والذى جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهده معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين إلى ابنه يزيد، أنه قد بايعه وعهد إليه، وجعل له الخلافة من بعده وأمره بالرعية، والقيام بهم

(١) تاريخ الذهبى.

(٢) تاريخ الطبرى والعقد الفريد.

والإحسان إليهم، وقد سماه «أمير المؤمنين» وأمره أن يسير بسيرة أهل العدل والإنصاف، وأن يعاقب على الجرم ويجازى على الإحسان، وأن يحفظ هذا الحى من قريش خاصة، وأن يقدم بنى أمية وآل عبد شمس على بنى هاشم.

وهكذا فرض معاوية على المسلمين نظام ولاية العهد الذى استحدثه والذى كان معمولاً به عند ملوك الروم والفرس وغيرهم من الملوك.

وتحققت بما فعله معاوية النبوءة النبوية من تحول الحكم من الشورى إلى الملك الوراثى، وذلك حين قال ﷺ: «الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك»(١).

وقال العلماء: لم يكن فى الثلاثين بعده ﷺ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن بن على رضى الله عنهما.

وقال ﷺ: «إن أول دينكم بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة ثم يكون ملكاً وجبرية». رواه البزار.

فكانت بداية الملك الجبرى فى عهد معاوية بن أبى سفيان واستمر سننه إلى الآن وسوف تنتهى بخروج المهدى آخر الخلفاء الراشدين إن شاء الله تعالى(٢).

لقد واجه معاوية معارضة شديدة من علماء الصحابة وأبناء الصحابة وغيرهم فى أمر فرضه نظام ولاية العهد حيث رفضوا مبايعة يزيد فى حياة أبيه معاوية.

إلا أن أكثرهم بايعوا يزيد بن معاوية ولكن بعد وفاة أبيه معاوية وهذا دليل على رفضهم لنظام ولاية العهد وحرصهم على وحدة الأمة ومن هؤلاء سعيد بن المسيب الذى عاب على معاوية بن أبى سفيان إحداثه نظام ولاية العهد، وتحويل الخلافة إلى مُلك إلا أنه بعد وفاة معاوية بايع يزيد بالخلافة، ودخل فى طاعته، وذلك حفاظاً على الجماعة، ورفض أن ينقض بيعته ليزيد عندما ثار أهل المدينة عليه، حيث لزم المسجد ولم يفارقه، وكان يقول: «ما رأيت خيراً من الجماعة».

وقد رفض سعيد بن المسَّيب أن يبايع عبد الله بن الزبير، إلا إذا اتفقت عليه

---

(١) أخرجه أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره.

(٢) اقرأ كتاب المهدى المنتظر آخر الخلفاء الراشدين الناشر مكتبة التوفيقية بالأزهر.

الجماعة، وبايعت له الأمة، وهذا ما جعل عامل ابن الزبير على المدينة يضربه ستين سوطاً لرفضه ذلك.

وعلى الرغم من أن سعيد بن المسيب بايع عبد الملك بن مروان بعد القضاء على ابن الزبير، وبعد أن أجمع الناس على عبد الملك إلا أنه رفض طلب عبد الملك بن مروان بأخذ البيعة لولديه (الوليد وسليمان) وجعلهما وليّ عهده.

وكان رفض سعيد بن المسيب لمبايعة ولى العهد، لعدم وجود نص شرعى يستند عليه، وحتى لا تكون هذه البيعة حجة عليه يوم القيامة، خاصة بعد ما قام به عبد الملك من قتل عمرو بن سعيد وإبعاد خالد بن يزيد عن ولاية العهد من أجل تبرير البيعة لولديه، كما برر رفضه بأن عبد الملك ما زال على قيد الحياة، وأنه لا يبايع لأولاده ما دام عبد الملك حيا واحتج لموقفه هذا بما يروى عن رسول الله ﷺ بأنه حرم البيعة لخليفتين فى وقت واحد، وأمر بالوفاء لأولهما وضرب عنق الثانى.

وقال: «لا أبايع وعبد الملك حى»، وهذا أدى إلى ضربه ضرباً مبرَّحاً، وطاف به عامل عبد الملك فى المدينة ثم أودعه السجن.

وكان رفض ابن المسيب لذلك ناتجاً عن ورعه ومعارضته لسياسة الأمويين، فأمر عبد الملك بتأديبه حيث ضُرب مئة سوط، وصب عليه الماء فى يوم بارد ومنع الناس من مجالسته.

وكذلك فعل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما حيث بايع يزيد بعد وفاة معاوية وذلك حرصاً على وحدة الأمة وخوفاً من الفتنة والفرقة. كما أشار على الحسين بن على وعبد الله بن الزبير بمبايعة يزيد ونهاهما عن مخالفته.

ويروى الواقدى: «أن ابن عمر لم يكن فى المدينة حين ورد نعى معاوية وبيعة يزيد على الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وأن ابن الزبير والحسين لما دعيا إلى البيعة ليزيد، أبيا وخرجا من ليلتهما إلى مكة ولقيهما ابن عباس وابن عمر، فسألاهما ما وراءكما؟ قالا: موت معاوية والبيعة ليزيد، فقال لهما ابن عمر: اتقيا الله ولا تفارقا جماعة المسلمين.

وأما ابن عمر فقد أقام أياماً، فانتظر حتى جاءت البيعة من البلدان، فتقدم إلى الوليد بن عتبة فبايعه وقد قال حين بويع يزيد بن معاوية: «إن كان خيراً رضينا وإن كان بلاء صبرنا».

واستمر ابن عمر ينصح الحسين بن على بمبايعة يزيد بن معاوية، وأن يدخل فى صلح معه كما دخل بقية الناس، وأن يصبر عليه كما صبر على معاوية من قبل إلى أن يحكم الله بينه وبينهم.

وعندما أزمع أهل المدينة على خلع يزيد بن معاوية وحربه نصح لهم ابن عمر بالرجوع عن ذلك واعتزلهم وأمر ولده وأهله أن يقيموا على بيعته، ولا يتابعوا أهل المدينة على خلعه.

وكان ابن عمر قد جمع أولاده وقال لهم: إنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقول: هذه غدرة فلان «رواه مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه».

وكان ابن عمر لا يرى أى مشكلة فى نظام ولاية العهد حيث كان من العلماء الذين دعوا إلى الخضوع للخليفة المبايع، والقبول بالأمر الواقع والتمسك بالجماعة، والابتعاد عن الفتنة والفرقة، وكان يستند إلى حديث سمعه من الرسول ﷺ يقول فيه: «من خلع يداً من طاعة، لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية». «رواه مسلم فى صحيحه».

كما دعا إلى الصبر على بنى أمية وعدم الثورة عليهم حيث كان يقول: «إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان جائراً فله الوزر وعليك الصبر».

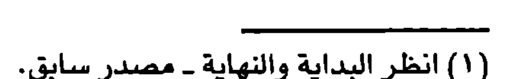
وممن رفض نظام ولاية العهد الذى استحدثه معاوية الإمام الحسين وأخوه من أبيه محمد بن الحنفية.

وطلب ابن الحنفية من أخيه الحسين أن ينأى بنفسه عن يزيد بن معاوية، وأن يبعث رسله إلى الناس، فإن بايعوا له، كان له ما أراد، وإن اجتمعوا على غيره صبر وشكر.

وبعد مقتل الحسين اتجه إلى الشام وبايع يزيد ولم تكن خطوة ابن الحنفية هذه بدافع الاقتناع بقدر ما كانت بدافع الخوف على نفسه وعياله مما يمكن أن يحدث له، خاصة وأنه رأى كيف كانت نهاية الحسين ولهذا رفض أن يخرج على يزيد ويخلعه من أهل المدينة.

وعندما طالبته مجموعة من أبناء الصحابة بمبايعة ابن الزبير، رفض ذلك لأنه كان قد بايع يزيد وأخذ جائزته، وعلل لهم مبايعته ليزيد بقوله: «لقد بايعت يزيد خوفاً منه على نفسى وولدى، وإبقاء على من بقى من أهل بيتى لأنى رأيت أخى الحسين قتل، فلم آمن يزيد على نفسى وقد رأيت أخى الحسن بايع معاوية من قبل وأخذ جائزته، والحسن كان أفضل منى، فإن بايعت يزيداً كان لى أسوة بأخى»[1].

■ ■ ■



(١) انظر البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

ولاية العهد فى العصر العباسى ونشوء الصراع على السلطة

لم يأت نظام ولاية العهد بالاستقرار كما كان يظن معاوية بن أبى سفيان الذى استحدث هذا النظام بل هذا النظام سبب لنشوء الصراعات فى العصر الأموى والعصر العباسى فقد بدأ ونظام ولاية العهد موجود حين عهد أبو العباس السفاح الخليفة العباسى الأول، بولاية العهد من بعده إلي أخيه أبى جعفر المنصور، ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على العباسى.

ولما توفى أبو العباس، بايع الناس أبا جعفر بالخلافة وبايعوا لعيسى بن موسى بولاية العهد.

ولما بلغ الخبر عبد الله بن على «عم المنصور» دعا بالخلافة لنفسه، مدعيا أن أبا العباس السفاح، أوصى له بها من بعده، فوجه إليه المنصور جيشاً بقيادة أبى مسلم الخراسانى، فهرب إلى البصرة والتجأ إلى أخيه سليمان بن على، أمير البصرة، ثم أرسل المنصور إليه الأمان، فقدم إلى بغداد فاستقبله وسلمه إلى ابن أخيه عيسى بن موسى ليحفظه فى منزله.

ثم دعا المنصور عيسى وقال له: إن عبد الله ادعى الخلافة لنفسه وأراد أن يزيل النعمة عنى وعنك وأنت ولى عهدى، فاضرب عنقه.

وأدرك عيسى أن المنصور إنما أراد بذلك أن يكيد له، فهو يريد أن يتخلص منه ليفسح المجال إلى ابنه محمد ليكون ولى عهده، فلو قتل عبد الله، فإن المنصور سيقتله به ويحقق بذلك ما كان يرجوه، فلم ينفذ عيسى مطلب المنصور واحتفظ بعبد الله فى بيته، وكانت تلك بداية الصراع على السلطة والسبب كان نظام ولاية العهد.

ودس المنصور إلى عمومته - إخوة عبد الله - من يدعوهم إلى طلب العفو عن عبد الله وأطمعهم أنه سيفعل، فجاء أخوة عبد الله وطلبوا من المنصور أن يصفح عنه ويهبه لهم، فدعا عيسى وطلب إليه أن يحضر عبد الله فقد عفا عنه، فقال عيسى للمنصور: إننى قتلته بأمرك.

فأنكر المنصور ذلك وقال له: إنما أمرتك أن تنزله فى منزلك ولم آمرك بقتله، وما دمت قد أقررت بقتله فجزاؤك أن تقتل به، وأمر بقتله. وأخرج عيسى ليقتل، ولما هم السياف بضرب عنقه قال: ردونى إلى أمير المؤمنين، فلما ردوه قال له: إن عمك عبد الله حى وهو فى منزلى.

فلما أحضروه أمر بحبسه فى بيت أساسه ملح، وأجرى فى أساسه الماء، فسقط عليه فمات (سنة ١٤٧ هـ).

ولما لم تنجح حيلة المنصور فى التخلص من عيسى، جاء يكلمه فى رفق أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه محمدا (المهدى) على أن يخلفه من بعده، فأبى عيسى، فعمد المنصور بعد ذلك بتحريش الجند عليه، ثم إلى تهديده بقتل ابنه موسى، فرضخ عندئذ وتنازل عن ولاية العهد إلى محمد (المهدى).

ولما تولى المهدى الخلافة عهد بها من بعده إلى ابنه موسى (الهادى) ثم إلى ابنه هارون (الرشيد)، *غير أن الهادى أراد أن يخلع أخاه هارونا من ولاية العهد ليعهد إلى* ابنه جعفر، ولم يكن قد بلغ الحلم، فشاور بعض القادة فحسنوا رأيه، وبايعوا ابنه جعفرا، ويروى أن هارونا لما بلغه ذلك طابت نفسه لخلعه من ولاية العهد، وأراد أن يثبت لأخيه زهده فيها ويبايع ابنه، غير أن يحيى البرمكى منعه من ذلك.

وقد ذكرت بعض الروايات أن الخليفة الهادى مات مخنوقاً بيد جوارى أمه الخيزران وكانت تكرهه، وذلك أنها حين علمت بأنه خلع أخاه هارونا وبايع ابنه جعفرا، دست إليه أربعة من جواريها، فدخلوا عليه وهو مريض وخنقوه.

وبعد موته دخل القائد خزيمة بن خازم على جعفر بن الهادى وهو فى فراشه، وكان وراء خزيمة خمسة آلاف من مواليه بأسلحتهم، فحمل جعفرا وأتى به إلى شرفة

القصر وقال له لأضربن عنقك أو تخلع نفسك، فخلع نفسه من ولاية العهد، وأعلن خلع نفسه أمام الناس، وعادت ولاية العهد إلى الرشيد وبايعه الناس بالخلافة.

وجرى الرشيد على خطة من قبله من الخلفاء، فعهد بالخلافة لابنه محمد (الأمين) ومن بعده لابنه عبد الله (المأمون) ومن بعده لابنه القاسم (المؤتمن)، وكتب بذلك كتابا علقه فى الكعبة عام حجه إليها سنة ١٨٦ هـ وأشهد عليه من كان معه من أولاده وأهل بيته ومواليه وقادته ووزرائه وكتابه وغيرهم.

ولما توفى الرشيد سنة ١٩٣ هـ خلفه ابنه الأمين، والمأمون يومئذ فى (مرو) بخراسان وكان أبوه ولاه عليها. وجاء الفضل ابن الربيع وزير الأمين ووزير أبيه من قبله، يغريه بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد وأن يعهد لابنه موسى، وكان صغيرا لم يبلغ الحلم، ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا من عزمه، بل كان عزمه الوفاء لأخويه عبد الملك المأمون والقاسم المؤتمن.

ولم يزل الفضل يصغر المأمون فى عينى أخيه الأمين حتى أزاله عن رأيه، فبدأ بعزل أخيه المؤتمن عن أعماله، وكان أبوه الرشيد ولاه على الجزيرة وأرمينية والثغور والعواصم. ثم كتب إلى جميع الولاة فى الأمصار بالدعاء لابنه موسى بالإمرة ثم للمأمون ثم للقاسم. وأرسل إلى أخيه المأمون من يبلغه ما صنع، ثم كتب إليه يطلب منه أن يعود إلى بغداد فاعتذر له وطلب منه أن يقره على عمله فى خراسان، ثم كتب إليه أن يتنازل له عن بعض كور (مناطق) فى خراسان فاعتذر إليه أيضاً.

وكان الأمين يستمع لقول وزيره الفضل بن الربيع وكان المأمون يسمع لرأى وزيره الفضل بن سهل الفارسى، وقد رأى ابن الربيع أن يخلع الأمين أخاه المأمون ويوجه جيشاً لحربه لخروجه عن أمره ففعل، وخلع المأمون ووجه على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون وأعطاه قيدا من فضة ليقيد به المأمون بعد أن ينتصر عليه.

وخرج للقائه القائد طاهر بن الحسين على رأس جيش من خراسان. وفى المعركة التى جرت بين جيشى الأخوين قرب الرى، هزم جيش الأمين وقتل قائده ابن ماهان، وحمل رأسه إلى المأمون وطيف به فى خراسان، ولما اتصل بالأمين قتل

على بن عيسى بن ماهان وهزيمة جنده، وجه جيشاً آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى، وولاه على همذان وعلى كل ما يفتحه من أرض خراسان، فخرج إليه طاهر بن الحسين على رأس جيش من الخراسانيين.

وفى المعركة التى جرت قرب همذان هزم جيش الأمين واستسلم قائده عبد الرحمن، واستولى طاهر على همذان وأعمال الجبل معها. ولما بلغ الأمين الخبر جهز ثلاثة جيوش، مع قادتها. وسارت الجيوش نحو خانقين وفيها اختلفوا ورجعوا عنها، فاحتلها طاهر بن الحسين وانضم إليه هرثمة بن أعين، ثم تحول طاهر إلى الأهواز واستولى عليها ثم استولى على واسط ثم على المدائن. وكان عمال الأمين على هذه البلاد يخلعون طاعته ويبايعون المأمون.

وأرسل الأمين جيشاً لمحاربة هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين، فهزمت هذه الجيوش، وتقدم طاهر وهرثمة فحاصرا بغداد ثم اقتحماها، وجرت فى أحيائها وقائع دامية، واضطر الأمين إلى طلب الأمان، ولجأ إلى منزل فدخل عليه جماعة من جند طاهر وقتلوه وحملوا رأسه إلى طاهر فأرسله إلى المأمون ومعه بردة النبى وقضيبه.

بعد مقتل الأمين بويع المأمون بالخلافة فى (مرو) بخراسان وأرسل الحسن بن سهل نائباً عنه فى بغداد وأوحى إليه الفضل بن سهل أن يولى عهده عليا بن موسى الكاظم الإمام السابع عند الشيعة الإمامية، لتتحول الدولة من بعد المأمون إلى دولة علوية، فاستدعى المأمون عليا بن موسى من المدينة، فلما حضر عهد إليه بالخلافة من بعده وزوجه ابنته أم حبيب، وأمر بطرح السواد وهو شعار بنى العباس، ولبس الخضرة، وهى شعار الشيعة الإمامية.

وأمر نائبه فى بغداد الحسن بن سهل أن يدعو أهل بغداد لمبايعة على بن موسى ولبس الخضرة، ولقبه بعلى الرضى فرفض بنو هاشم ومعهم أنصارهم فى بغداد أن يخرجوا الخلافة من أولاد العباس، وعلموا أن هذه دسيسة من الفضل بن سهل فخلعوا المأمون وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى ولقبوه بالمبارك.

ولما تحقق المأمون مما حدث فى بغداد رأى أن يصلح ما أحدثه تصرفه، وأن يبعد عنه الفضل بن سهل، فلما وصل إلى مدينة (سرخس) وهو فى طريق عودته

إلى بغداد، دس أربعة من حشمه فدخلوا على الفضل وهو فى الحمام وقتلوه، ثم قتلهم المأمون ليخلى نفسه من مسئولية قتله، وأرسل إلى أخيه الحسن بن سهل بتعزية رقيقة، ثم تقدم إلى خطبة ابنته بوران بنت الحسن.

وتابع المأمون مسيرته نحو بغداد فلما وصل إلى مدينة (طوس) توفى على بن موسى ودفن إلى جانب قبر الرشيد.

وفى يوم السبت الخامس عشر من شهر صفر سنة ٢٠٤ هـ دخل المأمون مدينة بغداد، واختفى عمه إبراهيم بعد أن أمضى فى الخلافة سنة وأحد عشر شهراً، وظل مختفياً حتى عفا عنه المأمون.

وفى عام ٢١٨ هـ توجه المأمون لحرب الروم، فلما وصل إلى (البدندون)، قرب مدينة طرسوس مَرِض مرض موته، فعهد بالخلافة إلى أخيه محمد بن هارون الرشيد. وتولى الخلافة بعد موت أخيه وتلقب بالمعتصم بالله.

وفى سنة ٢٢٣ هـ اتفق العباس بن المأمون مع بعض القادة على اغتيال عمه المعتصم، وهو فى طريق عودته من (عمورية). وعلم المعتصم بالأمر، فدعا ابن أخيه العباس بالليل إلى مضربه، فنادمه على النبيذ، وسقاه حتى أسكره، واستحلفه ألا يكتمه من أمره شيئا، فباح له بما نوى من اغتياله وسمى له أسماء القادة الذين أيدوه واتفقوا معه على قتل عمه، فأمر بحبس العباس، وضرب أعناق القادة الذين تآمروا مع ابن أخيه. ولما وصل المعتصم إلى (منبج) طلب العباس طعاما فقدموا إليه طعاما كثيرا، فالتهمه ثم طلب ماء فمنعوه عنه فمات عطشا.

وقبل وفاة المعتصم عهد بالخلافة إلى ابنه هارون، فتولى الخلافة بعد موت أبيه سنة ٢٢٧ هـ وتلقب بالواثق بالله وتوفى الواثق سنة ٢٣٢ هـ ولم يعهد إلى أحد فاجتمع القادة بعد دفنه وفيهم وصيف وحضر محمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبى دؤاد، فاقترح ابن الزيات تولية محمد بن الواثق الخلافة، وكان غلاما أمرد، فاعترض القائد وصيف، فتحولوا عنه إلى أخى الواثق جعفر بن المعتصم وبايعوه ولقبوه بالمتوكل على الله. وقد نقم المتوكل على ابن الزيات لأنه آثر ابن أخيه عليه، فصادر أمواله وحبسه ووكل به من عذبه حتى مات.

وفى سنة ٢٣٥ هـ عقد المتوكل ولاية العهد لبنيه الثلاثة وهم محمد (المنتصر) وعبد الله (المعتز) وإبراهيم (المؤيد)، ووزع ولايات الدولة بينهم، وأشهد القادة والوزراء والأشراف على ذلك.

وقد تآمر عليه القادة الأتراك ومعهم ابنه محمد المنتصر وذلك لعدة أسباب منها أن المتوكل أمر بقبض ما كان فى يد القائد وصيف من ضياع فى أصبهان والجبل ومنحها لوزيره الفتح بن خاقان فحنق وصيف عليه، ثم أنه أراد تقديم ابنه عبد الله المعتز على أخيه المنتصر فى ولاية العهد لمحبته لزوجته (قبيحة) أم المعتز، فاتفق المنتصر مع وصيف على قتل أبيه وانضم إليهما بعض القادة الأتراك فدخلوا عليه فى ليل يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ، وكان فى مجلس لهو وشراب ومعه ندماؤه، وإلى جانبه وزيره الفتح بن خاقان فقتلوه وقتلوا معه الفتح، وأشاع ابنه المنتصر أن الفتح قتل أباه فقتله به.

بويع المنتصر بالخلافة بعد موت أبيه، وقد بايعه القادة الأتراك الذين تآمروا معه على قتل أبيه.

ومن ذلك الحين باتت تولية الخليفة ومبايعته بيد الأتراك وبأمرهم، يولون من يشاءون ويخلعون من يشاءون وقد خلع المنتصر أخويه المعتز والمؤيد بطلب من الأتراك وبايعوا ابنه عبد الوهاب بولاية العهد.

وكان إذا سكر تيقظ ضميره وأفصح عن فعلته الشنيعة، فكان يكثر القول بأن الأتراك هم الذين قتلوا أباه، وأنهم قتلة الخلفاء، فلما علموا ذلك أغروا خادمه وطبيبه على بن طيفور بسمه فسموه بكمثرى كان يشتهيها فمات، وكانت مدة خلافته ستة أشهر، وبويع بعده بالخلافة ابن عمه أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه بالمستعين بالله.

وهكذا استمر الصراع على منصب ولاية العهد المؤدى إلى منصب الخلافة حتى انتهت الدولة العباسية عام ٦٥٦ هـ على أيدى المغول بقيادة «هولاكو».

■ ■ ■

ولاية العهد
فى العصر الحديث

ما زالت بعض الدول فى العالم مستمرة على نظام ولاية العهد حتى الآن وهى الدول التى ذات النظام الملكى فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وما زال ولى العهد هو الأمير الذى يعين بحكم القوانين أو الأنظمة أو العرف أو القرار الملكى وريثاً للعرش وسيصبح ملكاً بعد وفاة الملك الحالى أو مرضه أو تنازله عن العرش أو خلعه أو إقصائه عن الحكم. وهو منصب موجود فى أنظمة الحكم الملكية سواء كانت ملكيات دستورية أو ملكيات مطلقة.

وتختلف طريقة اختيار ولى العهد بين الدول، حيث فى الدول العربية والإسلامية واليابان على سبيل المثال يكون الحكم فيها للذكور لذلك فإن ولى العهد يجب أن يكون ذكراً، بينما فى الدول الأوروبية فلا يوجد مانع من أن يعتلى العرش امرأة، لذلك فإن ولى العهد يكون فى الغالب هو ابن الملك الأكبر سواء كان ذكراً أو أنثى.

وتختلف طريقة اختيار ولى العهد فى الدول العربية ذات النظام الملكى، حيث إن هناك دولا تكون فيها ولاية العهد بشكل رأسى من الأب إلى الابن ومثال ذلك الأردن والمغرب وقطر والبحرين، بينما هناك دول ولاية العهد فيها أفقياً مثال السعودية حيث إن ولى العهد منذ وفاة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله كانت بين الأشقاء، بينما فى الكويت فلا يوجد ترتيب لولاية العهد حيث إنها تنتقل بين أبناء العمومة كما أن من الممكن أن تنتقل أفقياً بين الإخوة.

حسب الدستور الأردنى فإن العرش هو وراثى بأسرة الملك عبد الله الأول بن الحسين وبين الأبناء الذكور، وينص الدستور على انتقال الحكم من الملك إلى أكبر أبنائه وإن توفى أكبر الأبناء قبل أن يتولى العرش فإن ولاية العهد تنتقل إلى أكبر أبناء الأمير المتوفى حتى إن كان للملك أبناء آخرون، إلا أن بتعديل أدخل على

الدستور عام ١٩٦٥ أصبح يتيح للملك اختيار أحد إخوته لولاية العهد على أن تنتقل ولاية العهد عند توليه الحكم إلى أكبر أبنائه. ويشترط فيمن يتولى الملك (وبالتالى ولاية العهد قبلها) أن يكون مسلماً عاقلاً ومولوداً من زوجة شرعية ومن أبوين مسلمين.

ويختلف الوضع فى الإمارات عن غيره من الدول على الرغم من أن يحكمه أسر حاكمة كونه نظاما اتحاديا مكونا من اتحاد سبع إمارات، لذلك فإن هناك مجلساً أعلى للاتحاد هو من ينتخب الرئيس ونائب الرئيس، لذلك فإن وجود نائب الرئيس لا يعطيه الأحقية بأن يتولى الرئاسة فى حال وفاة الرئيس ما لم ينتخبه المجلس الأعلى للاتحاد. وقد حصلت هذه الحادثة بعد وفاة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حيث إن نائب الرئيس حينها الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم بقى نائباً للرئيس وتم انتخاب الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيساً للدولة.

إلا أن من جانب آخر فإن الأسر الحاكمة لكل إمارة من الإمارات السبع يوجد لديها ولى عهد لحاكم الإمارة يتولى الحكم حال ما يعلن عن وفاة الحاكم، وفى الغالب فإن ولى عهد الحاكم يكون ابن الحاكم.

وحسب الدستور البحرينى فإن الحكم وراثى انتقل من الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة إلى أكبر أبنائه الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وينتقل بعده لأكبر أبنائه وهكذا طبقة بعد طبقة من الأب للابن إلا إذا عين الملك فى حياته ابنا آخر من أبنائه غير الابن الأكبر. وهذا يعنى أن ولى العهد يكون دوماً ابن الملك.

وحسب الفقرة (ب) من المادة الخامسة من النظام الأساسى للحكم فإن الحكم يكون فى أبناء الملك عبد العزيز آل سعود وأبناء أبنائه على أن يختار الملك ولى العهد بأمر ملكى ويعفيه بأمر ملكى أيضاً.

وفى عام ٢٠٠٧ أصدر الملك عبد الله بن عبد العزيز نظاما جديدا لاختيار ولى العهد وهو هيئة البيعة والمشكلة من أبناء وأحفاد الملك عبد العزيز آل سعود حسب الفقرة (أ) من المادة السابعة من نظامها على أن يختار الملك بعد توليه الحكم وبعد التشاور مع أعضاء الهيئة واحدا أو اثنين أو ثلاثة ممن يراه مناسباً لولاية العهد

وعلى الهيئة اختيار واحد من هؤلاء بالتوافق لتتم تسميته وليّاً للعهد، وفى حالة عدم ترشيح الهيئة لأى من هؤلاء فعليها ترشيح من تراه مناسباً وليّاً للعهد.

وعلى الرغم من أن عُمَان دولة سلطانية والحكم فيها وراثى إلا أنها تتميز بعدم وجود ولى العهد، إلا أنه وحسب الدستور يتم اختيار من يتولى الحكم بعد وفاة السلطان عن طريق قيام مجلس العائلة الحاكمة خلال ثلاثة أيام من شغور المنصب السلطانى بتحديد من ينتقل إليه الحكم، وإذا لم يتفق مجلس العائلة على اختيار من يتولى الحكم يقوم مجلس الدفاع بتنصيب من أشار إليه السلطان المتوفى فى رسالته إلى مجلس العائلة.

وحسب الدستور القطرى فإن الحكم وراثى فى عائلة آل ثانى وفى ذرية حمد بن خليفة آل ثانى من الذكور، ويكون اختيار ولى العهد من بين أبناء الأمير بدون تحديد ترتيبه من بين الأبناء، أما إذا لم يكن للأمير أبناء ذكور فإن ولاية العهد تنتقل إلى من يسميه الأمير وتكون الوراثة بعد ذلك فى ذرية ولى العهد. ويشترط فى ولى العهد المختار أن يكون مسلما ومن أم قطرية مسلمة.

وحسب المادة الرابعة من الدستور الكويتى فإن الحكم وراثى بذرية الشيخ مبارك الصباح، وتشترط المادة أن يعين ولى العهد خلال سنة على الأكثر من تولى الأمير للحكم، ويكون اختيار ولى العهد حقا للأمير ويجب عليه عرض اسم المرشح الذى تنطبق عليه المواصفات على مجلس الأمة ويجب أن يوافق المجلس بأغلبية الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس على اسم المرشح لولاية العهد.

وإذا لم يتم التعيين حسب النحو السابق كما ذكرت المادة الرابعة من الدستور يقوم الأمير بتزكية ثلاثة على الأقل ممن ينطبق عليهم الشروط ويقوم مجلس الأمة بمبايعة أحدهم ولياً للعهد.

ويشترط بمن يكون ولياً للعهد أن يكون رشيدا وعاقلا ومسلما وابنا شرعيا لأبوين مسلمين وألا يقل عمره يوم مبايعته عن ثلاثين سنة ميلادية كاملة.

وحسب الدستور المغربى فإن العرش ينتقل إلى الابن الذكر الأكبر سناً من ذرية

الملك فعليه يكون الابن الأكبر سنّاً هو ولى عهد والده الملك، وما عدا ذلك إذا عين الملك أثناء حياته ابناً آخر من أبنائه غير الولد الأكبر سنّاً وليّاً للعهد، وفى حالة لم يكن للملك ابن ذكر فولاية العهد تنتقل إلى أقرب أقرباء الملك من جهة الذكور.

وهكذا لا يحق لغير الذكور تولى منصب الولاية العامة والرياسة فى الدول العربية حيث لا يجيز الإسلام الولاية العظمى للمرأة على الاختلاف فى غير الولاية العظمى وبالذات فى الأمور التى يجوز فيها شهادة المرأة يجوز لها الولاية فيها.

■ ■ ■



3

من الطفولة إلى ولاية العهد

- النبوغ السياسى والعسكرى للرشيد قبل ولاية العهد.
- محاولة الهادى خلع الرشيد من ولاية العهد.



النبوغ السياسى والعسكرى للرشيد قبل ولايته للعهد

اختلف المؤرخون فى تحديد العام الذى ولد فيه الرشيد هارون فقيل عام ١٤٥هـ وقيل عام ١٤٦ هـ أو عام ١٤٧ هـ وقيل عام ١٤٨ هـ، وكان المولود الثانى لأبيه المهدى بن المنصور، فهو خليفة ابن خليفة ابن خليفة وأخوه خليفة أيضاً، باختصار من أسرة كلها خلفاء حتى أولاده أصبحوا من بعده خلفاء أيضاً.

فالأب «محمد المهدى» قد أرسله أبوه الخليفة العباسى الثانى المؤسس للدولة العباسية أبو جعفر المنصور إلى خراسان عام ١٤١ هـ للتصدى للثورات الحاصلة هناك ضد العباسيين والذى قام بها أحد القادة العسكريين عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى واستطاع المهدى القضاء على التمرد العسكرى والقبض على قائده وإرساله إلى الخليفة.

وبعد نجاح المهدى فى مهمته أبقاه الخليفة المنصور فى خراسان نائباً عليها واستمر فيها حتى عام ١٤٤ هـ حيث عاد إلى العراق وتزوج من ابنة عمه ريطة بنت أبى العباس فى الحيرة، لكنه أحب جارية من جوارى القصر ذات جمال باهر حباً جماً حتى أنه أعتقها وتزوجها وكانت تلك الجارية هى الخيزران أم الرشيد والهادى اللذين تقلدا منصب الخلافة بعد أبيهما المهدى.

أنجبت الخيزران للمهدى ولده البكر موسى الهادى ثم أنجبت له بعده هارون الرشيد.

وعاش الرشيد فى قصر الخلافة فى رعاية جده عاماً قبل انتقال أسرته إلى قصرها الجديد قرب الرصافة فى الجانب الشرقى من مدينة بغداد التى بناها الجد أبو جعفر المنصور، وتولى تعليمه على عادة الأمراء فى القصور مدرسه الذى ظل معه حتى وفاته وهو العالم على بن حمزة بن عبد الله الأسدى الكوفى عالم

النحو الشهير «بالكسائى» وقد تولى تربية الرشيد وتعليمه ثم صار أيضاً معلماً للأمين ابن الرشيد[١].

ولما كانت عائلة يحيى بن خالد البرمكى لها روابط وثيقة بأسرة الخلافة وعائلة المهدى، فقد دفعت الخيزران بطفلها الرشيد كى ترضعه زينب امرأة يحيى البرمكى التى ولدت ابنها الفضل قبل الرشيد بنحو سبعة أشهر فصار الفضل بن يحيى البرمكى أخاً له فى الرضاعة وكذلك قامت فاطمة بنت محمد بن قحطبة امرأة يحيى البرمكى الثانية كى ترضع الرشيد أيضاً مع ولدها جعفر فصار الرشيد أخاً بالرضاعة له وهذا ثابت فى كتب التاريخ، وصار يحيى بن خالد البرمكى أباً للرشيد وصارت نساؤه له أمهات.

وتربى الرشيد مع أولاد الأمراء والقادة فى الدولة العباسية فى بلاد الرى بالعراق ومع إخوته بالرضاعة الفضل وجعفر أولاد يحيى البرمكى الذى صار له مكانة عظمى فى الدولة العباسية، وفى عام ١٥١ هـ وبعد وفاة جعفر الابن الأكبر للخليفة المنصور عادت أسرة المهدى إلى بغداد، وقد أصبح المهدى ولياً للعهد.

وعاش الرشيد طفولة هادئة ومستقرة فى ظل رعاية والده وجده، وكان ممن تولى تربيته وتعليمه مع الكسائى المعلم المفضل الطبى الذى كتب للمهدى أمثال العرب وحروبها وكان من أعلام الشعر والأدب وأيام العرب من أهل الكوفة وقد صنف للمهدى كتاب: «المفضليات».

وحفظ الرشيد الكثير من الشعر والحكم والأدب والخطب وأيام العرب وأمثالها.

وفى عام ١٥٨ هـ توفى الجد أبو جعفر المنصور، وأصبح المهدى والد الرشيد فى منصب الخلافة، وقد دفع بابنه الرشيد للتدرب على الفروسية والرمى والطعن وفنون القتال.

---

(١) الكسائى هو إمام اللغة والنحو فى عصره، قال الجاحظ عنه: كان أثيراً عند الخليفة حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين، انظر الأعلام للزركلى.

وقد ذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء أن الرشيد أول خليفة لعب الصوالجة والكرة ورمى النشاب فى البرجاس.

ولذلك دفع المهدى بابنه الرشيد بعد أن اشتد عوده وأصبح شاباً يافعاً لقتال الروم عام ١٦٣ هـ فقد جعله قائداً لجيش كبير يضم العديد من القواد الكبار أمثال الحسين بن قحطبة وموسى بن عيسى وعبد الله بن صالح وأمراء الدولة العباسية وكان عمر الرشيد لم يتجاوز الخمس عشرة سنة، وقد صحبه خالد بن برمك وسليمان والحسن ابنا برمك وأخوه من الرضاعة يحيى بن خالد البرمكى.

ورغم صغر سن الرشيد إلا أنه حقق إنجازاً وأظهر براعة فى قيادة الجيش حيث توغل فى أرض الروم وحاصر قلعة رومية يقال لها: «سمالوا» ثمانية وثلاثين يوماً حتى انتهى الأمر بفتحها على شروط اشترطها أهل القلعة لأنفسهم منها ألا يقتلوا، فوافق الرشيد ووفى لهم عهدهم وعاد بالجيش سالماً محملاً بالغنائم فاستقبله أهل بغداد وكافأه أبوه المهدى بتوليته بلاد المغرب وأذربيجان وأرمنية(١).

وبعد نجاح الغزوة الأولى للشاب هارون أرسله أبوه المهدى لغزو بلاد الروم مرة أخرى عام ١٦٥ هـ على رأس جيش تعداده خمسة وتسعين ألفاً أو يزيد قليلاً والجديد فى حياة الرشيد أنه تزوج من ابنة عمه زبيدة قبل تلك الغزوة وكان ضمن قواد الجيش الربيع الحاجب وعلى العسكر يزيد بن مزيد وفتح الله على الجيش وفتح ماجدة من بلاد الروم وقتل القائد الرومى نقيطاً وسار هارون بالجيش إلى الدُمستُق بنقمودية وساروا حتى وصلوا إلى خليج البحر الذى تطل عليه مدينة القسطنطينية.

وبعد هذا التوغل من الجيش الإسلامى وما حققه من انتصارات أرسلت الإمبراطورة الرومانية أغسطة تطلب الصلح وإعطاء الجزية للمسلمين. فقبل منها هارون ذلك وأرسلت معه الهدايا لوالده الخليفة المهدى وتعاهدت مع الرشيد على هدنة ثلاث سنين.

---

(١) انظر تاريخ الطبرى والبداية والنهاية.

وقال مروان بن أبى حفصة فى ذلك:

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا

إليها القناص اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها

بجزيتها والحرب تغلى قدورها

وعاد الرشيد من تلك الغزوة إلى بغداد ورايات النصر خفاقة عالية عام ١٦٦هـ وقد فرح الخليفة المهدى بابنه المنتصر وأطلق عليه لقب الرشيد، وأخذ له البيعة كولى للعهد بعد أخيه الأكبر موسى الهادى، فأصبح الرشيد ولى العهد الثانى.

وكانت الخيزران أم المهدى تحبه وترغب فى تقديمه على أخيه الهادى فى ولاية العهد لما رأته فيه من بطولة وذكاء وحكمة بالرغم كون الاثنين ولديها، ولأن الخليفة المهدى كان يحب الخيزران حباً كبيراً، فعزم على تنفيذ رغبتها ونقل ولاية العهد من ولده موسى الهادى إلى ولده هارون الرشيد فأرسل فى طلب ولده الهادى للحضور لديه وكان مقيماً فى جرجان.

لكن الهادى علم أن أباه يريد خلعه من ولاية العهد فلم يمتثل لأمر أبيه وظل مقيماً فى جرجان، فغضب المهدى منه وجهز جيشاً وتوجه إلى جرجان ومعه ابنه هارون الرشيد لكنه توفى فى ماسبذان حيث وقع من على فرسه فتوفى متأثراً بإصابته، فصلى عليه هارون ودفنه.

وأرسل هارون إلى أخيه الهادى بخاتم الخلافة والقضيب وهنئه بالخلافة وأخذ له البيعة من الأمراء وقواد الجيش وعامة المسلمين (الشعب) وتسلم الهادى أمر الخلافة وتوجه إلى بغداد لممارسة مهام عمله وأخذ البيعة بنفسه وكان ذلك فى عام ١٦٨ هـ ولم تستمر مدة خلافته سوى سنة وثلاثة أشهر.

■ ■ ■

محاولة الهادى
خلع الرشيد من ولاية العهد

لم ينازع الرشيد أخاه الهادى فى توليه الخلافة ولم يدخل معه فى صراع لأنه يعلم أن الصراع على السلطة والحكم معول هدم للخلافة الإسلامية التى سعى العباسيون إليها، إلا أن أخيه الهادى أراد عزل الرشيد عن ولاية العهد وجعلها فى ابنه من بعده، وهذا الأمر يتطلب تنازل الرشيد عن ولاية العهد ومبايعة الولى الجديد.

وأصبح الخليفة الهادى ينتقد تصرفات أخيه ولى العهد فى مجالسه ويبدى عدم رضائه عنه بل وطلب منه أكثر من مرة أن يتنازل عن ولاية العهد، فقد ذكر الطبرى فى تاريخه أن الهادى بعث إلى يحيى البرمكى وكان من أشد المناصرين للرشيد ليلاً ولم يشك يحيى أن الهادى سوف يقتله لذلك حتى أنه ودَّع أهله وجدد ثيابه وتحنط، فلما دخل على الهادى قال له الهادى:

- يا يحيى، مالى ولك.

قال يحيى: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكن العبد إلى مولاه إلا طاعته.

قال: فلم تدخل بينى وبين أخى وتفسده علىَّ؟

قال: يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما، إنما صيرنى المهدى معه، وأمرنى بالقيام بأمره، فقمت بما أمرنى به، ثم أمرتنى بذلك فانتهيت إلى أمرك.

قال: فما الذى صنع هارون؟

قال: ما صنع شيئاً ولا ذلك فيه ولا عنده.

فسكن غضب الهادى عليه.

وسبب هذا الحوار أن الهادى قد علم أن يحيى البرمكى كان يشجع الرشيد

على عدم التنازل عن ولاية العهد ولذلك تكرر تحذير الهادى له أكثر من مرة إلا أن يحيى البرمكى ظل معاوناً للرشيد يشجعه على عدم التنازل عن ولاية العهد بعد أن رأى أن الرشيد يريد ألا يدخل فى صراع على السلطة والخلافة مع أخيه وانتهى الأمر بأن أصدر الهادى أمراً باعتقال يحيى البرمكى فظل فى السجن حتى وفاة الهادى وأخرجته الخيزران ليكون الوزير المقرب من الرشيد.

وتذكر كتب التاريخ أن الخليفة المهدى رأى رؤيا تشير إلى تولى ابنيه الهادى والرشيد الخلافة إلا أن حظ الرشيد سيعلو أخيه الهادى فقال المهدى: أُريت فى منامى كأنى دفعت إلى موسى الهادى قضيباً وإلى هارون قضيباً، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً، فأما هارون فأورق قضيبه من أوله إلى آخره.

وفى أحد مجالس الهادى ذكر لأخيه الرشيد تلك الرؤيا والتى كان يعلمها الجميع فقال له: يا هارون، كأنى بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت منه بعيد ودون ذلك خرط القتاد تؤمل الخلافة.

فبرك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى إنك إن تجبرت وضعت وإن تواضعت رُفعت وإن ظلمت خُتلت ـ قتلت ـ وإنى لأرجو أن يفضى الأمر إلىَّ، فانصف من ظلمت وأصل من قطعت وأصير أولادك أعلى من أولادى وأزواجهم بناتى، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدى.

فقال له الهادى: ذلك الظن بك أبا جعفر، ادن منى.

فدنا منه فقبل يديه ثم ذهب يجلس مكانه فى المجلس فقال له: لا والشيخ الجليل والملك النبيل ـ يقصد المنصور ـ لأجلسك إلا معى.

وأجلسه فى صدر المجلس معه ثم قال: يا حَرّانىّ، أحمل إلى أخى ألف ألف دينار ـ مليون ـ وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النصف منه واعرض عليه ما فى الخزائن من مالنا فيأخذ جميع ما أراد.

لكن هذا الصفاء والود لم يدم طويلاً بين الأخوين فقد تدخلت وساوس شياطين الإنس من الحاشية تزين للهادى عزل أخيه وتولية ابنه مكانه حتى أن الهادى أعلن

ذات يوم بنيته على أخذ البيعة لولده جعفر أمام قواده وكبار الدولة، ولكن الرشيد رفض التنازل لجعفر بن الهادى، فأمر الهادى بحبس الرشيد فى بيت خاص وتحت إشراف سلامة الأبرشى وهو سجان معروف منذ عصر المنصور، ووصل الأمر إلى منتهاه بعد أمر الهادى أيضاً بحبس معاون الرشيد يحيى البرمكى.

وتروى كتب التاريخ أن الأم الخيزران تدخلت لصالح الرشيد بعد أن حاول الهادى دس السم لها فى الطعام كما قيل فتخلصت منه، وقيل أيضاً إن الهادى قد مرض ومات موتاً طبيعياً.

ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية فى أحداث عام ١٧٠ هـ أن الهادى عزم على خلع هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه جعفر بن الهادى فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب، واستدعى الهادى جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك.

وأبت أمهما الخيزران وكانت تميل إلى ابنها هارون أكثر من موسى الهادى وكان الهادى قد منعها من التصرف فى شىء من المملكة لذلك، بعد ما كانت قد استحوذت عليه فى أول ولايته وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء إلى جانبها، فحلف الهادى لئن عاد أمير إلى بابها ليضربن عنقه ولا يقبل منه شفاعة.

فامتنعت من الكلام فى ذلك وحلفت لا تكلمه أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر.

وألح هو على أخيه هارون فى الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك وكان من أكابر الأمراء الذين هم فى صف الرشيد.

فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع، هارون وتولية ابنى جعفر؟

فقال له خالد: إنى أخشى أن تهون الإيمان على الناس ولكن المصلحة تقتضى أن تجعل جعفر ولى العهد بعد هارون، وأيضاً فإنى أخشى ألا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ فيتفاقم الأمر ويختلف الناس.

فأطرق مليّاً وكان ذلك ليلاً ثم أمر بسجنه ثم أطلقه.

وذكر ابن كثير أن الهادى تصالح بعدها مع الرشيد ورضى عنه ثم سافر إلى

مدينة الموصل بعد هذا الصلح ثم عاد منها فمات «بعيساباذ» ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول عام ١٧٠ هـ وقيل آخر العام وله من العمر ثلاثة وعشرون سنة.

وقد ذكر ابن كثير ما أشيع عن قيام الخيزران بقتل الهادى بالسم خوفاً منه على ابنها الرشيد ولكنه لم يؤكد الخبر وقال: فالله أعلم.

وقد ذكر ابن كثير أيضاً أن الهادى قد عزم على قتل يحيى البرمكى وهارون الرشيد فى نفس الليلة التى توفى فيها فقال ابن كثير عن خلافة هارون الرشيد: بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول ١٧٠ هـ وكان عمر الرشيد يومئذ اثنتين وعشرين سنة، فبعث إلى يحيى البرمكى فأخرجه من السجن وقد كان الهادى عزم تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد وكان الرشيد ابنه من الرضاعة فولاه حينئذ الوزارة.

وكانت الخيزران قد أخرجت يحيى البرمكى من السجن عقب إعلان وفاة الهادى فتوجه حيث كان الرشيد محبوساً فوجده نائماً فقال له: قم يا أمير المؤمنين.

فقال له الرشيد: كم تروعنى، لو سمعك هذا الرجل يقصد أخاه الهادى ـ لكان ذلك أكبر ذنوبى عنده.

فقال: قد مات الرجل.

فجلس هارون وقد ذهب عنه الروع وقال له: أشر علىَّ فى الولايات.

فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد فبينما هو كذلك إذ جاء آخر فقال: أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام.

فقال هارون: هو عبد الله وهو المأمون[١].

ثم أصبح فصلى على أخيه الهادى ودفنه بعيساباذ فى بستان قصر الهادى هناك.

وهكذا أصبح الرشيد خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين.

■ ■ ■

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.



رجال فى حياة الرشيد ومجالسه

- العلامة أبو سعيد الأصمعى.
- الشاعر أبو العتاهية.
- إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق الموصلى.
- الأمير المغنى أخو الرشيد إبراهيم بن المهدى.
- القاضى أبو يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة.
- حاجب الرشيد ووزيره الفضل بن الربيع.
- الفقيه المصرى الليث بن سعد.
- الإمام الشافعى صاحب المذهب.
- محمد بن الحسن الشيبانى القاضى صاحب الإمام أبى حنيفة.
- عبد الله بن المبارك العالم و الزاهد.
- إمام دار الهجرة أنس بن مالك.
- الوزير يحيى بن خالد البرمكى وابنه الوزير جعفر.
- الفضيل بن عياض عابد الحرمين.
- أحمد بن هارون الرشيد.



رجال فى حياة الرشيد ومجالسه

لقد وصف الكثير من المؤرخين الرشيد بأنه ملك يعشق النساء والجوارى والخمر والغناء والرقص، هكذا صوره الأصفهانى فى كتابه الأغانى ومنه نقل الكثيرون الحكايات حول مجلس الرشيد وسهراته الحمراء، ونجحت تلك المؤامرة فى تشويه صورة الرشيد ذلك الخليفة الذى قيل عن عصره إنه عصر ازدهار الحضارة الإسلامية حيث اتسعت رقعة تلك الدولة وكثر خراجها وامتلأت الخزائن بالأموال، فقد ترك فى خزائن بيت المال حين مات نحو ٩٠٠ مليون دينار بقيمة هذا الوقت والحقيقة أن مجالس هارون الرشيد كانت مجالس تعج بالشعراء والعلماء أهل الفقه والطب والموسيقى وقد امتلأت كتب المؤرخين المنصفين بمواقف عديدة للرشيد مع هؤلاء العلماء.

قال عمرو بن بحر (الجاحظ): «اجتمع للرشيد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده، كان أبو يوسف (الفقيه صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان) قاضيه، والبرامكة وزراءه، وحاجبه الفضل بن الربيع، أنبه الناس وأشدهم تعاظماً، ونديمه عمر بن محمد، وشاعره مروان بن أبى حفصة، ومغنيه إبراهيم الموصلى واحد عصره فى صناعته، ومضحكه ابن أبى مريم، وزامره برصوما، وزوجته أم جعفر ـ يعنى زبيدة ـ وكانت أرغب الناس فى كل خير، وأسرعهم إلى كل بر ومعروف، أدخلت الماء الحَرَم بعد امتناعه من ذلك... إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها[1].

وقال ابن طباطبا: «وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول، وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة مملكة.. ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ بغداد.

والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب، ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل يوم واحداً منهم أجزل صلة، ويرفعه إلى أعلى درجة، وكان فاضلاً رواية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيباً عند الخاصة والعامة.

إنه من أفاضل الخلفاء وفصائحهم وعلمائهم وكرمائهم(١).

وكان من أشهر جلساء الرشيد العلامة الأصمعى:

١ ـ وهو عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى، أبو سعيد الأصمعى (١٢١ هـ ٢١٦ هـ/ ٧٤٠ ـ ٨٣١ م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان.

نسبته إلى جده أصمع، ومولده ووفاته فى البصرة. كان كثير التطواف فى البوادى، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة.

وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر) وقال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعى، وقال أبو الطيب اللغوى: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً.

وكان الأصمعى يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. وللمستشرق الألمانى وليم أهورد Vilhelm Ahiwardt كتاب سماه (الأصمعيات) جمع فيه بعض القصائد التى تفرد الأصمعى بروايتها وتصانيفه كثيرة، منها (الإبل)، و (الأضداد)، و (خلق الإنسان)، و (المترادف)، و (الفرق) أى الفرق بين أسماء الأعضاء من الإنسان والحيوان.

يحكى بأن الأصمعى سمع بأن الشعراء قد ضيق عليهم من قبل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فهو يحفظ كل قصيدة يقولونها ويدعى بأنه سمعها من قبل فبعد أن ينتهى الشاعر من قول القصيدة يقوم الخليفة بسرد القصيدة إليه ويقول له لا بل حتى الغلام عندى يحفظها فيأتى الغلام وكان يحفظ الشعر بعد تكراره القصيدة مرتين فيسرد القصيدة مرة أخرى ويقول: ليس الأمر كذلك فحسب بل إن عندى جارية هى تحفظها أيضاً.

(١) انظر الفخرى فى الآداب السلطانية.

والجارية تحفظه بعد المرة الثالثة ويفعل ذلك مع كل الشعراء وأصيب الشعراء بالخيبة والإحباط، حيث إنه كان يتوجب على الخليفة دفع الأعطيات من المال لكل قصيدة لم يسمعها.

فسمع الأصمعى بذلك فأعد قصيدة منوعة الكلمات وغريبة المعانى ولبس لبس الأعراب وتنكر حيث إنه كان معروفاً، فدخل على الخليفة وقال إن لدى قصيدة أود أن ألقيها عليك ولا أعتقد أنك سمعتها من قبل.

فقال له: هات ما عندك.

فقال القصيدة والخليفة يحفظ من أول مرة والغلام من الثانية والجارية من الثالثة، والقصيدة هى:

صــوت صــفــيــر البلبل	هيج قلبى الثـــمــلى
الماء والزهر مـــعـــا	مـع لحـظ زهـر المـقـلـى
وأنـت يـا سـيـــدلى	وسـيــدى ومــولى لى
فـكـم فـكـم تـيــمـنى	غـــزيل عـــقــيــقلى
قـطـفـتــه من وجـنـة	من لـثـم ورد الخـــجـلى
فـــقـــال لا لا لا لا	وقـــد غـــدا مـــهـــرولى
والخـــود مـــالـت طربـا	من فـــعـل هـذا الرجـلى
فـــولـولـت وولـولـت	ولـــى ولـــى يـــا ويـــلـــلـــى
فـــقـلـت لا تـولـولـى	وبـيـــنـــى الـــلـؤلـؤ لـــى
قـــالـت لـه حين كـــذا	انـهـض وجـــد بـالـنـقـلـى
وفـــتـــيـــة ســقـــوننى	قـــهـــوة كـــالـعـــسـللى

شـمـمـتـهـا بآنفي ... أزكى من القـرنفلي

في وسط بستان حلي ... بالزهر والسرور لي

والعود دندن دنا لي ... والطبل طبطب طب لي

طب طبطب طب طبطب ... طب طبطب طبطب طب لي

والسقف سق سق سق لي ... والرقص قد طاب إلي

شوى شوى وشاهش ... على ورق سفرجلي

وغرد القمرى يصيح ... ملل في مللي

ولو تراني راكبا ... على حمار اهزلي

يمشي على ثلاثة ... كمشية العرنجلي

والناس ترجم جملي ... في السوق بالقلقللي

والكل كعكع كعِكَع ... خلفي ومن حويللي

لكن مشيت هاربا ... من خشية العقنقلي

إلى لقاء ملك ... معظم مبجلي

يأمر لي بخلعة ... حمراء كالدم دملي

أجر فيها ماشيا ... مبغددا للذيلي

أنا الأديب الألمعي من ... حي أرض الموصلي

نظمت قطعا زخرفت ... يعجز عنها الأدبلي

أقول في مطلعها ... صوت صفير البلبلي

حينها اسقط فى يد الأمير فقال يا غلام يا جارية.

قالوا لم نسمع بها من قبل يا مولاى.

فقال احضر ما كتبتها عليه فنزنه ونعطيك وزنه ذهباً.

قال: ورثت عمود رخام من أبى وقد كتبتها عليه، لا يحمله إلا عشرة من الجند.

فاحضروه فوزن الصندوق كله، فقال الوزير يا أمير المؤمنين ما أظنه إلا الأصمعى فقال الخليفة له:

ـ أمط لثامك يا أعرابى.

فأزال لثامه فإذا به الأصمعى، فقال الخليفة: أتفعل ذلك بأمير المؤمنين يا أصمعى؟

قال: يا أمير المؤمنين قد قطعت رزق الشعراء بفعلك هذا.

قال: أعد المال يا أصمعى.

قال: لا أعيده.

قال: أعده.

قال الأصمعى: بشرط.

قال: فما هو؟

قال: إن تعطى الشعراء على نقلهم ومقولهم.

قال: لك ما تريد.

وكان الأصمعى ذات يوم يدرس للناس فى مجلسه اللغة العربية وكان يستشهد بالأشعار والأحاديث والآيات فمن ضمن استشهاداته قال:

«والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم».

فقال له أعرابى: يا أصمعى كلام من هذا؟

فقال: كلام الله!

قال الأعرابى: حاشا لله أن يقول هذا الكلام!

فتعجب الأصمعى وتعجب الناس وقال: يا رجل انظر ما تقول هذا كلام الله!

قال الأعرابى: حاشا لله أن يقول هذا الكلام، لا يمكن أن يقول الله هذا الكلام.

قال له: يا رجل تحفظ القرآن؟

قال: لا.

قال: أقول لك هذه آية فى المائدة.

قال: يستحيل لا يمكن أن يكون هذا كلام الله.

وكاد الناس أن يضربوه.

فقال الأصمعى: اصبروا، هاتوا بالمصحف وأقيموا عليه الحجة، فجاؤا بالمصحف ففتحوا وقال اقرؤا فقرؤوها: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨).

وهنا أدرك الأصمعى خطأه فى التلاوة فى نهاية الآية، فآخرها عزيز حكيم ولم يكن آخرها غفور رحيم فتعجب الأصمعى وتعجب الناس قالوا يا رجل كيف عرفت وأنت لا تحفظ الآية؟

فقال الأعرابى للأصمعى تقول:

اقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا، هذا موقف عزة وحكمة، وليس بموقف مغفرة ورحمة، فكيف تقول غفور رحيم!!

قال الأصمعى: والله إنا لا نعرف لغة العرب!!

وهكذا أدرك الأصمعى أن القرآن غالب وأنه فوق كل ذى علم عليم.

قال عنه الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء:

الأصمعى الإمام العلامة الحافظ حجة الأدب لسان العرب أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن على بن أصمع بن مظهر بن عبد شمس بن أعيا بن

سعد بن عبد بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الأصمعى البصرى اللغوى الأخبارى أحد الأعلام يقال اسم أبيه عاصم ولقبه قريب ولد سنة بضع وعشرين ومئة وحدث عن ابن عون وسليمان التيمى وأبى عمرو بن العلاء وقرة بن خالد ومسعر بن كدام وعمر بن أبى زائدة وشعبة ونافع بن أبى نعيم وتلا عليه وبكار بن عبد العزيز بن أبى بكرة وسلمة بن بلال وشبيب بن شيبة وعدد كثير.

لكنه قليل الرواية للمسندات حدث عنه أبو عبيد ويحيى بن معين وإسحاق بن إبراهيم الموصلى وسلمة بن عاصم وزكريا بن يحيى المنقرى وعمر بن شبة وأبو الفضل الرياشى وأبو حاتم السجستانى ونصر بن على وابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله الأصمعى وأبو حاتم الرازى وأحمد ابن عبيد أبو عصيدة وبشر بن موسى والكديمى وأبو العيناء وأبو مسلم الكجى وخلق كثير عباس الدورى عن يحيى بن معين عن الأصمعى قال سمع منى مالك بن أنس.

وقد أثنى أحمد بن حنبل على الأصمعى فى السُّنة.

قال الأصمعى: قال لى شعبة لو تفرغت لجئتك.

قال إسحاق الموصلى: دخلت على الأصمعى أعوده فإذا قمطر.

فقلت: هذا علمك كله.

فقال: إن هذا من حق لكثير.

وقال ثعلب: قيل للأصمعى كيف حفظت ونسوا.

قال: درست وتركوا.

قال عمر بن شبة: سمعت الأصمعى يقول أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة.

وقال محمد بن الأعرابى: شهدت الأصمعى وقد أنشد نحوا من مئتى بيت ما فيها بيت عرفناه.

قال الربيع: سمعت الشافعى يقول ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة

الأصمعى وعن ابن معين.

قال: كان الأصمعى من أعلم الناس فى فنه وقال أبو داود: صدوق.

قال: أبو داود السنجي: سمعت الأصمعى يقول إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فى جملة قوله ﷺ من كذب على فليتبوأ مقعده من النار.

وقال نصر الجهضمى: كان الأصمعى يتقى أن يفسر الحديث كما يتقى أن يفسر القرآن.

قال المبرد: كان الأصمعى بحرا فى اللغة لا نعرف مثله فيها.

وكان أبو زيد أنحى منه قيل لأبى نواس قد أشخص الأصمعى وأبو عبيدة على الرشيد فقال أما أبو عبيدة فإن مكنوه من سفره قرأ عليهم علم أخبار الأولين والآخرين وأما الأصمعى فبلبل يطربهم بنغماته.

قال أبو العيناء: قال الأصمعى دخلت أنا وأبو عبيدة على الفضل بن الربيع فقال: يا أصمعى كم كتابك فى الخيل قلت جلد فسأل أبا عبيدة اقرأ كتابك حرفا حرفا وضع يدك على موضع موضع.

قال: لست ببيطار إنما هذا شيء أخذته من العرب فقال لى قم فضع يدك فقمت فحسرت عن ذراعى وساقى ثم وثبت فأخذته بإذن الفرس ثم وضعت يدى على ناصيته فجعلت اقبض منه بشيء شيء وأقول هذا اسمه كذا وأنشد فيه حتى بلغت حافره فأمر لى بالفرس فكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبت الفرس وأتيته.

وعن ابن دريد أن الأصمعى كان بخيلاً ويجمع أحاديث البخلاء.

وقال محمد بن سلام: كنا مع أبى عبيدة بقرب دار الأصمعى فسمعنا منها ضجة، فبادر الناس ليعرفوا ذلك فقال أبو عبيدة إنما يفعلون هذا عند الخبز كذا يفعلون إذا فقدوا رغيفاً.

وعن الأصمعى قال: نلت ما نلت بالملح.

قلت كتبت شيئاً لا يحصى عن العرب وكان ذا حفظ وذكاء ولطف عبارة فساد وروى ثعلب.

عن أحمد بن عمر النحوى قال قدم الحسن بن سهل فجمع أهل الأدب وحضرت ووقع الحسن على خمسين رقعة.

وجرى ذكر الحفاظ فذكرنا الزهرى وقتادة فقال الأصمعى فأنا أعيد ما وقع به الأمير على التوالى فأحضرت الرقاع فقال صاحب الرقعة الأولى كذا وكذا واسمه كذا وكذا ووقع له بكذا وكذا والرقعة الثانية كذا والثالثة حتى مر على نيف وأربعين رقعة.

فقال نصر بن على الجهضمى أيها المرء ابق على نفسك من العين وقد روى نحوها من وجه آخر وقال حسبك لا تقتل بالعين وقال يا غلام احمل معه خمسين ألفا قال عمرو بن مرزوق رأيت الأصمعى وسيبويه يتناظران فقال يونس الحق مع سيبويه وهذا يغلبه بلسانه.

وروى عن الأصمعى أن الرشيد أجازه مرة بمئة ألف.

وتصانيف الأصمعى ونوادره كثيرة وأكثر تواليفه مختصرات وقد فقد أكثرها قال خليفة وأبو العيناء:

مات الأصمعى سنة خمس عشرة ومئتين وقال محمد بن المثنى والبخارى سنة ست عشرة ويقال عاش ثمانية وثمانين سنة رحمه الله[1].

نشأ الأصمعى فى البصرة موئل العربية ومحفل علمائها فى عصره، فتعلم فيها القراءة والكتابة، ثم أتقن تجويد القرآن على أبى عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) أحد القراء السبعة، وهو أستاذه فى سائر علوم اللغة والأدب، وأكثر من لازمه من شيوخه. وممن أخذ عنهم علومه عيسى بن عمر الثقفى (ت ١٤٩ هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥ هـ)، وسمع مِسْعر بن كِدام (ت ١٥٢ هـ)، وشعبة بن الحجاج (ت ١٦٠ هـ)، وحماد بن سلمة (ت ١٦٧ هـ)، وحماد بن زيد (ت ١٧٩ هـ).

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى.

ومما أسهم فى ثقافة الأصمعى روايته عن فحول الشعراء كرؤبة وابن ميادة والحسين بن مطير الأسدى وابن هرمة وابن الدمينة وغيرهم، وذلك لاعتقاده أن العلم لا يصح إلا بالرواية والأخذ عن أفواه الرجال.

أحب الأصمعى اللغة حبّاً ملك عليه شغاف قلبه، فارتحل إلى أعماق البوادى يشافه أرباب الفصاحة والبيان من الأعراب الأقحاح حتى إنه قلما يقع المرء على كتاب فى التراث يخلو من خبر للأصمعى مع الأعراب.

ومما أغنى خزانة كتبه الواسعة التى جمع فيها أصول علمه ومروياته. يتبين من هذا أن علم الأصمعى لم يكن علم سماع من الأعراب ورواية فحسب، بل إنه كان مع ذلك علم درس ودراية.

استقدمه الرشيد إلى بغداد لِما بلغه من علمه وفضله واتساع درايته للغة، وروايته لأنساب العرب وأيامها، واتخذه سميره ومؤدب نجله الأمين. وكان خفيف الروح ظريف النادرة إلى مزح يحرك الرصين ويضحك الحزين.

كان الصدق لسان حال الأصمعى لغة ورأياً ومحبة للعربية، شهد له بذلك الشافعى: «ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى».

وقال إسحاق الموصلى: «لم أر الأصمعى يدعى شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه».

وقال أبو داود: «صدوق، وكان يتقى أن يفسر القرآن»، وقال المبرد: «كان الأصمعى بحراً فى اللغة، ولا يعرف مثله فيها وفى كثرة الرواية».

عرف عنه أنه كان ضابطاً محققاً، يتحرى اللفظ الصحيح، ويتلمس أسرار اللغة ودقائقها، ولا يفتى إلا فيما أجمع عليه علماء اللغة ولا يجيز إلا أفصح اللغات، يسعفه فى ذلك حافظة وقادة، وصبر أهل العلم وجَلَدُهم، وعنه أنه قال: «حفظت ستة عشر ألف أرجوزة»، فكثر لذلك خصومه كأبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١ هـ) وإسحاق الموصلى (ت ٢٣٥ هـ) وشر عداوة الناس عداوة الصناعة، وهذا يفسر العداوة بين الأصمعى ومعاصره أبى عبيدة، فقد كان الأصمعى اتباعيا يمجد السلف وآثاره، ويروى هائماً مفتوناً أشعاره وأخباره، وقد عرف عن أبى عبيدة أنه كان شعوبياً يبغض العرب وصنف كتاباً فى مثالبهم.

روى عن الأصمعى ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)، وأبو حاتم السجستانى (ت ٢٤٨ هـ)، وأبو الفضل الرياشى (ت ٢٥٧ هـ)، واليزيدى (ت ٢٦٠ هـ) وطائفة.

ترك الأصمعى تراثاً جمّاً من التصانيف الجياد، عدتها تزيد على الثلاثين، منها: خلق الإنسان، الأجناس، الأنواء، الخيل، الشاء (جمع شاه)، الوحوش، اشتقاق الأسماء، الأضداد، اللغات، القلب والإبدال، فحولة الشعراء: وقد رواه عنه تلميذه السجستانى، وفيه نظرات لطيفة فى تقويم الشعر والشعراء، ولعل أجل آثاره «الأصمعيات» وهو اختيارات شعرية انتخبها من عيون الشعر العربى، تصور الحياة الأدبية أدق تصوير، فى عاداتها وأفكارها وتقاليدها.

على أن قيمته اللغوية أعلى من قيمته الفنية إذ حفظ لنا تراثاً لغوياً قلما تخلو منه كتب اللغة والأدب.

ولا يزال الأصمعى مضرب المثل فى الفصاحة وسعة الرواية حتى يومنا.

مات فى خلافة المأمون فى البصرة، وأكثرت الشعراء رثاءه، من ذلك ما قاله أبو العالية الشامى:

لا درَّ درُّ نبات الأرض إذ فجعت ... بالأصمعى لقد أبقت لنا أسفا

عش ما بدا لك فى الدنيا فلست ترى ... فى الناس منه ولا فى علمه خلفا

وكان الأصمعى من جلساء الرشيد وله معه مواقف كثيرة رواها عنه وتؤرخ للرشيد نذكر منها بعضها:

قال الأصمعى: دخلت على هارون الرشيد ومجلسه حافل فقال الرشيد له: يا أصمعى ما أغفلك عنا، وأجفاك لعزتنا؟

قلت: والله يا أمير المؤمنين ما الاقتنى بلاد بعدك حتى أتيتك، قال: فأمرنى بالجلوس، فجلست وسكت عنى، فلما تفرق الناس - إلا أقلهم - نهضت للقيام، فأشار إلى أن أجلس، فجلست حتى خلا المجلس، فلم يبق غيرى وغيره ومن بين يديه من الغلمان، فقال لى: يا أبا سعيد: ما الاقتنى؟ قلت: أمسكتنى يا أمير المؤمنين، وأنشدت:

كفاك كف ما تليق درهما   جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما

فقال: أحسنت، وهكذا فكن، وقرنا فى الملا، وعلمنا فى الخلا، وأمر لى بخمسة آلاف دينار[1].

وقال الأصمعى: كنا عند الرشيد، فقدمت إليه فالوذجة، فقال: يا أصمعىُّ، حدثنا بحديث مزرد، فقلت: إن مزرداً أخا الشماخ كان غلاماً جشعاً، وكانت أمه تؤثر عيالها بالطعام عليه، وكان ذلك يغضبه، فخرجت أمه ذات يوم تزور بعض أهلها، فدخل مزرد الخيمة وعمد إلى صاعَىْ دقيق، وصاع من تمر، وصاع من سمن، فجمعه ثم جعل يأكله وهو يقول:

ولما غدت أمي تميـر بناتها   أغرت على العكم[2] الذى كان يمنع

لبكت[3] بصاعى حنطة صاع عجوة   إلى صاع سمن فوقه يتريع[4]

ودبلت[5] أمثال الأثافى كأنها   رؤوس نقاد[6] قطعت يوم تجمع

وقلت لبطنى أبشر اليوم إنه   حمى أمنا مما تحوز وترفع

فإن كنت مصفوراً[7] فهذا دواؤه   وإن كنت غرثاناً[8] فذا يوم تشبع

فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهره، ثم قال: كلوا باسم الله، هذا يوم تشبع يا أصمعى[9].

---

(١) انظر تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادى.

(٢) العكم: النمط تجعله المرأة كالوعاء تدخر فيه متاعها.

(٣) لبكت: خلطت، واللبيكة: تمر ودقيق يخلط ويصب عليه السمن.

(٤) يتريع: يتميع لا يستقر له وجه لكثرته، وفى الأصل «يتربع» بالباء الموحدة.

(٥) دبلت الشىء: جمعت بعضه على بعضه، جعلته كتلة.

(٦) نقاد: جمع نقدة، وهى الصغيرة من الغنم، الذكر والأنثى فى ذلك سواء.

(٧) المصفور: وهو داء فى البطن يصفر منه الوجه.

(٨) غرثان: جائع.

(٩) انظر عيون الأخبار: لابن قتيبة، العقد الفريد لابن عبد ربه فالأعرابى لا يريد أن يقوم بأى جهد فى تلك العملية التى يريد القيام بها.

وقال الأصمعى: دخلت على هارون الرشيد وبين يديه بدرة ـ ١٠ آلاف درهم ـ فقال: يا أصمعى، إن حدثتنى بحديث فى العَجْزِ فأضحكتنى، وهبتك هذه البدرة.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، بينا أنا فى صحارى الأعراب فى يوم شديد البرد والريح، وإذا بأعرابى قاعد على أجمة وهو عريان، قد احتملت الريح كساءه، فألقته على الأجمة، فقلت له: يا أعرابى ما أجلسك ههنا على هذه الحالة؟

فقال: جارية وعدتها يقال لها سلمى أنا منتظر لها.

فقلت: وما يمنعك من أخذ كسائك؟

فقال: العجز يوقفنى عن أخذه.

فقلت له: فهل قلت فى سلمى شيئاً؟

فقال: نعم.

فقلت: أسمعنى لله أبوك!

فقال: لا أسمعك حتى تأخذ كسائى وتلقيه علىَّ.

قال: فأخذته فألقيته عليه، فأنشأ يقول:

لعل الله أن يأتى بِسلْمَى ... فيبطحها ويلقينى عليها

ويأتى بعد ذاك سحاب مزن ... تطهِّرنا ولا نسعى إليها

فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهره، وقال: أعطوه البدرة، فأخذها الأصمعى وانصرف[1].

قال الرشيد للأصمعى يوماً: يا أصمعى، أتعرف للعرب اعتذاراً وندماً؟ ودع النابغة، فإنه يحتج ويعتذر، فقلت: ما أعرف ذلك إلا لبشر بن أبى حازم الأسدى، فإنه هجا أوس بن حارثة بن لأم، فأسره بعد ذلك وأراد قتله، فقالت له أمه ـ وكانت ذات رأى ـ والله لا محا هجاءه لك إلا مدحه إياك، فعفا عنه.

(١) انظر عيون الأخبار: لابن قتيبة، العقد الفريد لابن عبد ربه فالأعرابى لا يريد أن يقوم بأى جهد فى تلك العملية التى يريد القيام بها.

فأنشد بشر من شعر الأعشى:

إنى على مـــا كـــان منى لنادمٌ   وإنى إلى أوس بن لأم لتـــائـب

وإنى إلى أوس لـيــقــبـل توبتى   ويعرف ودى مـا حـيـيت لراغب

سأمحو بمدحى فيك إذ أنا صادق   كـتـاب هجـاء سـار إذ أنا كـاذب

فقال الرشيد للأصمعى: إن دولتى لتحسن ببقائك فيها.

وروى الأصمعى: «لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لى: هل حملت معك شيئاً من كتبك؟ قلت: نعم حملت منها ما خف حمله.. ثمانية عشر صندوقاً.

فقال: هذا لما خففت، فلو ثقلت كم كنت حملت؟».

وذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء أن العمانى الرجز أنشد يصف فرساً فقال:

كـــأن أذنيـــه إذا تشـــوفـــا   قـــادمـــة أو قلمـــا مـــحـــرفـــا

ولحن، ففهم ذلك أكثر من حضر، فقال له الرشيد: دع كأن وقل: تخال.

ـ أى «تخال أذنيه» حتى يستوى الشعر.

فعجبوا لسرعة فهمه وتصحيحه للخطأ فى بيت الشعر.

■ ■ ■

٢ ـ ومن جلساء الرشيد
الشاعر الكبير أبو العتاهية

واسمه إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد العينى، العَنزى، أبو إسحاق، من قبيلة عنزة، ولد فى عين التمر سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م، ثم انتقل إلى الكوفة، وكان بائعاً للجرار، مال إلى العلم والأدب ونظم الشعر حتى نبغ فيه، ثم انتقل إلى بغداد، واتصل بالخلفاء، فمدح المهدى والهادى والرشيد.

أغر مكثر، سريع الخاطر، فى شعره إبداع، يعد من مقدمى المولدين، من طبقة بشار بن برد وأبى نواس وأمثالهما، كان يجيد القول فى الزهد والمديح وأكثر أنواع الشعر فى عصره.

وأبو العتاهية كنية غلبت عليه لما عرف به فى شبابه من مجون، ولكنه كف عن حياة اللهو والمجون، ومال إلى التنسك والزهد، وانصرف عن ملذات الدنيا والحياة، وشغل بخواطر الموت، ودعا الناس إلى التزود من دار الفناء إلى دار البقاء وكان فى بدء أمره يبيع الجرار ثم اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم.

وهجر الشعر مدة، فبلغ ذلك الخليفة العباسى هارون الرشيد، فسجنه ثم أحضره إليه وهدده بالقتل إن لم يقل الشعر، فعاد إلى نظمه، فأطلقه.

كان أبو العتاهية قد قدم من الكوفة إلى بغداد مع إبراهيم الموصلى، ثم افترقا ونزل الحيرة، وقدم إلى الخليفة المهدى ببغداد، فامتدحه أبو العتاهية ونال العطايا.

وأحب أبو العتاهية جارية للخليفة المهدى تسمى عتبة وأنشد فيها شعراً فغضب المهدى وحبسه ثم أطلقه.

وانقطع إلى قول الشعر فى الزهد فى الدنيا والتذكير فى الآخرة بعد الموت ويتميز شعره بسهولة الألفاظ عجيبة وواضح المعانى يمثل الزهد وهجر الحياة

وملذاتها وسلك طريق الآخرة.

وتوفى فى بغداد، اختلف فى سنة وفاته فقيل سنة ٢١٣ هـ، ٨٢٦ وقيل غيرها.

ومن أشعاره:

نصبت لنا دون التفكر يا دنيا ... أماني يفنى العمر من قبل أن تفنى

متى تنقضى حاجات من ليس واصلاً ... إلى حاجة حتى تكون له أخرى

لكل امرئ فيما قضى الله خطة ... من الأمر فيها يستوى العبد والمولى

وإن أمراً يسعى لغير نهاية ... لمنغمس فى لجة الفاقة الكبرى

ومن شعره أيضاً:

بكيت على الشباب بدمع عينى ... فلم يغن البكاء ولا النحيب

فيا أسفا أسفت على شباب ... نعاه الشيب والرأس الخضيب

عريت من الشباب وكنت غضاً ... كما يعرى من الورق القضيب

فيا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

قال الأصمعى: لما زخرف الرشيد مجالسه وزوقها وصنع فيها طعاماً كثيراً، أرسل إلى أبى العتاهية وقال: صف لنا ما نحن فيه من النعيم فى هذه الدنيا، فقال:

عش ما بدا لك سالما ... فى ظل شاهقة القصور

يسعى عليك بما أشتهيـ ... ـت لدى الرواح وفى البكور

وإذا النفوس تقعقعت ... فى ضيق حشرجة الصدور

فهنالك تعلم موقناً ... ما كنت إلا فى غرور

فبكى هارون، فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته؟

فقال هارون: دعه، فإنه رآنا فى ضلالة وعَمًى فكره أن يزيدنا عَمًى.

٣ـ ومن جلساء الرشيد إبراهيم الموصلى (٧٤٢م ـ ٨٠٤م)

وهو إبراهيم بن ميسون وأمه من بنات الدهاقين. واحد من أشهر المغنين فى العصر العباسى، فارسى الأصل ولد بالكوفة سنة ١٢٥ هـ، ٧٤٢ م.

توفى أبوه وعمره ثلاث سنين، ولقب الموصلى لإقامته فى الموصل، تربى عند بنى تميم والتحق بالكتاب فلم يتعلم شيئاً بسبب شغفه وحبه للغناء ولهذا السبب لقى محاربة من أسرته.

انتقل إلى الموصل فراراً من أهله وبقى متمسكاً بالموسيقى رغم قساوة البيئة فتعلم الغناء والعزف على العود واشتهر باسم الفتى الموصلى ثم وجد إبراهيم فى نفسه الموهبة المتنامية التى فاق فيها المغنين فى الموصل وبعدها أصبح ينتقل فى المدن وسافر إلى بلاد فارس وتعلم الغناء الفارسى فتتلمذ فيها على سياط حتى أصبح من أشهر وأمهر المغنين فى زمانه ومن أحسن الملحنين ويقال إنه لحن أكثر من تسعمائة لحن.

وانتهى به المطاف إلى مدينة الرى والتى كانت مدينة مزدهرة فى العهد العباسى حيث التقى فيها إبراهيم بأعلام من الموسيقيين والمغنين فأخذ الغناء بأنواعه وتفنن وبرع فيه.

سمع غناءه الخليفة المهدى فطلب إحضاره إلى بغداد فكان أول الخلفاء الذى اتصل بهم إبراهيم ولم يسمع الخليفة مغنياً قبله سوى فيلح بن على العوراء وسياط، كان إبراهيم الموصلى من أنصار الغناء القديم وكان دائم الصراع مع طرق الغناء الحديثة.

وقد بلغ عدد ألحان إبراهيم الموصلى تسعمائة صوت وقد صنفها إلى ثلاث

درجات الأولى نادرة المثال والثانية متوسطة الدرجة كسائر الألحان والثالثة لهو ولعب إلا أن ابنه إسحاق الموصلى حاول إبعاد نسبة الأصوات الأخيرة إلى والده حفظاً على مقامه الفنى مكتفياً بأن ينسب إليه تلحين ستمائة صوت فقط وقد كان الموصلى صاحب فن رفيع ينقل المستمع إليه إلى عالم من الصفاء الروحى والطرب. كان الخليفة هارون الرشيد يطرب لغنائه وقد عرف عن إبراهيم حبه لشرب الخمر وذكره ذلك فى شعره.

توفى فى بغداد سنة ١٨٨ هـ، ٨٠٤ م وقد صلى عليه المأمون.

وقد روى الأصبهانى فى الأغانى وغيره قصة الموصلى مع الشيطان فقال: أخبرنا محمد بن مزيد قال حدثنا حماد بن إسحاق عن أبيه عن جده إبراهيم قال سألت الرشيد أن يهب لى يوماً فى الجمعة لا يبعث فيه إلى بوجه ولا بسبب لأخلو فيه بجوارى وإخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال لى هو يوم أستثقله.

فأقمت يوم السبت بمنزلى وتقدمت فى إصلاح طعامى وشرابى بما احتجت إليه وأمرت بوابى فأغلق الأبواب وتقدمت إليه يأذن على لأحد فبينا أنا فى مجلسى والخدم قد حفوا بى وجوارى يترددن بين يدى إذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة لاطئة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار فداخلنى بدخوله على مع ما تقدمت فيه غيظ ما تداخلنى قط مثله وهممت بطرد بوابى ومن حجبنى لأجله فسلم على أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس.

ثم أخذ بى فى أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سلى ما بى من الغضب وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بإدخالهم مثله على لأدبه وظرفه فقلت هل لك فى الطعام فقال لا حاجة لى فيه فقلت هل لك فى الشراب فقال ذلك إليك فشربت رطلاً وسقيته مثله!!

فقال لى يا أبا إسحاق هل لك أن تغنى لنا شيئاً من صنعتك وما قد نفقت به عند الخاص والعالم.

فغاظنى قوله ثم سهلت على نفسى أمره فأخذت العود فحبسته ثم ضربت فغنيت فقال: أحسنت يا إبراهيم.

فازداد غيظى وقلت ما رضى بما فعله من دخوله على بغير إذن واقتراحه أن أغنيه حتى سمانى ولم يكننى[1] ولم يجمل مخاطبتى.

ثم قال: هل لك أن تزيدنا فتذممت فأخذت العود فغنيت فقال: أجدت يا أبا إسحاق فأتم حتى نكافئك ونغنيك!

فأخذت العود وتغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته إياه قياما تاما ما تحفظت مثله ولا قمت بغناء كما قمت به له بين يدى خليفة قط ولا غيره لقوله لى «أكافئك»، فطرب وقال: أحسنت يا سيدى ثم قال أتأذن لعبدك بالغناء فقلت شأنك واستضعفت عقله فى أن يغنينى بحضرتى بعد ما سمعه منى فأخذ العود وجسه وحبسه فوالله لخلته ينطق بلسان عربى لحسن ما سمعته من صوته ثم تغنى:

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... بها كبدا ليست بذات قروح

أباها على الناس لا يشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح

أئن من الشوق الذى فى جوانبى ... أنين غصيص بالشراب جريح

قال إبراهيم فوالله لقد ظننت الحيطان والأبواب وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن غنائه حتى خلت والله أنى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام ولا الجواب ولا الحركة لما خالط قلبى ثم غنى.

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة ... فإنى إلى أصواتكن حزين

فعدن فلما عدن كدن يمتننى ... وكدت بأسرارى لهن أبين

دعون بترداد الهدير كأنما ... سقين حميا أو بهن جنون

فلم تر عينى مثلهن حمائما ... بكين ولم تدمع لهن عيون

---

(١) لم يقل له يا أبا فلان.

لم أعرف فى هذه الأبيات لحنا ينسب إلى إبراهيم والذى عرفته لمحمد بن الحارث بن بسخنر خفيف رمل فكاد والله أعلم عقلى أن يذهب طربا وارتياحا لما سمعت ثم غنى:

ألا يا صَبَا نَجْدٍ متى هجت من نجد ... لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

أأن هتفت ورقاء فى رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند

بكيتَ كما يبكى الحزين صبابة ... وذبت من الحزن المبرح والجهد

وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن النأى يشفى من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذى عهد

ثم قال يا إبراهيم هذا الغناء الماخورى فخذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك فقلت أعده على فقال لست تحتاج قد أخذته وفرغت منه ثم غاب من بين يدى فارتعت وقمت إلى السيف فجردته وعدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة فقلت للجوارى أى شىء سمعتن عندى فقلن سمعنا أحسن غناء سمع قط فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا.

فسألت البواب عن الشيخ فقال لى أى شيخ هو والله ما دخل إليك اليوم أحد فرجعت لأتأمل أمرى فإذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق أنا إبليس وأنا كنت جليسك ونديمك اليوم فلا ترع.

فركبت إلى الرشيد وقلت لا أطرفه أبدا بطرفه مثل هذه فدخلت إليه فحدثته بالحديث فقال:

- ويحك تأمل هذه الأصوات هل أخذتها؟، فأخذت العود أمتحنها فإذا هى راسخة فى صدرى كأنها لم تزل.

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى.

فطرب الرشيد عليها وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشراب وأمر لى بصلة وحملان وقال الشيخ كان أعلم بما قال لك من أنك أخذتها وفرغت منها فليته أمتعنا بنفسه يوماً واحداً كما أمتعك.

وقد ذكر هذه القصة الأتليدى فى كتابه إعلام الناس بما وقع للبرامكة، تحت عنوان «إبراهيم الموصلى وإبليس»، فقال: وعن أبى إسماعيل إبراهيم الموصلى قال: استأذنت الرشيد أن يهب لى يوماً من الأيام للانفراد بجوارى وإخوانى، فأذن لى فى يوم السبت، فأتيت منزلى وأخذت فى إصلاح طعامى وشرابى وما احتجت إليه وأمرت البوابين بإغلاق الأبواب وألا يأذنوا لأحد بالدخول على.

■ ■ ■



ذات الخال
جارية إبراهيم الموصلى

مغنية كانت من أجمل النساء وأكملهن فقال فيها إبراهيم الشعر وغنى به فشهرها فبلغ الرشيد خبرها فاشتراها بسبعين ألف درهم.

ودعت ذات الخال الرشيد يوماً.

فوعدها أن يصير إليها وخرج يريدها فاعترضته جارية فسألته أن يدخل إليها فدخل وأقام عندها. فشق ذلك على ذات الخال. وقالت: والله لأطلبن له شيئاً أغيظه به فدعت بمقراط فقصت الخال الذى كان فى خدها. وبلغ ذلك الرشيد فشق عليه وبلغ منه.

فخرج من موضعه وقال للفضل ابن الربيع: انظر من بالباب من الشعراء؟

فقال: الساعة رأيت العباس بن الأحنف فقال: أدخله. فعرفه الرشيد الخبر وقال: اعمل فى هذا شيئاً على معنى رسمه له.

فقال:

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة ... وملت إلى من لا يغيره حال

فإن كان قطع الخال لما تعطفت ... على غيرها نفسى فقد ظلم الخال

فنهض الرشيد إلى ذات الخال مسرعاً مسترضياً لها وجعل هذين البيتين سبباً وأمر للعباس بألفى دينار وأمر إبراهيم الموصلى فغناه فى هذا الشعر.

وقال لها ذات يوم: أسألك عن شىء فإن صدقتنى وإلا صدقنى غيرك وكذبتك.

قالت له: بل أصدقك. قال: هل كان بينك وبين إبراهيم الموصلى شىء قط

وأنا أحلفه أن يصدقنى؟

فتلكأت ساعة ثم قالت: نعم مرة واحدة. فأبغضها.

وقال الرشيد يوماً فى مجلسه: أيكم لا يبالى أن يكون كشخانا حتى أهب له ذات الخال؟ فبكى حمويه الوصيف وقال: أنا.

فوهبها له.

وفيها يقول إبراهيم:

أتحسب ذات الخال راجية ربا ... وقد سلبت قلباً يهيم بها حبًّا

وما عذرها نفسى فداها ولم تدع ... على أعظمى لحماً ولم تبق لى لباً

ثم اشتاقها الرشيد يوماً بعد ما وهبها لحمويه.

فقال له: ويلك يا حمويه وهبنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك.

فقال: يا أمير المؤمنين. مر فيها بأمرك.

قال: نحن عندك غداً فأمض فاستعد لذلك واستأجر لها من بعض الجوهريين بدنة وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار فأخرجها إلى الرشيد وهو عليها.

فلما رآها أنكر وقال: ويلك يا حمويه من أين لك هذا وما وليتك عملاً تكسب فيه مثله ولا وصل إليك منى هذا القدر؟ فصدقه عن أمره.

فبعث الرشيد إلى أصحاب الجواهر فأحضرهم واشترى الجوهر منهم ووهبه لها ثم حلف ألا تسأله فى يومه ذلك حاجة إلا قضاها.

فسألته أن يولى حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين.

ففعل ذلك وكتب له عهده به وشرط على ولى العهد بعده أن يتمها له إن لم تتم فى حياته[1].

---

(١) المصدر: أعلام النساء، عمر رضا كحالة.

٤ ـ إسحاق الموصلى
ابن إبراهيم الموصلى

هو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن الموصلى التميمى بالولاء، الأرجانى الأصل المعروف بابن النديم الموصلى نادم الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق ولد عام ٧٦٧ م فى مدينة الرى.

سافر مع أبيه إلى بغداد وتلقى تعليمه على يد أساتذة أكفاء منهم هيثم بن بشير الكسائى تتلمذ على يد أحد تلامذة والده وهو منصور زلزل، فتعلم منه الضرب على العود وتعلم الغناء من عاتكة بنت شذا وتعلم التاريخ والأدب من الأصمعى، فاشتهر بالغناء والموسيقى حتى أصبح من أشهر وأمهر المغنين والموسيقيين فى العصر العباسى وبلغ أعظم منزلة عند ستة من الخلفاء حتى المتوكل.

تفرد بالغناء وصناعته، وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام؛ راوياً للشعر، حافظاً للأخبار وقد قام بتلحين أبيات شعر لا يجرؤ أحد من معاصريه على تلحينها مرة أخرى مع أن هذا كان مألوفاً فى ذلك العصر.

وقد كان إسحاق على معرفة بأصول الموسيقى وأسرارها ودقائقها ويستطيع أن يختار ألوان الألحان والإيقاعات التى يصوغها لتتناسب مع الشعر وقد قيل إنه أول من ضبط الأوزان التى تبنى عليها مقامات الموسيقى العربية وميز بينها تمييزاً لم يقدر عليها أحد من قبله.

وقد كان إسحاق الموصلى يسير على نهج والده فهو من مؤيدى المدرسة القديمة فى الغناء وكان فى صراع دائم مع طرق الغناء الحديثة.

قال عنه صاحب الأغانى: «كان الغناء أصغر علوم إسحاق وأدنى ما يوسم به، وإن كان الغالب عليه وعلى ما يحسنه هو الذى صحح أجناس الغناء».

وقال عنه المأمون: «لولا اشتهار إسحاق بالغناء لوليته القضاء، لما أعلم من عفته ونزاهته وأمانته».

وقال الواثق: «ما غنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه زيد لى فى ملكى».

ومن تلاميذه فى الغناء زرياب المغنى المشهور فى الأندلس(1).

وتوفى إسحاق الموصلى عن عام ٨٦٧ م.

ولعل من الغريب أن نجد إسحاق ـ وهو رجل الموسيقى والغناء ـ حريصاً على تحصيل علم الحديث أيضاً، قال الأصبهانى (الأغانى):

«وقد روى الحديث، ولقى أهله؛ مثل مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وهشيم بن بشير، وإبراهيم بن سعد، وأبى معاوية الضرير، وروح بن عبادة، وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز. وكان مع كراهته الغناء أضن خلق الله وأشدهم بخلاً به على كل أحد حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسباً إليه متعصباً له،

---

(1) زرياب هو أبو الحسن على بن نافع مولى المهدى الخليفة العباسى وزرياب ولقبه هو اسم طير أسود اللون عذب الصوت من الموصل وله إسهامات بارزة فى الموسيقى العربية والشرقية.

ولد زرياب فى الموصل ونشأ فى بغداد وكان تلميذاً لإسحاق الموصلى بصورة سرية إلى أن أتقن فى الغناء عليه ففى ذات يوم طلب الخليفة هارون الرشيد من إسحاق الموصلى أن يأتى معه بمغن جديد يجيد الغناء، فأحضر إسحاق زرياب فاستأذن من الخليفة بأن يغنى فأذن له.

يا أيها الملك الميمون طائره   هارون راح إليك الناس وابتكروا

إلى أن أكمل نوبته فطار الرشيد فرحا وتعجب منه كثيراً وطلب من أستاذه إسحاق أن يعتز به، إلا أن إسحاق داخله الحسد والحقد فهدد زرياب وخيره بالخروج من بغداد أو أن يقتاله، فرجح زرياب الخروج من بغداد فخرج وتوجه إلى الأندلس وكان الخليفة هناك آنذاك عبد الرحمن الثانى، فكتب زرياب إلى الخليفة يستئذنه بالدخول إلى بلاطه فرد عليه حسنا ورحب به، وبعد أن دخل بلاط الخليفة وأصبح من حاشيته غنى بحضرته وما أن سمعه الخليفة حتى شغف به وقربه إليه وأصبح نديمه ومن أقرب الناس إليه. وعندما اشتهر زرياب فى الأندلس وتمركز بها وقد لقب زرياب بالقرطبى إذ بدأ نشاطه فى مدينة قرطبة فأسس دار المدنيات للغناء وللموسيقى يضم أبناءه الثمانية وابنتيه إضافة إلى عدد آخر من المغنين وتعتبر هذه أول مدرسة أسست لتعليم علم الموسيقى والغناء وأساليبها وقواعدها.

توفى فى قرطبة سنة ٢٣٠ هـ الموافق ٨٤٥ م.

فضلاً عن غيرهم».

وروى إسحاق قائلاً:

«جئت يوماً إلى أبى معاوية الضرير ومعى مائة حديث، فوجدت حاجبه يومئذ رجلاً ضريراً؛ فقال لى: إن أبا معاوية قد ولانى اليوم حجبته لينفعنى.

فقلت: معى مائة حديث، وقد جعلت لك مائة درهم إذا قرأتها.

فدخل واستأذن لى فدخلت فلما عرفنى أبو معاوية دعاه، فقال له: أخطأت، وإنما جعلت لك مثل هذا من ضعفاء أصحاب الحديث، فأما أبو محمد (يقصد إسحاق) وأمثاله فلا.

ثم أقبل علىّ يرغبنى فى الإحسان إليه، ويذكر ضعفه وعنايته به. فقلت له: احتكم فى أمره. فقال: مائة دينار؛ فأمرت بإحضارها الغلام، وقرأت عليه ما أردت وانصرفت»[1].

وكان إسحاق يستخدم نفوذ كبار القوم عند العلماء، كى يسهلوا له تحصيل ما يرغب فيه من العلوم، ولا سيما علم الحديث، وقال فى هذا الشأن:

«صرت إلى سفيان بن عيينة لأسمع منه، فتعذر ذلك علىّ وصعب مرامه، فرأيته عند الفضل بن الربيع (من الوزراء)، فسألته أن يعرفه موضعى من عنايته ومكانى من الأدب والطلب، وأن يتقدم إليه بحديثى.

ففعل وأوصاه بى؛ فقال: إن أبا محمد من أهل العلم وحملته.

قال: فقلت: تفرض لى عليه ما يحدثنى به. فسأله فى ذلك ففرض لى خمسة عشر حديثاً فى كل مجلس؛ فصرت إليه، فحدثنى بما فرض لى.

فقلت له: أعزك الله، صحيح كما حدثتنى به؟ قال: نعم، وعقد بيده شيئاً، قلت: أفأرويه عنك؟ قال: نعم، وعقد بيده شيئاً آخر، ثم قال: هذه خمسة وأربعون حديثاً، وضحك إلى، وقال: قد سرنى ما رأيت من تقصيك فى الحديث، وتشددك فيه على نفسك، فصبر إلى متى شئت حتى أحدثك بما شئت»[2].

(١) انظر الأغانى والمنتظم لابن الجوزى. (٢) الأغانى ـ مصدر سابق.

وليس عجيباً، والحال هذه، أن يصبح إسحاق من كبار مثقفى عصره، خاصة فى مجالات الأدب وعلم الفقه، قال الأصبهانى (الأغانى):

«وموضعه من العلم، ومكانه من الأدب، ومحله من الرواية، وتقدمه فى الشعر، ومنزلته فى سائر المحاسن، أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف؛ وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به، وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه؛ فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء، ولم يكن له فى هذا نظير؛ فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقى، ولحب «وسع» للناس جميعاً طريقه فأوضحها، وسهل عليهم سبيله وأنارها فهو إمام أهل صناعته جميعاً، ورأسهم ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد به الموافق والمفارق.

وتقدم إسحاق فى ميادين الثقافة ـ وخاصة علم الفقه ـ تقدماً كبيراً، حتى أن المأمون ـ وهو الخليفة الواسع الثقافة، الخبير بفنون العلوم والآداب ـ أشاد به فى أكثر من مناسبة، وكان يرشحه لتولى منصب القضاء، بل كان يفضله على كثيرين من قضاة عصره، وهذا دليل على أن إسحاق لم يكن من البارزين فى مجال علم الفقه فقط، بل كان يمتاز بخصال حميدة.

أيضاً قال الأصبهانى ـ «الأغانى»:

وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس، وشهر به عندهم لوليته القضاء بحضرتى، فإنه أولى به، وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة.

وأكد الأصبهانى رأى المأمون فى إسحاق قائلاً[1]:

حدثنا ابن شبيب من جلساء المأمون عنه، أنه قال يوماً وإسحاق غائب عن مجلسه: لولا ما سبق عن ألسنة الناس، واشتهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء فما أعرف مثله ثقة وصدقاً وعفة وفقهاً، هذا مع تحصيل المأمون وعقله ومعرفته.

موهبة شعرية

أما فى مجال الشعر فكان إسحاق من الشعراء البلغاء، وقد شهد له الأصمعى

(١) الأغانى ـ مصدر سابق.

ـ وهو لغوى كبير ـ بذلك، وروى الأصبهانى «الأغانى» أن الأصمعى أنشد قول إسحاق يذكر ولاءه لخزيمة بن خازم:

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى

ودافع ضيمى خازم وابن خازم

عطست بأنف شامخ، وتناولت

يداى الثريا قاعداً غير قائم

قال: فجعل الأصمعى يعجب منهما ويستحسنهما، وكان بعد ذلك يذكرهما ويفضلهما.

ونقل الأصبهانى عن إسحاق أنه قال: أنشدت فى حضرة المعتصم:

قل لمن صد عاتباً ونأي عنك جانباً

قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعباً

فأعجبه، وقال لى: قد ـ والله ـ أحسنت! وأمر لى بألفى دينار.

ومن شعر إسحاق فى حضرة الخليفة هارون الرشيد:

وآمرة بالبخل قلت لها: اقصرى فذلك شيء ما إليه سبيل

أرى الناس خلان الكرام، ولا أرى بخيلاً له حتى الممات خليل

وإني رأيت البخل يزرى بأهله فأكرمت نفسى أن يقال بخيل

ومن خير حالات الفتى لو علمته إذا نال خيراً أن يكون ينيل

فعالى فعال المكثرين تجملا ومالى كما قد تعلمين قليل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال الرشيد: لا تخف إن شاء الله، ثم قال: لله در أبيات تأتينا بها، ما أشد

أصولها، وأحسن فصولها، وأقل فضولها، وأمر له بخمسين ألف درهم.

إن ثقافة إسحاق الموسوعية جعلته يستصغر على نفسه أن يكون مجرد مغن فى بلاط الخليفة، وأن يسمى «المغنى»، ولعله كان يرى أنه لا يقل معرفة بالأدب والفقه وعلم الكلام من كثيرين ممن لمعت أسماؤهم فى هذه الميادين، قال الأصفهانى «الأغانى»:

على أنه كان أكره الناس للغناء، وأشدهم بغضاً لأن يدعى إليه أو يسمى به. وكان يقول: لوددت أن أضرب، كلما أراد مريد منى أن أغنى، وكلما قال قائل: إسحاق الموصلى المغنى، عشر مقارع، لا أطيق أكثر من ذلك، وأعفى من الغناء، ولا ينسبنى من يذكرنى إليه.

وذكر الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد نقلاً عن شاعر اسمه محمد بن عطية العطوى أنه كان عند يحيى بن أكثم «كبير القضاة» فى مجلس له يجتمع الناس فيه، فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلى، فأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم فى الفقه، فأحسن وقاس واحتج، وتكلم فى الشعر واللغة، ففاق من حضر.

فأقبل على يحيى فقال: أعز الله القاضى، أفى شىء مما نظرت فيه وحكيته نقص أو مطعن؟ قال: لا.

قال: فما بالى أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأنسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه؟

قال: العطوى فالتفت إلى يحيى بن أكثم فقال: جوابه فى هذا عليك.

فقلت: نعم أعز الله القاضى، الجواب على ثم أقبلت على إسحاق، فقلت: يا أبا محمد، أنت كالفراء والأخفش فى النحو؟ قال: لا قلت أفأنت فى اللغة وعلم الشعر كالأصمعى وأبى عبيدة؟ قال: لا، قلت: أفأنت فى الأنساب كالكلبى وأبى اليقظان؟

قال: لا.

قلت: أفأنت فى الكلام كأبى الهذيل والنظام؟

قال: لا.

قلت: أفأنت فى الفقه كالقاضى؟

قال: لا.

قلت: أفأنت فى قول الشعر كأبى العتاهية وأبى نواس؟

قال: لا.

قلت فمن ههنا نسبت إلى ما نسبت إليه، لأنه لا نظير لك فيه ولا شبيه.

فضحك وقام فانصرف فقال لى يحيى بن أكثم: لقد وفيت الحجة حقها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وإنه لمن يقل فى الزمان نظيره.

ونقل الأصبهانى «الأغانى: ٥/٢٨٦» عن على بن المنجم قوله:

سأل إسحاق الموصلى المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين، فإذا أراده للغناء غناه. فأجابه إلى ذلك ثم سأله بعد حين أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء. فأذن له.

قال: فحدثنى محمد بن الحارث بن بسخنر أنه كان هو ومخارق وعلويه «مغنيان» جلوساً فى حجرة لهم ينتظرون جلوس المأمون وخروج الناس من عنده، إذ دخل يحيى بن أكثم وعليه سواده «لباس أسود كان شعار بنى العباس وأتباعهم» وطويلته «قلنسوة طويلة كانت للقضاة» ويده فى يد إسحاق يماشيه، حتى جلس معه بين يدى المأمون، فكاد علويه أن يجن، وقال: يا قوم، أسمعتم بأعجب من هذا؟ يدخل قاضى القضاة ويده فى يد مغن حتى يجلسا بين يدى الخليفة.

ثم مضت على ذلك مدة، فسأل إسحاق المأمون أن يأذن له فى لبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه فى المقصورة. قال: فضحك المأمون وقال: ولا كل ذا يا إسحاق وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم وأمر لها بها.

وهكذا كره إسحاق فى نفسه أن يكون مصنفاً مع المغنين والملحنين، وأن المأمون وحاشيته كانوا يقدرون له ذلك، وقد أراد إسحاق ذات مرة أن ينخلع من صنعة الغناء، ولعله كان بذلك يهيئ نفسه كى يتخلص من صفة «المغنى»، لكن المأمون لم يوافقه على ذلك، قال الأصبهانى: كان إسحاق قد أظهر التوبة وغير زيه، واحتجر «تغيب» من حضور دار السلطان. فبلغه أن المأمون وجد «غضب» عليه من ذلك وتنكر، فكتب إسحاق إليه، وغنى فيه بعد ذلك:

يا بن عم النبي، سمعاً وطاعاً قد خلعنا الرداء والدراعة

ورجعنا إلى الصناعة لما كان سخط الإمام ترك الصناعة

وقد ألف كتاباً فى فن الموسيقى والغناء سماه «الأغانى»، ذكره تلميذه عمرو بن بانة، وأشاد به، وأتى فى كتابه «على كل ما رسمته الأوائل مثل إقليدس ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى، ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور، من غير أن يقرأ لهم كتاباً أو يعرفه[1].

ولم تأت عبقرية إسحاق عبثاً، وإنما كانت نتيجة بحث ودراسة ومتابعة وتدريب مستمر، وقد سأله ذات يوم أحد كبار رجال البلاد سؤالاً موسيقياً صعباً، فأحرجه، فذهب إلى صديقه على بن يحيى المنجم، وقال له:

إن هذا الرجل سألنى عما سمعت، ولم يبلغ علمه أن يستنبط مثله بقريحته، وإنما هو شىء قرأه من كتب الأوائل، وقد بلغنى أن التراجمة عندهم يترجمون لهم كتب الموسيقى، فإذا خرج إليه منها شىء فأعطنيه[2].

ووعده صديقه على بذلك، وقال فى هذا الصدد «الأغانى»:

ومات قبل أن يخرج إليه شىء منها، وإنما ذكرت هذا بتمام أخباره كلها ومحاسنه وفضائله، لأنه من أعجب شىء يؤثر عنه أنه استخرج بطبعه علماً رسمته الأوائل لا يوصل إلى معرفته إلا بعد علم كتاب إقليدس الأول فى الهندسة، ثم

---

(١)، (٢) المصدر السابق.

أبعده من الكتب الموضوعة فى الموسيقى، ثم تعلم ذلك وتوصل إليه واستبطه بقريحته، فوافق ما رسمه أولئك، ولم يشد عنه شىء يحتاج إليه منه، وهو لم يقرأه ولا له مدخل إليه ولا عرفه، ثم تبين بعد هذا، بما أذكره من أخباره ومعجزاته فى صناعته، فضله على أهلها كلهم وتميزه عنهم، وكونه سماء هم أرضها، وبحراً هم جداوله.

بلى، بهذا الجد والاجتهاد وصل إسحاق إلى ما وصل إليه من مهارة موسيقية رفيعة، وقد قال ذات مرة:

دخلت على المأمون يوماً وعقيد «مغن» يغنيه ارتجالاً، وغيره يضرب عليه فقال: يا إسحاق، كيف تسمع مغنيا هذا؟ فقلت: هل سأل أمير المؤمنين عن هذا غيرى.

قال: نعم سألت عمى إبراهيم «ابن المهدى» فوصفه وقرظه «مدحه» واستحسنه، فقلت له: يا أمير المؤمنين ـ أدام الله سرورك، وأطاب عيشك ـ إن الناس قد أكثروا فى أمرى، حتى نسبتنى فرقة إلى التزيد فى علمى.

فقال لى: فلا يمنعك ذلك من قول الحق إذا لزمك.

فقلت لعقيد: أردد هذا الصوت الذى غنيته آنفاً وتحفظ فيه، وضرب ضاربه عليه.

فقلت لإبراهيم بن المهدى: كيف رأيته.

فقال: ما رأيت شيئاً يكره ولا سمعته. فأقبلت على عقيد، فقلت له حين استوفاه: فى أى طريقه هذا الصوت الذى غنيته.

قال: فى الرمل «لحن، فقلت للضارب: فى أى طرقة ضربت أنت؟

قال: فى الهزة الثقيل «لحن»، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما عسيت أن أقول فى صوت يغنى مغنيه رملاً ويضرب ضاربه هزجاً، وليس هو صحيحاً فى إيقاعه الذى ضرب عليه؟

قال إسحاق: وتفهمه إبراهيم بن المهدى بعدى فقال صدق يا أمير المؤمنين.

وأضاف إسحاق قائلاً: وجعل «المأمون» يتعجب من ذهاب ذلك على كل من حضر، وكناني في ذلك اليوم مرتين[1].

وبلغت عبقرية إسحاق الموسيقية أنه كان يشوش مواقع أوتار العود، ثم يضرب عليه اللحن المناسب لكل أغنية، دونما أدنى خلل، وكان هذا أمر يعجز عنه الآخرون، وقد فعل ذلك فى مجلس الخليفة الواثق بالله حينما تحداه مغن يدعى «ملاحظ».

وقال الأصبهانى «الأغانى»:

تناظر المغنون يوماً عند الواثق، فذكروا الضراب وحذقهم، فقدم إسحاق زلزال على ملاحظ، ولملاحظ فى ذلك الرياسة على جميعهم. فقال له «الإسحاق» الواثق: لئن مت لتموتن هذه الصناعة معك. وأمر له بثلاثين ألف درهم.

وقال إسحاق:

دعانى المأمون وعنده إبراهيم بن المهدى، وفى مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عشراً عن يمينه وعشراً عن يساره ومعهن العيدان يضربن بها، فلما دخلت سمعت من الناحية اليسرى خطأ فأنكرته فقال المأمون: يا إسحاق، أتسمع خطأ؟ فقلت: نعم ـ والله ـ يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم: هل تسمع خطأ؟ فقال: لا فأعاد على السؤال فقلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وإنه لفى الجانب الأيسر.

فأعاد إبراهيم سمعه إلى الناحية اليسرى، ثم قال: لا ـ والله ـ يا أمير المؤمنين، ما فى هذه الناحية خطأ.

فقلت يا أمير المؤمنين، مر الجوارى اللواتى على اليمين يمسكن.

فأمر هن فأمسكن فقلت لإبراهيم: هل تسمع خطأ؟ فتسمع ثم قال: ما ههنا خطأ.

فقلت: يا أمير المؤمنين، يمسكن وتضرب الثامنة. فأمسكن وضربت الثامنة، فعرف إبراهيم الخطأ، فطرب أمير المؤمنين المأمون، وقال: لله درك يا أبا محمد فكنانى يومئذ.

(١) أي قال له يا أبا فلان وهذا نوع من الاحترام عند العرب.

ولم يكن إسحاق رخيم الصوت عذبه ومع ذلك كان يعرف كيف يؤدى الغناء بشكل رائع، لذلك كان أقرانه ومنافسوه فى مجال فن الموسيقى والغناء، يحسبون له ألف حساب، وقد قال أحد معاصريه:

قلت لزرزور الكبير: كيف كان إسحاق ينفق على الخلفاء «تروج بضاعته» معكم، وأنت وإبراهيم بن المهدى ومخارق أطيب أصواتاً وأحسن نغمة؟ قال: كنا والله يا بنى نحضر معه، فنجتهد فى الغناء، ونقيم الوهج «نقدم ما هو رائع» فيه، ويقبل علينا الخلفاء، حتى نطمع فيه، ونظن أنا قد غلبناه، فإذا غنى عمل فى غنائه أشياء من مداراته وجدفه ولطفه، حتى يسقطنا كلنا، ويقبل عليه الخليفة دوننا، ويجيزه دوننا، ويصغى إليه، ونرى أنفسنا اضطراراً دونه[1].

وروى الأصفهانى «الأغانى» كان المغنون إذا حضروا وليس إسحاق معهم غنوا هوينى، وهم غير مفكرين، فإذا حضر إسحاق لم يكن إلا الجد، وكان إسحاق حريصاً على تجويد إنتاجه الفنى، وإتقان آدائه الموسيقى، ولم يكن ممن يركض خلف المظاهر، ويهمل الجوهر.

وقد قال أحد معاصريه لحماد بن إسحاق.

قلت لأبيك إسحاق: يا أبا محمد، كم يكون غناؤك؟ قال نحواً من أربعمائة صوت «لحن أغنية».

قال: وقال له رجل بحضرتى ما لك لا تكثر الصنعة كما يكثر الناس؟! قال: لأنى إنما أنقر فى صخرة.

وقد شهد الخلفاء لإسحاق بعلو شأنه فى فن الغناء، فقال الواثق «الخليفة» ما غنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى، ولا سمعته يغنى غناء ابن سريج «مغنى شهير قديم» إلا ظننت أن ابن سريج قد نُشر، وأنه ليحضرنى غيره إذا لم يكن حاضراً فيتقدمه عندى وفى نفسى بطيب الصوت، حتى إذا اجتمعا عندى رأيت إسحاق يعلو، ورأيت من ظننته يتقدمه ينقص وإن إسحاق لنعمة من نعم الملك التى لم يحظ بمثلها، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى

---

(١) المصدر السابق.

لاشتريتهن له بشطر «نصف» ملكى[1].

وإن المرتبة التى بلغها إسحاق عند الخلفاء وكبار رجال البلاط كانت تثير الحسد فى نفوس أقرانه من أرباب الفن، ومنهم مخارق وعلويه، وقد وجدا إسحاق يدخل ذات يوم إلى مجلس الخليفة الواثق بصحبة القاضى أحمد بن أبى داود، وفى زى مثل زيه، فقامت على علويه القيامة وقال: يا هؤلاء خيناكر «كلمة أعجمية تعنى: المغنى المضحك» يدخل إلى الخليفة مع قاضى القضاة! أسمعتم بأعجب من هذا البخت قط.

فقال له مخارق: دع هذا عنك، فقد. والله بلغ ما أراد. ولم نلبث أن خرج ابن أبى داود ودعا بنا فدخلنا، فإذا إسحاق جالس فى صف الندماء لا يخرج منه، فإذا أمره الواثق أن يغنى خرج عن صفهم قليلاً، وأتى بعود، فغنى الصوت الذى يأمره به فإذا فرغ من القدح قطع الصوت الذى يأمره به حيث بلغ ولم يتمه، ورجع إلى صف الجلساء.

وكان بعض كبار المغنين يكيدون لإسحاق عند الخلفاء، وقد فعل مخارق ذلك عند الواثق لكن إسحاق كان يخرج من المعركة منتصراً فى النهاية، لسبب واحد؛ هو أنه كان واثقاً على الدوام مما يقول، ولم يكن ينطق فى مجال الموسيقى والغناء إلا بما هو منطقى ومؤكد[2].

وإضافة إلى العبقرية الفنية والثقافة الموسوعية، كان إسحاق يمتاز بالذكاء وسرعة البديهة، وروى الأصبهانى عن إسحاق (الأغانى) فى هذا الصدد قوله:

«ذكر المعتصم يوماً بعض أصحابه وقد غاب عنه، فقال: تعالوا حتى نقول ما يصنع فى هذا الوقت. فقال قوم: يلعب بالنرد (طاولة الزهر)، وقال قوم: يغنى فبلغتنى النوبة. فقال: قل يا إسحاق. قلت إذا أقول وأصيب!؟ قال: أتعلم الغيب؟ قلت لا، ولكنى أفهم ما يصنع وأقدر على معرفته. قال: فإن لم نصب قلت: فإن أصبت؟ قال: لك حكمك، وإن لم تصب!؟ قلت: لك دمى. قال: وجب، قلت: وجب قال: فقل. قلت: يتنفس. قال: فإن كان ميتاً؟ قلت: تحفظ الساعة التى تكلمت

(١)، (٢) المصدر السابق.

فيها، فإن كان مات فيها أو قبلها فقد قمرتنى «غلبتنى»، فقال: قد أنصفت. قلت: فالحكم قال: احتكم ما شئت. قلت: ما حكمى إلا رضاك يا أمير المؤمنين.

وخلاصة ما يستنتجه الباحث فى سيرة إسحاق الموصلى أنه كان فناناً عبقرياً بحق، جمع بين الموهبة الموسيقية والثقافة الموسوعية، وامتاز بالإحساس المرهف، والخلق الرفيع، والمعرفة الواسعة، والذكاء الوقاد، وشهد له معاصروه ومن جاء بعده من المؤرخين بكل ذلك وأكثر، قال الحافظ الذهبى فى «تاريخ الإسلام»: كان إليه المنتهى فى معرفة الموسيقى، وله أدب وافر، وشعر رائق جزل، وكان عالماً بالأخبار وأيام الناس، وغير ذلك من الفقه الحديث واللغة، وفنون العلم.

ونقل الذهبى «تاريخ الإسلام، عن الخطيب البغدادى قوله فى وصف إسحاق: «كان حلو النادرة، حسن المعرفة، جيد الشعر، مذكوراً بالسخاء، له كتاب ـ الأغانى ـ الذى رواه عنه ابنه حماد».

وجاء فى تاريخ بغداد قال محمد بن يحيى: سمعت إبراهيم بن إسحاق الحربى يقول: كان إسحاق الموصلى ثقة صدوقاً عالماً.

وبعد حياة ملأى بالجد والاجتهاد، حافلة بالعطاء الفنى، توفى إسحاق ببغداد فى أول خلافة المتوكل، سنة «٢٣٥ هـ/ ٨٥٠م» وله من العمر ثمانون عاماً.

■ ■ ■

٥ـ إبراهيم بن محمد المهدى
الأمير المغنى أخو الرشيد
« ١٦٢ هـ ـ ٢٢٤ هـ »

إنه إبراهيم بن المهدى الأمير الكبير أبو إسحاق الملقب بالمبارك إبراهيم ابن أمير المؤمنين محمد ابن أبى جعفر الهاشمى العباسى الأسود كان فصيحاً بليغاً عالماً أديباً شاعراً رأساً فى فن الموسيقى، ويقال له ابن شكلة وهى أمه.

قال على بن المغيرة الأثرم حدثنا إبراهيم أنه ولى إمارة دمشق أعواماً لم يقطع فيها على أحد طريقاً وحدثت أن الآفة فى قطع الطريق من دعامة ونعمان ويحيى بن أرميا اليهودى البلقاوى وأنهم لم يضعوا يدهم فى يد عامل فكاتبتهم فتاب دعامة وحلف النعمان بالأيمان أنه لا يؤذى مهما وليت.

وطلب ابن أرميا أمانا ليأتى ويناظر فأجبته فقدم شاب أشعر أمعر فى أقبية ديباج ومنطقة وسيف محلى فدخل على الخضراء فسلم دون البساط فقلت اصعد.

قال: إن للبساط ذماماً أخاف أن يلزمنى جلوسى عليه وما أدرى ما تسومنى قلت أسلم وأطع قال أما الطاعة فأرجو ولا سبيل إلى الإسلام فما عندك إن لم أسلم.

قلت: لابد من جزية.

قال: أعفنى.

قلت: كلا.

قال: فأنا منصرف على أمانى.

فأذنت له وأمرتهم أن يسقوا فرسه فلما رأى ذلك دعا بداية غلامه وترك فرسه وقال لن آخذ شيئاً ارتفق منكم فأحاربكم عليه فاستحييت وطلبته.

فلما دخل قلت الحمد لله ظفرت بك بلا عهد.

قال: وكيف.

قلت: لأنك انصرفت من عندى وقد عادت.

قال: شرطك أن تصرفنى إلى مأمنى فإن كان دارك مأمنى فلست بخائف وإن كان مأمنى أرضى فردنى.

فجهدت به أن يؤدى جزية على أن أهبه فى السنة ألفى دينار فأبى وذهب فأسعر الدنيا شراً وحمل مال من مصر فتعرض له فكتب النعمان إلى فأمرته بمحاربته فسار النعمان ووافاه اليهودى فى جماعته فسأله النعمان الانصراف فأبى وقال بارزنى وإن شئت برزت وحدى إليك وإلى جندك.

فقال النعمان يا يحيى ويحك أنت حدث قد بليت بالعجب ولو كنت من أنفس قريش لما أمكنك معارة السلطان وهذا الأمير هو أخو الخليفة وأنا وإن افترقنا فى الدين أحب ألا يقتل على يدى فارس فإن كنت تحب السلامة فأبرز إلى ولا يبتلى بنا غيرنا.

فبرز له العصر فما زالا فى مبارزة إلى الليل فوقف كل منهما على فرسه متكئاً على رمحه فنعس النعمان فطعنه اليهودى فيقع سنان رمحه فى المنطقة فدارت وصار السنان يدور معها فاعتنقه النعمان وقال أغدرا يا ابن اليهودية.

فقال: ـ أو محارب ينام يا ابن الأمة.

فاتكأ عليه النعمان فسقط فوقه.

وكان النعمان ضخماً فصار فوقه فذبح اليهودى وبعث إلىَّ برأسه فاطمأنت البلاد ثم ولى بعدى عمى سليمان فانتهبه أهل دمشق وسبوا حرمه.

قال الخطيب بويع إبراهيم بالخلافة زمن المأمون فحارب الحسن بن سهل فهزمه إبراهيم ثم أقبل لحربه حميد الطوسى فهزم جمع إبراهيم واختفى إبراهيم زماناً إلى أن ظفر به المأمون فعفا عنه وفيه يقول دعبل:

نفر ابن شكلة بالعراق وأهلها   وهفا إليه كل أطلس مائق

إن كان إبراهيم مضطلعا بها   فلتصلحن من بعده لمخارق

وقد بايعوه ببغداد ولقب بالمبارك وقيل المرضى فى أول سنة اثنتين ومئتين فغلب على الكوفة وبغداد والسواد فلما أشرف المأمون على العراق ضعف إبراهيم قال وركب إبراهيم بأبهة الخلافة إلى المصلى يوم النحر فصلى بالناس وهو ينظر إلى عسكر المأمون وأطعم الناس بالقصر ثم استتر.

قال وظفر المأمون به سنة عشر ومئتين فعفا عنه وبقى عزيزاً قال أبو ملحم قال إبراهيم بن المهدى حين أدخل على المأمون ذنبى أعظم من عذر وعفوك أعظم من أن يتعاظمه ذنب.

وقيل إنه لما اعتذر وكان ذلك بعد توثبه بثمانى سنين عفا عنه وقال: ههنا يا عم ههنا يا عم.

قال إبراهيم الحربى نودى فى سنة ثمانى وممئتين أن أمير المؤمنين قد عفا عن عمه إبراهيم.

وكان إبراهيم حسن الوجه حسن الغناء حسن المجلس، وعن منصور بن المهدى قال كان أخى إبراهيم إذا تنحنح طرب من يسمعه فإذا غنى أصغت الوحوش حتى تضع رؤوسها فى حجره فإذا سكت هربت وكان إذا غنى لم يبق أحد إلا ذهل.

وقال ابن الفضل بن الربيع ما اجتمع أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته علية قال ثمامة بن أشرس قال لى المأمون قد عزمت على تقريع عمى فحضرت فجىء بإبراهيم مغلولاً قد تهدل شعره على عيينة فسلم.

فقال المأمون لا سلم الله عليك أكفراً بالنعمة وخروجاً على.

فقال يا أمير المؤمنين إن القدرة تذهب الحفيظة ومن مد له فى الاغترار هجمت به الأناة على التلف وقد رفعك الله فوق كل ذنب كما وضع كل ذى ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك.

قال: إن هذين «يعنى ابنه العباس والمعتصم» يشيران بقتلك.

قال: أشارا عليك بما يشار به على مثلك فى مثلى والملك عقيم ولكن تأبى لك أن تستجلب نصراً إلا من حديث عودك الله وأنا عمك والعم صنو الأب.

وبكى فتغرغرت عينا المأمون وقال: خلوا عن عمى ثم أحضره ونادمه وما زال به حتى ضرب له بالعود.

وقيل إن أحمد بن خالد الوزير قال: يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء وإن عفوت لم يكن لك نظير[1].

وجاء فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان:

وإبراهيم المهدى هو أشهر أولاد الخلفاء ذكراً فى الغناء وأتقنهم صنعة، ومن أعلم الناس فى ذاك الوقت بالنغم والإيقاع، من المعدودين فى طيب الصوت خاصة، ولكنه كان إذا غنى الغناء القديم عن الأوائل فى الأدوار الطوال حذف كثيرًا من نغمها وخففها، وقد عيب عليه ذلك.

له مع إسحاق الموصلى مجادلات كثيرة فى أصول النغم والإيقاع لم تكن لتقطع حتى أفنيا العمر فى تنازعهما.

كانت له اليد الطولى فى الغناء والضرب بالملاهى وحسن المنادمة وكان أسود اللون لأن أمه كانت جارية سوداء واسمها شكلة بفتح الشين المعجمة وكسرها وسكون الكاف وبعد اللام هاء وكان مع سواده عظيم الجثة ولهذا قيل له التتين وكان وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخى الكف ولم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لساناً ولا أحسن منه شعراً وأقام خليفة مقدار سنتين من بغداد حين خلع أهلها المأمون.

وذكر الطبرى فى تاريخه أن أيام إبراهيم بن المهدى كانت سنة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً وكان سبب خلع المأمون وبيعه إبراهيم بن المهدى أن المأمون لما كان بخراسان جعل ولى عهده على بن موسى الرضا فشق ذلك على العباسيين

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى.

ببغداد خوفاً من انتقال الأمر عنهم إلى العلويين فبايعوا إبراهيم بن المهدى المذكور وهو عم المأمون ولقبوه المبارك وقبل سموه المرضى وكانت مبايعته يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذى الحجة سنة إحدى ومائتين ببغداد.

بايعه العباسيون فى الباطن ثم بايعه أهل بغداد فى أول يوم من المحرم سنة اثنتين ومائتين وخلعوا المأمون فلما كان يوم الجمعة خلون من المحرم اظهروا ذلك وصعد إبراهيم المنبر وكان المأمون لما بايع على بن موسى الرضا بولاية العهد أمر الناس بترك لباس السواد الذى هو شعار بنى العباس وأمرهم بلباس الخضرة فعز ذلك على بنى العباس أيضاً وكان من جملة الأسباب التى نقموها على المأمون.

ثم أعاد لبس السواد يوم الخميس لليلة بقيت من ذى القعدة سنة سبع ومائتين لسبب اقتضى ذلك ذكره الطبرى فى تاريخه فلما توجه المأمون من خراسان إلى بغداد خاف إبراهيم على نفسه فاستخفى وكان استخفاؤه ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث ومائتين.

ثم دخل المأمون بغداد يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين ولما استخفى إبراهيم عمل فيه دعبل الخزاعى:

ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل	فهفا إليه كل أطلس مائق
إن كان إبراهيم مضطلعاً بها	فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل	ولتصلحن من بعده للمارق
أني يكون وليس ذاك بكائن	يرث الخلافة فاسق عن فاسق

ومخارق بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وزلزل بضم الزاءين المعجمتين والمارق هؤلاء الثلاثة كانوا مغنين فى ذلك العصر.

وقال إبراهيم قال لى المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عنى أنت الخليفة الأسود فقلت يا أمير المؤمنين أنا الذى مننت عليه بالعفو وقد قال عبد بنى الحسحاس:

أشعاد عبد بني الحسحاس قمن له   عند الفخار مقام الأصل والورق

إن كنت عبداً فنفس حرة كرما   أو أسود الخلق إني أبيض الخلق

فقال لى يا عم أخرجك الهذل إلى الجد وأنشد يقول:

ليس يزري السواد بالرجل الشهم   ولا بالفتي الأديب الأريب

إن يكون للسواد فيك نصيب   فبياض الأخلاف منك نصيبى

وجلس المعتصم يوماً وقد تولى الخلافة بعد المأمون وعن يمينه العباس بن المأمون وعن يساره إبراهيم بن المهدى فجعل إبراهيم يقلب خاتماً فى يده فقال له العباس: يا عم ما هذا الخاتم فقال خاتم رهنته فى أيام أبيك فما فككته إلا فى أيام أمير المؤمنين.

فقال له العباس والله لئن لم تشكر أبى على حقن دمك مع عظيم جرمك لا تشكر أمير المؤمنين على فك خاتمك.

فأفحمه وكانت ولادته غرة ذى القعدة سنة اثنتين وستين ومائة وتوفى يوم الجمعة لتسع خلون من شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائتين بسر من رأى وصلى عليه بن أخيه المعتصم رحمه الله تعالى[1].

■ ■ ■

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان.

٦ ـ القاضى أبو يوسف
«قاضى القضاة»

واسمه يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد ابن حسنة وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبى حنيفة.

ولد أبو يوسف سنة ١١٣ هـ روى الحديث عن: الأعمش، وهمام بن عروة، ومحمد بن إسحاق، ويحيى بن سعيد، وغيرهم.

وعنه: محمد بن الحسن أحد أصحاب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل الإمام ويحيى بن معين.

قال على بن الجعد: سمعته يقول: توفى أبى وأنا صغير فأسلمتنى أمى إلى قصار، فكنت أمر على حلقة أبى حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمى تتبعنى فتأخذ بيدى من الحلقة وتذهب بى إلى القصار، ثم كنت أخالفها فى ذلك واذهب إلى أبى حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبى حنيفة: إن هذا صبى يتيم ليس له شىء إلا ما أطعمه من مغزلى، وإنك قد أفسدته علىَّ.

فقال لها: اسكتى يا رعناء، ها هو ذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق فى صحون الفيروزج.

فقالت له: إنك شيخ قد خرفت.

قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء.. وكان أول من ولاه القضاء الهادى، وهو أول من لقب قاضى القضاة، وكان يقال له: قاضى قضاة الدنيا، لأنه كان يستتيب فى سائر الأقاليم التى يحكم فيها الخليفة.

قال أبو يوسف: فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتى بفالوذج فى صحن فيروزج فقال لى: كل من هذا، فإنه لا يصنع لنا فى كل وقت.

وقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟

فقال: هذا الفالوذج.

قال: فتبسمت، فقال: مالك تتبسم؟

فقلت: لا شىء أبقى الله أمير المؤمنين.

فقال: لتخبرنى.

فقصصت عليه القصة فقال: إن العلم ينفع ويرفع فى الدنيا والآخرة.

ثم قال: رحم الله أبا حنيفة، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه.

وكان أبو حنيفة يقول عن أبى يوسف: إنه أعلم أصحابه.

وقال المزنى: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث.

وقال ابن المدينى: كان صدوقاً.

وقال ابن معين: كان ثقة.

وقال أبو زرعة: كان سليماً من التجهم.

وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال: القرآن مخلوق، فحرام كلامه، وفرض مباينته، ولا يجوز السلام ولا رده عليه[1].

ومن كلامه قوله: من طلب المال بالكيميا، أفلس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق.

ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد فى مسألة الصاع وزكاة الخضراوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم، وبأن لم يكن الخضراوات يخرج فيها شىء فى زمن الخلفاء الراشدين.

فقال أبو يوسف: لو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت.

وقد كان يحضر فى مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم، حتى إن أحمد بن

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

حنبل كان شاباً وكان يحضر مجلسه فى أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون، وهو مع ذلك يحكم ويصنف أيضاً.

وقال: وليت هذا الحكم وأرجو الله ألا يسألنى عن جور ولا ميل إلى أحد، إلا يوماً واحداً جاءنى رجل فذكر أن له بستاناً وأنه فى يد أمير المؤمنين، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لى اشتراه لى المهدى.

فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه.

فأحضره فادعى بالبستان فقلت: ما تقول يا أمير المؤمنين؟

فقال: هو بستانى.

فقلت للرجل: قد سمعت ما أجاب.

فقال الرجل: يحلف.

فقلت: أتحلف يا أمير المؤمنين؟

فقال: لا.

فقلت: سأعرض عليك اليمين ثلاثاً فإن حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين.

فعرضتها عليه ثلاثاً فامتنع فحكمت بالبستان للمدعى.

قال: فكنت فى أثناء الخصومة أود أن ينفصل ولم يمكنى أن أجلس الرجل مع الخليفة.

وبعث القاضى أبو يوسف فى تسليم البستان إلى الرجل.

وروى المعافى بن زكريا الجريرى، عن محمد بن أبى الأزهر، عن حماد بن أبى اسحاق، عن أبيه، عن بشر بن الوليد، عن أبى يوسف، قال: بينا أنا ذات ليلة قد نمت فى الفراش، إذا رسول الخليفة يطرق الباب، فخرجت منزعجاً فقال: أمير المؤمنين يدعوك.

فذهبت فإذا هو جالس ومعه عيسى بن جعفر، فقال لى الرشيد: إن هذا قد طلبت منه جارية يهبنيها فلم يفعل، أو يبعنيها، وإنى أشهدك إن لم يجبنى إلى ذلك قتلته.

فقلت لعيسى: لم لم تفعل؟

فقال: إنى حالف بالطلاق والعتاق وصدقة مالى كله ألا أبيعها ولا أهبها.

فقال لى الرشيد: فهل له من مخلص؟

فقلت: نعم، يبيعك نصفها ويهبك نصفها.

فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار.

فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية، فلما رآها الرشيد قال: هل لى من سبيل عليها الليلة؟

قلت: إنها مملوكة ولا بد من استبرائها، إلا أن تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ.

قال: فأعتقها وتزوجها منه بعشرين ألف دينار، وأمر لى بمائتى ألف درهم وعشرين تختا من ثياب، وأرسلت إلى الجارية بعشرة آلاف دينار.

قال يحيى بن معين: كنت عند أبى يوسف فجاءته هدية من ثياب ديبقى وطيب وفانيل ندٍّ وغير ذلك، فذاكرنى رجل فى إسناد حديث: (من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه).

فقال أبو يوسف: إنما ذاك فى الأقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا فى ذلك الوقت ما ترون، يا غلام ارفع هذا إلى الخزائن، ولم يعطهم منها شيئاً.

وقال بشر بن غياث المريسى: سمعت أبا يوسف، يقول: صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت علىَّ الدنيا سبع عشرة سنة، وما أظن أجلى إلا أن اقترب؟

فما مكث بعد ذلك إلا شهوراً حتى مات.

توفى عام ١٨٣ هـ عن سبع وستين سنة، ومكث فى القضاء بعده ولده يوسف.

وله كتاب ألفه للرشيد عن «الخراج»، وقد تولى ابنه يوسف قضاء الجانب الشرقى ببغداد فى حياة أبيه وتولى قضاء بغداد بعده[1].

(١) توفى يوسف بن أبى يوسف القاضى عام ١٩٢ هـ فى خلافة الرشيد.

ومن طرائف ونوادر الرشيد مع أبو يوسف أن الرشيد اختلف ذات يوم مع زوجته زبيدة فى طعام حلو أيهما أطيب، حيث قالت زبيدة أن الفالوذج أطيب من اللوزينج وتخاطرا(١) على مئة دينار.

فأحضرا أبا يوسف القاضى، وقالا له: يا يعقوب قد اختلفنا فى كذا على كذا وكذا فاحكم فيه، فقال: يا أمير المؤمنين ما يُحكم على غائب وهو مذهب أبى حنيفة، فأحضر له جامين من المذكورين، فطفق يأكل من هذا مرة، ومن هذا مرة، وتحقق أنه إن حكم للرشيد لم يأمن غضب زبيدة، وإن حكم لها لم يأمن غضب الرشيد، فلم يزل فى الأكل إلى أن نصّف الجامين.

فقال له الرشيد: إيه أبا يوسف.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت خصمين أجدل منهما، كلما أردت أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجته، وقد حرِتُ بينهما.

فضحك الرشيد، وأعطاه المئة دينار، وانصرف مشكوراً(٢).

■ ■ ■

---

(١) أى نزاهنا.

(٢) انظر وفيات الأعيان ـ مصدر سابق.

٧ـ حاجب الرشيد ووزيره

الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة كيسان مولى عثمان بن عفان، كان الفضل هذا متمكناً من الرشيد، وكان زوال دولة البرامكة على يديه، وقد وزر مرة للرشيد، وكان شديد التشبه بالبرامكة، وكانوا يشتبهون به، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكوا وكان أبوه الفضل وزيراً للخليفة المنصور.

وذكر ابن خلكان أن الفضل دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر يوقع بين يديه، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة، فجمعهن الفضل بن الربيع وقال: ارجعن خائبات خاسئات.

ثم نهض وهو يقول:

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه ... بتصريف حال والزمان عثور

فتقضى لبانات وتشفى حزائز ... وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له: أقسمت عليك لما رجعت، فأخذ منه القصص فوقع عليها.

ثم لم يزل يحفر خلفهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم، وفى ذلك يقول أبو نواس:

ما رعى الدهر آل برمك لما ... أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إن دهراً لم يرع ذمة ليحيى ... غير راع ذمام آل الربيع

تولى أمر الوزارة بعد نكبة البرامكة.

قام بخلافة الأمين بن الرشيد وساق إليه خزائن الرشيد وسلم إليه البرد والقضيب والخاتم، جاءه بذلك من طوس، وصار هو الكل فى عصر الأمين لاشتغال

الأمين باللعب، فلما أدبرت دولته وانتصر المأمون اختفى مدة طويلة ثم إن المأمون أرسل له كتاب أمانٍ فجاء فدخل على المأمون فأمنه ولم يزل خاملاً حتى مات وله ثمان وستون سنة.

يقول الفضل بن الربيع: حجَّ أمير المؤمنين هارون الرشيد فقال لى: ويحك، قد حكَّ فى نفسى شىء، فانظر لى رجلاً أسأله، فقلت: ههنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت بابه، فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلى أتيتك، فقال هارون: خذ لما جئتك له، فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين، قال: نعم، فقال لى: اقض دينه.

يقول الفضل بن الربيع فلما خرجنا قال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً، انظر لى رجلاً أسأله، قلت: ههنا الفضيل بن عياض، قال: امض بنا إليه، فأتيناه، فإذا هو قائم يصلى، يتلو آية يرددها، فقال: اقرع الباب، فقرعت، فقال الفضيل:

من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، قال: مالى ولأمير المؤمنين؟ قلت: سبحان الله، أما عليك طاعة، فنزل، ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية.

يقول الفضل بن الربيع: فدخلنا، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلى إليه، فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله.

فقلت فى نفسى: ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قبل تقى، فقال هارون: خذ لما جئناك له، رحمك الله.

فقال الفضيل بن عياض: إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إنى قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علىَّ، فعد الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم: إن أردت النجاة، فصم الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له ابن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرهم ولداً، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء: إن أردت النجاة من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت. وإنى أقول لك هذا، وإنى أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام، فهل معك (رحمك الله) من يشير عليك بمثل هذا.

فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً حتى غشى عليه، فقلت ـ أى الفضل بن الربيع ـ له: ارفق بأمير المؤمنين، فقال الفضيل: يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ ثم أفاق هارون، فقال للفضيل: زدنى رحمك الله.

فقال الفضيل بن عياض: بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر: يا أخى أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال عمر: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبى بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله، فبكى هارون بكاءً شديداً.

ثم قال الفضيل: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم النبى ﷺ جاء إليه، فقال: أمرنى، فقال له: «إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل» فبكى هارون، وقال: زدنى[1].

فقال الفضيل بن عياض: يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار، فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبى ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة»[2].

فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ فقال الفضيل: إن ربى لم يأمرنى بهذا، أمرنى أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا معضلاً، ورواه البيهقى متصلاً ومرسلاً.

(٢) متفق عليه.

قال هارون: هذه ألف دينار خذها، فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادة ربك، فقال الفضيل: سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا، سلمك الله ووفقك.

قال الفضل بن الربيع: ثم صمت الفضيل فلم يكلمنا، فخرجنا، فقال هارون: أبا عباس، إذا دللتنى فدلنى على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلت على الفضيل بن عياض امرأة من نسائه فقالت: قد ترى ما نحن فيه من الضيق، فلو قبلت هذا المال.

قال: إنما مثلى ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل، خرج فجلس فى السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه.

يقول الفضل بن الربيع: فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هذا، قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف، فانصرفنا.

■ ■ ■

٨ ـ الليث بن سعد
فقيه مصر

الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى مولاهم، الإمام الفقيه الحافظ الحجة، شيخ الإسلام فى مصر، ولد فى قرية قلقشندة من أعمال محافظة القليوبية بدلتا مصر سنة ٩٤ هـ.

تلقى الليث العلم عن كبار شيوخه فى مصر، مثل يزيد بن أبى حبيب وجعفر بن ربيعة وغيرهما من المصريين، ومن غير المصريين أمثال نافع المدنى، وعطاء بن أبى رباح وابن شهاب الزهرى وسعيد المقبرى وابن أبى مليكة وأبو الزبير المكى وعقيل ويحيى بن سعيد وغيرهم.

روى عن أبى بكير، حدثنى الليث: سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهرى وأنا ابن عشرين سنة.

من أشهر الفقهاء فى زمانه فاق فى علمه وفقهه إمام المدينة الإمام مالك غير أن تلامذته لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره فى الآفاق مثلما فعل تلامذة الإمام مالك، وكان الإمام الشافعى يقول: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به إنه الإمام الليث بن سعد ابن عبد الرحمن الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية.

ولد بقلقشندة وهى قرية من أسفل أعمال مصر فى سنة أربع وتسعين للهجرة.

قال الحافظ أبو نعيم: (كان الليث فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم، بحيث إن متولى مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره ويرجعون إلى رأيه ومشورته، وقد أراده المنصور أن ينوب عنه على الإقليم فاستعفى من ذلك).

تلقى الليث العلم على عدد من كبار علماء عصره، فسمع من عطاء بن أبى رباح وابن أبى مُلَيْكة ونافعا العمرى وسعيد بن أبى سعيد المقبُرى وابن شهاب الزهرى وأبى الزبير المكى وغيرهم كثير.

وفى عدة روايات يصف الليث رحلاته فى طلب العلم: قال ابن بكير سمعت الليث يقول سمعت بمكة سنة ثلاث عشرة ومائة من الزهرى وأنا ابن عشرين سنة.

قال يحيى بن بكير أخبرنى من سمع الليث يقول كتبت من علم ابن شهاب علماً كثيراً وطلبت ركوب البريد إليه إلى الرصافة فخفت ألا يكون ذلك لله فتركته ودخلت على نافع فسألنى فقلت أنا مصرى.

فقال: ممن قلت من قيس.

قال ابن كم قلت ابن عشرين سنة.

قال أما لحيتك فلحية ابن أربعين.

قال أبو صالح خرجت مع الليث إلى العراق سنة إحدى وستين ومائة خرجنا فى شعبان وشهدنا الأضحى ببغداد قال وقال لى الليث ونحن ببغداد سل عن منزل هشيم الواسطى فقل له أخوك ليث المصرى يقرئك السلام ويسألك أن تبعث إليه شيئاً من كتبك فلقيت هشيما فدفع إلى شيئاً فكتبنا منه وسمعتها مع الليث.

روى عن حرملة: كان الليث يصل مالكاً بمائة دينار فى السنة، فكتب إليه مالك علىَّ دين، فبعث إليه بخمسمائة دينار، وعن ابن وهب: كتب إليه مالك: إنى أريد أن أدخل ابنتى على زوجها بشىء من عصفر، فبعث إليه بثلاثين حمل عصفرا، وأعطى الليث ابن لهيعة ألف دينار، ومنصور بن عمار ألف دينار وجارية بثلاثمئة.

روى أن امرأة جاءت إليه وقالت: إن ابنى عليل ويشتهى عسلاً، فأمر غلامه أن يعطيها مرط عسل والمرط مائة وعشرون رطلاً. وروى عن محمد بن رمح: كان دخل الليث فى كل سنة ثمانين ألف دينار.

وروى عن الليث قال: قال لى أبو جعفر المنصور تلى لى مصر قلت لا يا أمير المؤمنين إنى أضعف عن ذلك إنى رجل من الموالى.

فقال ما بك ضعف معى ولكن ضعفت نيتك فى العمل لى.

وعن الحارث بن مسكين قال اشترى قوم من الليث ثمرة فاستغلوها فاستقالوا فأقالهم ثم دعا بخريطة فيها أكياس فأمر لهم بخمسين دينارا فقال له ابنه الحارث فى ذلك فقال اللهم غفرا إنهم قد كانوا أملوا فيها أملا فأحببت أن أعوضهم من أملهم بهذا.

وكان الرشيد وزوجته يحتكمان ويستفتيان الليث فيما أشكل عليهما وهذا واضح من تلك الرواية، فقد قال الرشيد لزوجته زبيدة: انت طالق إن لم أكن من أهل الجنة.

ثم ندم الرشيد واغتما جميعاً بهذه اليمين، فجمع الفقهاء وسألهم عن اليمين فلم يجد منها مخرجاً.

وفى جلسة ضمت فقهاء من سائر الأمصار، تكلم كلهم باستثناء الليث بن سعد، فدعاه الرشيد وقربه، فطلب من الرشيد إحضار مصحف جامع، فأمر به فأحضر، فقال الليث بن سعد: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتى يصل إلى سورة الرحمن، فأخذه الرشيد وتصفحه، حتى وصل إلى سورة الرحمن، فقال الليث: يقرأ أمير المؤمنين، فقرأ فلما بلغ: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، قال: قف يا أمير المؤمنين ههنا، فوقف، فقال: يقول أمير المؤمنين والله، فاشتد على الرشيد وعلى ذلك.

فقال له الرشيد: ما هذا؟

قال: يا أمير المؤمنين على هذا وقع الشرط.

فنكس أمير المؤمنين رأسه ـ وكانت زبيدة فى بيت مسبل عليه ستر قريب من المجلس تسمع الخطاب ـ ثم رفع الرشيد رأسه إليه فقال: والله! قال الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إلى أن بلغ آخر اليمين.

ثم قال الليث: إنك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله؟

قال الرشيد: إنى أخاف مقام الله.

فقال: يا أمير المؤمنين فهى جنتان وليست بجنة واحدة، كما ذكر الله تعالى فى كتابه.

ففرحت زبيدة، وقال الرشيد: أحسنت والله بارك الله فيك.

ثم أمر بالجوائز والخلع لليث بن سعد. وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد، فحمل إليه واستأذن فى الرجوع إلى مصر، فحُمل مُكَرَّما.

وروى عن الليث قال لما ودعت أبا جعفر المنصور ببيت المقدس قال أعجبنى ما رأيت من شدة عقلك والحمد لله الذى جعل فى رعيتى مثلك قال شعيب كان أبى يقول لا تخبروا بهذا ما دمت حيا.

وروى عن سعيد الآدم قال مررت بالليث بن سعد فتنحنح فرجعت إليه فقال لى: يا سعد خذ هذا القنداق فاكتب لى فيه من يلزم المسجد ممن لا بضاعة له ولا غلة.

فقلت: جزاك الله خيراً يا أبا الحارث.

وأخذت منه القنداق ثم صرت إلى المنزل فلما صليت أوقدت السراج وكتبت بسم الله الرحمن الرحيم ثم قلت فلان بن فلان ثم بدرتنى نفسى. فقلت: فلان بن فلان.

قال فبينا أنا على ذلك إذ أتانى آت فقال هالله يا سعيد تأتى إلى قوم عاملوا الله سراً فتكشفهم لآدمى ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله الذى عاملوه. فقمت ولم أكتب شيئاً.

فلما أصبحت أتيت الليث فتهلل وجهه فناولته القنداق فنشره فما رأى فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فقال: ما الخبر فأخبرته بصدق عما كان فصاح صيحة فاجتمع عليه الناس من الحلق فسألوه فقال ليس إلا خير ثم أقبل على فقال يا سعيد تبينتَها وحُرمتُها صدقت ما الليث وما شعيب أليس مرجعهم إلى الله.

عن أبى صالح كاتب الليث قال كنا على باب مالك فامتنع عن الحديث فقلت ما يشبه هذا صاحبنا فسمعها مالك فأدخلنا وقال من صاحبكم قلت الليث قال تشبهونا برجل كتبت إليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ منه ما بعنا فضلته بألف دينار.

وقال ابن وهب: لولا مالك والليث لضل الناس.

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع الناس وكان لا يأكل إلا بلحم إلا أن يمرض.

وقال أحمد بن سعد الزهرى: سمعت أحمد بن حنبل يقول الليث ثقة ثبت، وقال أيضاً: الليث كثير العلم صحيح الحديث.

وقال عثمان الدارمى: سمعت يحيى بن معين يقول الليث أحب إلى من يحيى بن أيوب ويحيى ثقة.

قلت فكيف حديثه عن نافع فقال صالح ثقة.

وعن أحمد بن صالح وذكر الليث فقال: إمام قد أوجب الله علينا حقه لم يكن بالبلد بعد عمرو بن الحارث مثله.

قال ابن سعد: استقل الليث بالفتوى وكان ثقة كثير الحديث سريا من الرجال سخيا له ضيافة.

قال ابن بكير وسعيد ابن أبى مريم: توفى الليث للنصف من شعبان سنة ١٧٥ هـ يوم جمعة وصلى عليه موسى بن عيسى.

قال خالد بن عبد السلام الصدفى شهدت جنازة الليث بن سعد مع والدى فما رأيت جنازة قط أعظم منها رأيت الناس كلهم عليهم الحزن وهم يعزى بعضهم بعضا ويبكون فقلت يا أبت كأن كل واحد من الناس صاحب هذه الجنازة رحمه الله تعالى.

فقال يابنى لا ترى مثله أبداً.

■ ■ ■

٩ ـ الإمام الشافعي
صاحب المذهب

محمد بن إدريس الشافعى (١٥٠ هـ/ ٧٦٦ م ـ ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م).

مجدد الإسلام فى القرن الثانى الهجرى كما نص على ذلك الإمام أحمد بن حنبل وهو أيضاً أحد أئمة أهل السنة وهو صاحب المذهب الشافعى فى الفقه الإسلامى. يعد الشافعى مؤسس علم أصول الفقه، وهو أول من وضع كتابا لأصول الفقه سماه الرسالة.

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عباس بن عثمان بن شافع بن سائد بن عبد الله بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان القرشى المطلبى الشافعى الحجازى المكى يلتقى فى نسبه مع رسول الله فى عبد مناف بن قصى.

ولد فى سنة مائة وخمسين وهى السنة التى توفى فيها أبو حنيفة فى غزة، وقيل فى عسقلان، ثم أخذ إلى مكة وهو ابن سنتين.

نشأ يتيماً فى حجر أمه فى قلة من العيش، وضيق حال، وكان فى صباه يجالس العلماء، ويكتب ما يفيده فى العلوم ونحوها، حتى ملأ منها خبايا، وقد كان الشافعى فى ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب، ثم اتجه نحو تعلم الفقه فقصد مجالسة الزنجى مسلم بن خالد الذى كان مفتى مكة.

ثم رحل الشافعى من مكة إلى المدينة قاصداً الأخذ عن أبى عبد الله مالك بن أنس، ولما قدم عليه قرأ عليه الموطأ حفظاً، فأعجبته قراءته ولازمه، وكان للشافعى حين أتى مالكاً ثلاث عشرة سنة ثم نزل باليمن.

واشتهر من حسن سيرته، وحمله الناس على السنة، وأخذ فى الاشتغال بالعلوم، ورحل إلى العراق وناظر محمد بن الحسن وغيره؛ ونشر علم الحديث ومذهب أهله، ونصر السنة وشاع ذكره وفضله وطلب منه عبد الرحمن بن مهدى إمام أهل الحديث فى عصره أن يصنف كتاباً فى أصول الفقه فصنف كتاب الرسالة، وهو أول كتاب صنف فى أصول الفقه، وكان عبد الرحمن ويحيى بن سعيد القطان يعجبان به، وقيل إن القطان وأحمد بن حنبل كانا يدعوان للشافعى فى صلاتهما.

وصنف فى العراق كتابه القديم ويسمى كتاب الحجة، ويرويه عنه أربعة من جل أصحابه، وهم أحمد بن حنبل، أبو ثور، الزعفرانى والكرابيسى.

ثم خرج إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة ـ وقيل سنة مائتين ـ وحينما خرج من العراق قاصداً مصر قالوا له أتذهب مصر وتتركنا فقال لهم (هناك الممات).

وحينما دخل مصر واشتغل فى طلب العلم وتدريسه، فوجئ بكتاب اسمه الكشكول لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما وقرأ فيه العديد من الأحاديث النبوية التى رواها عبد الله ودونها وبناء عليه غير الشافعى الكثير من أحكامه الفقيهة وفتاواه لما اكتشفه فى هذا الكتاب من أحكام قطعت الشك باليقين أو غيرت وجهة أحكامه، حتى أنه حينما يسأل شخص عن حكم أو فتوى للإمام الشافعى يقال له هل تسأل عن الشافعى القديم (أى مذهبه حينما كان فى العراق) أم مذهب الشافعى الحديث (أى الذى كان بمصر)، كما صنف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره فى البلدان، وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحى لأخذ العلم عنه وسماع كتبه الجديدة وأخذها عنه.

وساد أهل مصر وغيرهم وابتكر كتباً لم يسبق إليها منها أصول الفقه، ومنها كتاب القسامة، وكتاب الجزية، وقتال أهل البغى وغيرها.

وكان الشافعى شاعراً ومن أشعاره:

أأنثر دُرَّاً بين سارحة البُهْم ... وأنظم منثوراً لراعية الغنم

لعمرى لئن ضيعت فى شر بلدةٍ ... فلست مضيعاً فيهم غرر الكلم

لئن سهل الله العزيز بلطفه ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم

بثثت مفيداً واستفدت ودادهم ... وإلا فمكنون لدى ومكتتم

ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ومن مصنفاته التى كتبها:

كتاب الأم فى الفقه (فقه الشافعى).

الرسالة فى أصول الفقه، وهو أول كتاب صنف فى علم أصول الفقه.

اختلاف الحديث، أحكام القرآن، الناسخ والمنسوخ، كتاب القسامة، كتاب الجزية، قتال أهل البغى، سبيل النجاة.

عن الربيع بن سليمان قال: كان الشافعى يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح، فيأتيه أهل القرآن فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف رضي الله عنه.

وحدث محمد بن عبد الحكم قال: ما رأيت مثل الشافعى، كان أصحاب الحديث يجيئون إليه ويعرضون عليه غوامض علم الحديث، وكان يوقفهم على أسرار لم يقفوا عليها فيقومون وهم متعجبون منه، وأصحاب الفقه المرافقون والمخالفون لا يقومون إلا وهم مذعنون له، وأصحاب الأدب يعرضون عليه الشعر فيبين لهم معانيه وكان يحفظ عشرة آلاف بيت لهذيل إعرابها ومعانيها، وكان من أعرف الناس بالتواريخ، وكان ملاك أمره إخلاص العمل لله تعالى.

قال مصعب بن عبد الله الزبيرى: «ما رأيت أعلم بأيام الناس من الشافعى».

وروى عن مسلم بن خالد أنه قال لمحمد بن إدريس الشافعى وهو ابن ثمان عشرة سنة: «أفت أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتى».

وقال الحميدى: كنا نريد أن نرد على أصحاب الرأى فلم نحسن كيف نرد عليهم، حتى جاءنا الشافعى ففتح لنا.

كان الشافعى ﷺ مشهوراً بتواضعه وخضوعه للحق، تشهد له بذلك مناظراته ودروسه ومعاشرته لأقرانه ولتلاميذه وللناس.

قال الحسن بن عبد العزيز الجروى المصرى: قال الشافعى: ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ، وما فى قلبى من علم، إلا وددت أنه عند كل أحد ولا ينسب لى.

قال حرملة بن يحيى: قال الشافعى: كل ما قلت لكم فلم تشهد عليه عقولكم وتقبله وتراه حقاً فلا تقبلوه، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق.

قال الشافعى ﷺ: والله ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة.

وقال آيضاً: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلهما إلا هبته واعتقدت مودته، ولا كابرنى على الحق أحد ودافع الحجة إلا سقط من عينى.

وقال: وقال: أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع فى خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى ويخاف.

وأما ورعه وعبادته فقد شهد له بهما كل من عاشره أستاذاً كان أو تلميذاً، أو جارًا، أو صديقاً.

قال الربيع بن سليمان: كان الشافعى يختم القرآن فى رمضان ستين مرة كل ذلك فى صلاة.

وقال أيضاً: قال الشافعى: والله ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها لأن الشبع يثقل البدن، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة.

وقال: أيضاً: كان الشافعى قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثلث الثانى يصلى، والثلث الثالث ينام.

لقد كان الشافعى رضي الله عنه فصيح اللسان بليغاً حُجة فى لغة العرب ونحوهم، اشتغل بالعربية عشرين سنة مع بلاغته وفصاحته، ومع أنه عربى اللسان والدار والعصر وعاش فترة من الزمن فى بنى هُذَيْل فكان لذلك أثره الواضح على فصاحته وتضلعه فى اللغة والأدب والنحو، إضافة إلى دراسته المتواصلة وإطلاعه الواسع حتى أضحى يرجع إليه فى اللغة والنحو.

قال أبو عبيد: كان الشافعى ممن تؤخذ عنه اللغة.

وقال أيوب بن سويد: خذوا عن الشافعى اللغة.

قال الأصمعى: صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة يقال له محمد بن إدريس (الشافعى).

قال أحمد بن حنبل: كان الشافعى من أفصح الناس، وكان مالك تعجبه قراءته لأنه كان فصيحاً.

وقال أحمد بن حنبل: ما مس أحد محبرة ولا قلما إلا وللشافعى فى عنقه منة.

حدث أبو نعيم الاستراباذى، سمعت الربيع يقول: لو رأيت الشافعى وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته ـ التى كان يتكلم بها معنا فى المناظرة ـ لم يقدر على قراءة كتبة لفصاحته وغرائب ألفاظه غير أنه كان فى تأليفه يجتّهد فى أن يوضح للعوام.

أما سخاؤه فقد بلغ فيه غاية جعلته علما عليه، لا يستطيع أحد أن يتشكك فيه أو ينكره، وكثرة أقوال من خالطه فى الحديث عن سخائه وكرمه.

وحدث محمد بن عبد الله المصرى قال: كان الشافعى أسخى الناس بما يجد.

قال عمرو بن سواد السرجى: كان الشافعى أسخى الناس عن الدنيا والدرهم والطعام، فقال لى الشافعى: أفلست فى عمرى ثلاث إفلاسات، فكنت أبيع قليلى وكثيرى، حتى حلى ابنتى وزوجتى ولم أرهن قط.

قال الربيع: كان الشافعى إذا سأله إنسان يحمر وجهه حياء من السائل،

ويبادر بإعطائه.

وتلاميذه كثر، من تلاميذه فى العراق:

١ ـ الإمام أحمد بن حنبل.

٢ ـ أبو ثور.

٣ ـ الكرابيسى.

من تلاميذه فى مصر.

١ ـ الإمام أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى.

٢ ـ الإمام المزنى.

٣ ـ الربيع المرادى.

توفى بمصر سنة أربع ومائتين وهو ابن أربع وخمسين سنة.

قال تلميذه الربيع: توفى الشافعى ليلة الجمعة بعد المغرب وأنا عنده، ودفن بعد العصر يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين، وقبره معروف بمصر.

■ ■ ■

١٠ ـ محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة (قاضى الرشيد)

وقيل: محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مروان كان والده من أهل حرستا ـ قرية مشهورة بظاهر دمشق، فقدم العراق فى آخر عصر بنى أمية، فولد له محمد بواسط، سنة ١٣٢. فحمله إلى الكوفة فنشأ بها، وكتب شيئاً من العلم عن أبى حنيفة، ثم لازم أبا يوسف من بعده حتى برع فى الفقه.

سمع من مسعر بن كدام، ومالك بن مِغْوَل، وعمر بن ذر الهمدانى، وسفيان الثورى، والأوزاعى، ومالك بن أنس، فقد تلقى عنه فقه الحديث والرواية.

هو صاحب الإمام أبو حنيفة النعمان وناشر مذهبه وفقيه العراق. ولد سنة ١٣١ هـ، وهو يعد صاحب الفضل الأكبر فى تدوين مذهب الحنفية، على الرغم من أنه لم يتتلمذ على شيخه أبى حنيفة إلا لفترة قصيرة، واستكمل دراسته على يد أبى يوسف، وأخذ عن سفيان الثورى والأوزاعى، ورحل إلى مالك بن أنس فى المدينة. تولى القضاء زمن هارون الرشيد. وانتهت إليه رياسة الفقه بالعراق بعد أبى يوسف.

روى عنه الشافعى، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وهشام بن عبيد الله الرازى، وعلى بن مسلم الطوسى، وعمرو بن أبى عمرو، ويحيى بن معين، ومحمد بن سماعة، ويحيى بن صالح الوحاظى، وآخرون.

توفى فى الرى بواسط سنة ١٨٩ هـ ـ ٨٠٥ م.

قال الذهبى فى سير أعلام النبلاء: قال إبراهيم الحربى: قلت للإمام أحمد: «من أين لك هذه المسائل الدقاق؟». قال: «من كتب محمد بن الحسن».

وقال عنه فى ميزان الاعتدال: «وكان من بحور العلم والفقه، قوياً فى مالك».

قال على بن محمد بن الحسن المالكى: أنبأنا عبد الله بن عثمان الصفار قال: أنبأنا محمد بن عمر أن بن موسى الصيرفى قال: نبأنا عبد الله بن على بن المدينى، عن أبيه قال: وسألته عن أسد بن عمرو والحسن بن زياد اللؤلؤى ومحمد بن الحسن؟ فضعف أسداً والحسن بن زياد، وقال: «محمد بن الحسن صدوق».

ومن طريق عبد الرحمن بن مهدى قال عن محمد بن الحسن: «دخلت عليه، فرأيت عنده كتاباً، فنظرت فيه، فإذا هو قد أخطأ فى حديث وقاس على الخطأ. فوقفته على الخطأ، فرجع، وقطع من كتابه بالمقراض عدة أوراق».

قلت: هذا يدل على إنصافه وإرادته للحق.

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: سمعت الشافعى يقول: قال لى محمد بن الحسن: «أقمت على مالك ثلاث سنين، وسمعت من لفظه سبعمائة حديث».

قال ابن حجر: «وكان مالك لا يحدث من لفظه إلا نادراً».

يدل على شدة ملازمة محمد بن الحسن لمالك، فقد لزمه أكثر من ثلاثة سنين. بينهما لزم الشافعى مالكاً حوالى ثمانية أشهر فقط.

قال أبو بكر بن المنذر: سمعت المزنى يقول: سمعت الشافعى يقول: «ما رأيت سميناً أخف روحاً من محمد بن الحسن، وما رأيت أفصح منه، كنت إذا رأيته يقرأ، كأن القرآن نزل بلغته. حمل جمل من العلم».

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعى يقول: «حملت عن محمد وقر بعير كتباً».

وقال الشافعى: «ما ناظرت أحداً إلا تمعر وجهه، ما خلا محمد بن الحسن». أقول: هذا يدل على قوته فى المناظرة.

وقال الربيع بن سليمان كذلك: وقف رجل على الشافعى، فسأله عن مسألة، فأجابه. فقال له الرجل: يا أبا عبد الله، خالفك الفقهاء.

فقال له الشافعى: «وهل رأيت فقيهاً قط؟ اللهم إلا أن تكون رأيت محمد بن

الحسن. فإنه كان يملأ العين والقلب. وما رأيت مبدناً ـ أي سميناً ـ قط أذكى من محمد بن الحسن».

قال حرملة بن يحيى: نبأنا محمد بن إدريس الشافعى قال: «كان محمد بن الحسن الشيبانى إذا أخذ فى المسألة، كأنه قرآن ينزل عليه: لا يقدم حرفاً ولا يؤخر».

ونقل الكاسانى فى البدائع عن أحمد بن حنبل قوله: محمد أبصر الناس بالعربية. ونقل عن الأخفش: ما وضع شيئا لشىء قط فوافق ذلك الشىء إلا كتاب محمد بن الحسن، فإنه وافق كلام الناس.

يريد أنه موافق للعربية. وكان ثعلب يقول: محمد عندنا من أقران سيبويه[1].

قال الجصاص فى «الأصول»: «محمد بن الحسن حجة فيما يحكيه من اللغة. قد احتج به قوم من أئمة اللغة، منهم أبو عبيد فى «غريب الحديث» وغيره. وحكى لنا أن ثعلب قال: «محمد بن الحسن حجة فى اللغة».

من طريق أبى حسان الحسن بن عثمان الزيادى قال: «كنت فى دهليز محمد بن الحسن فخرج محمد راكباً، فنظر فرأى الشافعى قد جاء، فثنى رجله ونزل وقال لغلامه: اذهب فاعتذر. فقال له الشافعى: لنا وقت غير هذا. قال: لا. وأخذ بيده فدخلا الدار. قال أبو حسان: وما رأيت محمداً يعظم أحداً إعظام الشافعى».

قال المعلمى فى «التنكيل»: «ومن تدبر مناظرات الشافعى لمحمد، وجدها مناظرة الأكفاء، وعلم منها أن الشافعى كان حينئذ مجتهداً كاملاً، وأن محمداً كان مع مكانته من الفقه والسن والمنزلة من الدولة وكثرة الأتباع ـ على غاية من الإنصاف فى البحث والنظر. والإنصاف: أنه كان لتلك المناظرات أثر فى الرجلين، فاتفقا على مسائل رجع فيها الشافعى عما كان يتابع فيه مالكاً، أو رجع محمد عما كان يتابع فيه أبا حنيفة».

قال ابن حجر فى «رواة الآثار»: «وتكلم فيه يحيى ابن معين، فيما حكاه معاوية ابن صالح. وعظمه أحمد، والشافعى قبله. وكان من أفراد الدهر فى الذكاء.

---

(١) يعنى فى النحو واللغة.

وعظمت منزلة عند الرشيد جداً. ولما مات وهو معه، وكذلك الكسائى بالرى قال: «دفنت الفقه والعربية بالرى».

وقال ثعلب: «توفى الكسائى ومحمد بن الحسن فى يوم واحد. فقال الناس: «دفن اليوم اللغة والفقه».

قال البرقانى فى سؤالاته: سألت أبا الحسن الدارقطنى عن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، فقال: «قال يحيى بن معين: «كذاب».

وقال فيه أحمد يعنى بن حنبل نحو هذا. قال أبو الحسن: «وعندى لا يستحق الترك». والدارقطنى هو الذى يذكر محمد بن الحسن فى عداد الثقات الحفاظ حيث يقول فى «غرائب مالك» عن حديث الرفع عند الركوع: «حدث به عشرون نفراً من الثقات الحفاظ منهم محمد بن الحسن الشيبانى، ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن المبارك وعبد الرحمن بن مهدى وابن وهب وغيرهم». تجد نص هذا النقل عنه فى «نصب الراية». حيث قرن محمد مع الحفاظ الثقات الأثبات.

ولاه الرشيد القضاء حين خرج معه إلى خراسان ومات بالرى سنة تسع وثمانين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ومات الكسائى بعده بيومين. وحكى أنهما ماتا فى يوم واحد فقال الرشيد دفن الفقه واللغة فى الرى.

ودفن الإمام محمد بجبل طبرك والكسائى بقرية رنبويه وبينهما أربعة فراسخ وكان معسكر الرشيد أربعة فراسخ نزل الإمام الكسائى فى جانب والإمام محمد فى جانب وقيل فى مرثيتهما:

تصرمت الدنيا فليس خلود ... لما قد نرى من بهجة ستبيد

ألم تر شبابنا إذا ما ابتلوا البلى ... وأن الشباب الغض ليس يعود

سيأتيك ما أفنى القرون التى مضت ... فكن مستعدا للقاء عتيد

أسفلت على قاضى القضاة محمد ... وإذ ريت دمعى والفواد عميد

وأوجعنى موت الكسائى بعده ... وكادت بى الأرض الفضاء تميد

وذكر السمعانى عن هشام بن عبد الله الذى توفى الإمام فى بيته أنه لما حضرته الوفاة بكى فقيل فى ذلك فقال إذا أوقفنى الله تعالى بين يديه وقال يا محمد ما أقدمك على الرى أمجاهد فى سبيلى أم ابتغاء مرضاتى ما أقول.

وعن البويطى عن الشافعى أعاننى الله تعالى فى العلم برجلين فى الحديث بابن عيينة وفى الفقه بمحمد بن الحسن رضى الله عنهما.

وعن الديلمى أن الشافعى قال جالسته عشر سنين وحملت من كلامه حملى جمل لو كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا كلامه لكن كان يكلمنا على قدر عقولنا.

وعن الشافعى ما رأيت سمينا عاقلاً قط غيره.

قال إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة: كان محمد بن الحسن له مجلس فى مسجد الكوفة وهو ابن عشرين سنة.

قال مجاشع بن يوسف: كنت بالمدينة عند مالك وهو يفتى الناس، فدخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وهو حدث، فقال: ما تقول فى جنب لا يجد الماء إلا فى المسجد؟

فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد.

قال: فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء؟ فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد، فلما أكثر عليه قال له مالك: فما تقول أنت فى هذا؟

قال: يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ويخرج فيغتسل.

قال مالك: من أين أنت؟

قال: من أهل هذه، وأشار إلى الأرض.

فقال: ما من أهل المدينة أحد إلا أعرفه.

فقال: ما أكثر من لا تعرف! ثم نهض.

قالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة.

فقال مالك: محمد بن الحسن! كيف يكذب وقد ذكر أنه من أهل المدينة.

قالوا: إنما قال: من أهل هذه، وأشار إلى الأرض.

قال: هذا أشد على من ذاك.

قال يحيى بن صالح: قال لى ابن أكثم: قد رأيت مالكاً وسمعت منه، ورافقت محمد بن الحسن، فأيهما كان أفقة؟

فقلت: محمد بن الحسن فيما يأخذه لنفسه أفقه من مالك.

قال أبو عبيد: ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد بن الحسن.

ومن مصنفاته:

«المبسوط»، ويسمى «الأصل فى الفروع»، ويسمى «الأصل فى الفصل والوصل».

«الجامع الصغير فى الفروع».

«الجامع الكبير».

«الرقيات، والهارونيات، والكيسانيات، والجرجانيات» وهى مسائل متفرقة من جمعه.

«الزيادات».

«السير الكبير».

«الشروط».

«الوصايا».

«الكسب».

«نوادر الصيام»[١].

■ ■ ■

(١) انظر تاريخ بغداد ـ مصدر سابق وتهذيب التهذيب. الحافظ ابن حجر العسقلانى وكشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ حاجى خليفة.

١١ ـ عبد الله بن المبارك المروزى
(١١٨ هـ ـ ١٨١ هـ)

عالم وإمام مجاهد مجتهد فى شتى العلوم الدينية والدنيوية اسمه عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى التميمى مولاهم أبو عبد الرحمن المروزى. عن العباس بن مصعب قال: كانت أم عبد الله بن المبارك خوارزمية وأبوه تركى، وكان عبداً لرجل من التجار من همذان من بنى حنظلة[١]. عن الحسن قال: كانت أم ابن المبارك تركية، وكان الشبه لهم بيناً فيه وكان ربما خلع قميصه فلا أرى على صدره أو جسده كثير شعر[٢].

مولده قال أحمد بن حنبل: ولد ابن المبارك سنة ثمان عشرة ومائة. وقال خليفة: وفيها ـ يعنى ثمان عشرة ومائة ـ ولد عبد الله بن المبارك. وقال بشر بن أبى الأزخر: قال ابن المبارك ذاكرنى عبد الله بن إدريس السن فقال: ابن كم أنت فقال: إن العجم لا يكادون يحفظون ذلك ولكنى أذكر أنى لبست السواد وأنا صغير عندما خرج أبو مسلم قال: فقال لى: قد ابتليت بلبس السواد. قلت: إنى كنت أصغر من ذلك، وكان أبو مسلم أخذ الناس كلهم بلبس السواد الصغار والكبار[٣]. وكان أبو مسلم فى بداية الدولة العباسية قد ألزم الرعية كباراً وصغاراً بلبس السواد، وكان ذلك شعارهم إلى آخر أيامهم.

وموطنه: مرو وهى من مدن خراسان ولد عام ١١٨ هـ فى العصر الأموى (الخليفة هشام بن عبد الملك) وتوفى فى خلافة الرشيد عام ١٨١ هـ.

نشأ ابن المبارك فى أسرة متواضعة؛ فقد كان أبوه أجيراً بسيطاً يعمل حارساً لبستان أحد الأثرياء، غير أن والده هذا كان سبب رخائه أورثه المال، فقد اكتسبه «والده المبارك» بجد وجهد وكفاح وصبر، فكان ثمرة يانعة مقنعة لرجل ورع،

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى.

(٢) صفوة الصفوة لابن الجوزى. (٣) تاريخ دمشق لابن عساكر.

حريص على أداء حق العمل، فلم يرض إلا أن يشغل كل وقته فى العمل تحرياً للأجر الحلال، فلم يتطلع يوماً للأكل من البستان، وهو ما يكتشفه صاحب البستان ويتعجب له.

ففى إحدى زياراته طلب منه رمانة يأكلها، فجاءه بواحدة، فوجدها حامضة لم تنضج، فرماها، وطلب منه أخرى، فكانت كذلك، فغضب وصاح: أما تعرف الناضج من غيره؟ تظل هذا العمر معى ولا تستطيع أن تقدم أحسن ما لديك؟

فقال مبارك: وكيف أعرف وأنا لم أذق شيئاً منه!!

فتعجب صاحب البستان، وقال: ألا تتمتع ببعض ما هو تحت يديك؟

قال مبارك: لم تأذن لى فى ذلك، فكيف أستحل ما ليس لى؟!

سكت الرجل مندهشاً وقال له: فقد أذنت، من الآن فكل.

فطلب العلم وهو ابن عشرين سنة فأقدم شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخراسانى تحيل ودخل إليه إلى السجن فسمع منه نحوا من أربعين حديثا ثم ارتحل فى سنة إحدى وأربعين ومئة وأخذ عن بقايا التابعين وأكثر من الترحال والتطواف.

رحل إلى جميع الأقطار التى كانت معروفة بالنشاط العلمى فى عصره. فيه يقول عبد الرحمن بن أبى حاتم: «سمعت أبى يقول: كان ابن المبارك ربع الدنيا بالرحلة فى طلب الحديث، لم يدع اليمن ولا مصر ولا الشام ولا الجزيرة والبصرة ولا الكوفة»، وقد شهد له أحمد بن حنبل بذلك أيضاً.

كان ابن المبارك يقول: «خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق، وحب أصحاب محمد ﷺ». وقد كان ينشد العلم حيث رآه ويأخذه حيث وجده، لا يمنعه من ذلك مانع، كتب عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وتجاوز ذلك حتى كتب العلم عمن هو أصغر منه. وقد روى أنه مات ابن له فعزاه مجوسى فقال: ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد أسبوع. فقال بن المبارك: اكتبوا هذه.

بلغ به ولعه بكتابة العلم مبلغاً جعل الناس يعجبون منه، فقد قيل له مرة: كم تكتب؟ قال: لعل الكلمة التى أنتفع بها لم أكتبها بعد. وعابه قومه على كثرة طلبه

للحديث فقالوا: إلى متى تسمع؟ فقال إلى الممات.

وعمل على جمع أربعين حديثاً وذلك تطبيقاً للحديث النبوى القائل: (من حفظ على أمتى أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء).

قال الذهبى عن شيوخه:

أقدم شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخراسانى، تحيل ودخل إليه السجن فسمع منه أربعين حديثاً ثم ارتحل فى سنة إحدى وأربعين ومائة وأخذ من بقايا التابعين وأكثر من الترحال والطواف(١).

وقال ابن الجوزى:

أدرك ابن المبارك جماعة من التابعين منهم هشام بن عروة، إسماعيل بن أبى خالد، والأعمش، وسليمان التيمى، وحُمَيْد الطويل، وعبد الله بن عون وخالد الحذاء، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وموسى بن عقبة فى آخرين(٢).

قال ابن عساكر:

قدم دمشق وسمع من الأوزاعى، سعيد بن عبد العزيز، وأبى عبد رب الزاهد، عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، وهشام بن الغاز، وعتبة بن أبى الحكم الهمدانى وإبراهيم بن أبى عبلة، وأبى المعلى صخر بن جندل البيروتى، وصفوان بن عمر وعمر بن محمد بن زيد العسقلانى، والحكم بن عبد الله الأيلى، ويحيى بن أبى كثير، وابن بهيعة، والليث بن سعد، وسعيد بن أبى أيوب، وحرملة بن أبى عمران، وأبى شجاع سعيد بن زيد والأعمش، وإسماعيل بن أبى خالد، ويونس بن أبى إسحاق، ومجالد بن سعيد، وهشام بن عروة، وزائدة بن قدامة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، ويحيى بن عبيد الله بن موهب، وأسامة بن زيد الليثى وابن عجلان، وابن جريج ومعمر، ويونس بن يزيد، وموسى بن عقبة، وهشام بن سعد، ومحمد بن إسحاق، وعبد الله بن سعيد بن أبى هند، ومالك بن أنس، وسفيان الثورى، وحماد

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى.

(٢) صفة الصفوة ـ مصدر سابق.

بن زيد، والمبارك بن فضالة، وسليمان التيمى، وحميد الطويل، وعوف الأعرابى، وشعبة وهشام بن حسان، وعاصم بن سليمان الأحول، وعبد الله بن عون، وخالد الحذاء، وغيرهم[1].

قال الحافظ بن كثير عن تلاميذه: وعنه ـ أى روى عنه ـ الثورى، ومَعْمَر بن راشد، وأبو إسحاق الفزارى، وجعفر بن سليمان الضبعى، وبقية بن الوليد، وداود بن سليمان، والوليد بن مسلم، وأبو بكر بن عياش وغيرهم من شيوخه وأقرانه. ومسلم بن إبراهيم، وأبو أسامة وأبو سلمة التبوذكى، ونعيم بن حماد، وابن مهدى، والقطان، وإسحاق بن راهوية، ويحيى بن معين، وإبراهيم بن إسحاق الطالقانى... وغيرهم[2].

قال نعيم بن حماد (شيخ البخارى) كان ابن المبارك يُكثر الجلوس فى بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟

فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبى ﷺ وأصحابه؟

ـ قال أشعث بن شعبة المَصِّيصى: قدم الرشيد الرقة، فانجفل الناس خلف ابن المبارك، وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فقالت: ما هذا؟

قالوا: عالم من أهل خراسان قدم.

قالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان.

قال محمد بن على بن الحسن بن شقيق: سمعت أبى قال: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك، فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها فى صندوق ويقفل عليها، ثم يكترى له ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زى وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ،

---

(١) تاريخ دمشق ـ مصدر سابق.

(٢) تهذيب التهذيب.

فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشترى لهم من المدينة من طرفها؟

فيقول: كذا وكذا فيشترى لهم، ثم يخرجهم إلى مكة فإذا قضوا حجهم قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشترى لهم من متاع مكة؟

فيقول: كذا وكذا، فيشترى لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فيجصص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسروا دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته عليها اسمه.

قال سفيان الثورى: إنى لأشتهى من عمرى كله أن أكون سنة مثل ابن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام.

قال ابن عيينة: نظرت فى أمر الصحابة، وأمر عبد الله، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبى ﷺ، وغزوهم معه.

- قال القاسم بن محمد بن عباد: سمعت سُوَيْد بن سعيد يقول: رأيت ابن المبارك بمكة أتى زمزم فاستقى شربة، ثم استقبل القبلة، فقال: اللهم إن ابن أبى الموال حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبى ﷺ إنه قال: «ماء زمزم لما شرب له» وهذا أشربه لعطش القيامة، ثم شربه.

- قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق يصير كأنه ثور منحور أو بقرة منحورة من البكاء، لا يجترئ أحد منا أن يسأله عن شىء إلا دفعه.

- قال أبو حاتم الرازى: حدثنا عبدة بن سليمان المروزى قال: كنا سرية مع ابن المبارك فى بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان، خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل، فطارده ساعة فطعنه فقتله فازدحم إليه الناس، فنظرت فإذا هو عبدالله بن المبارك وإذا هو يكتم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو هو. فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا.

ـ وقال أبو حسان عيسى بن عبد الله البصرى: سمعت الحسن بن عرفة يقول: قال لى ابن المبارك: استعرت قلماً بأرض الشام، فذهبت على أن أرده فلما قدمت مرو نظرت فإذا هو معى، فرجعت إلى الشام حتى رددته على صاحبه.

ـ قال أسود بن سالم: كان ابن المبارك إماماً يقتدَى به، كان من أثبت الناس فى السنة، إذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام.

ـ قال النسائى: لا نعلم فى عصر ابن المبارك أجلَّ من ابن المبارك ولا أجل منه ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه.

ـ عن الحسن بن عيسى، قال: اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك مثل الفضل بن موسى، ومخلد بن حسين، ومحمد بن النضر فقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه.

ـ قال حبيب الجلاب: سألت ابن المبارك، ما خير ما أعطى الإنسان؟ قال: غريزة عقل، قلت: فإن لم يكن؟

قال: حسن أدب، قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره، قلت: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قلت: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل.

ـ عن عبد الله قال: إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ على المحاسن لم تذكر المحاسن.

ـ قيل لابن المبارك: إذا أنت صليت لم لا تجلس معنا؟

قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر فى كتبهم وآثارهم فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس.

ـ وجاء أن ابن المبارك سُئل: من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قيل: فمن الغوغاء؟

قال: خزيمة وأصحابه (يعنى أمراء الظلمة)، قيل: فمن السفلة؟

قال: الذين يعيشون بدينهم.

وعنه قال: قال: إن البصراء لا يأمنون من أربع: ذنب قد مضى لا يدرى ما يصنع فيه الرب عز وجل، وعمر قد بقى لا يدرى ما فيه من الهلكة، وفضل قد أعطى العبد لعله مكر واستدراج، وضلالة قد زينت يراها هدى، وزيغ قلب ساعة فقد يسلب المرء دينه ولا يشعر.

ـ عن ابن المبارك قال: من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته.

قال فى الجهاد فى سبيل الله، إنه أفضل العبادات، وإنه أليق بالمسلم من العكوف فى زاوية المسجد وترك الثغور مفتوحة أمام العدو.

ومن ذلك ما حدَّث به محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة قال: أملى على بن المبارك بطرسوس ـ ثغر من ثغور الروم ـ ورقة إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبع وسبعين ومئة فيها الأبيات التى أولها.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب

أتاه أحد أصدقائه واسمه (أبو على) وهو يظن أن الزهد والتجارة لا يجتمعان قائلاً لعبد الله: أنت تأمرنا بالزهد، ونراك تأتى بالبضائع من بلاد (خراسان) إلى (البلد الحرام) كيف ذا؟!

فقال له عبد الله بن المبارك: يا أبا على، إنما أفعل ذا لأصون وجهى، وأكرم عرضى، وأستعين به على طاعة ربى، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به.

وكان عبد الله بن المبارك لا يبخل على أحد بماله، بل كان كريماً سخياً، ينفق على الفقراء والمساكين فى كل سنة مائة ألف درهم.

وكان ينفق على طلاب العلم بسخاء وجود، حتى عوتب فى ذلك فقال: إنى أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس

إليهم، احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم.

وكان ابن المبارك يحب مكة، ويكثر من الخروج إليها للحج والزيارة، وكان كلما خرج من مكة قال:

بغض الحياة وخوف الله أخرجني ... وبيع نفسي بما ليست له ثمناً

إني وزنت الذى يبقى ليعدله ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا

وكان عبد الله بن المبارك يجاهد فى سبيل الله بسيفه، حتى إن كثيراً ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه فى الغزو، وكان يرى أن الجهاد فريضة يجب أن يؤديها المسلمون كما أداها الرسول ﷺ ويروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه الفضيل بن عياض يحثه على قتال الأعداء، ويدعوه إلى ترك البكاء عند البيت الحرام قائلاً له:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب

وأحب عبد الله بن المبارك أحاديث رسول الله ﷺ حباً عظيماً وكان لا يجيب أحداً يسأله عن حديث منها وهو يمشى، ويقول للسائل: (ليس هذا من توفير العلم) وكان حفاظ الحديث فى الكوفة إذا اختلفوا حول حديث قالوا:

مروا بنا إلى هذا الطبيب نسأله (يقصدون عبد الله بن المبارك).

ومن أقواله: الدنيا سجن المؤمن، وأعظم أعماله فى السجن الصبر وكظم الغيظ، وليس للمؤمن فى الدنيا دولة، وإنما دولته فى الآخرة!

ليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط.

سئل عن قول لقمان لابنه: (إن كان الكلام من فضة فإن الصمت ذهب)، فقال: معناه لو كان الكلام بطاعة الله من فضة، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب!!

كما كان مستجاب الدعوة، فقد دعا للحسن بن عيسى وكان نصرانياً: اللهم ارزقه الإسلام، فاستجاب الله دعوته فيه.

قال زكريا بن عدى: رأيت بن المبارك فى المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى برحلتى فى الحديث!

ورؤى الثورى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمنى.. فقال له: ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه كل يوم مرتين.

هذا ما رآه الصالحون و (رؤيا المؤمن جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة) كما يقول رسول الله ﷺ. فرحمه الله ورضى عنه وما أصدق قول الشاعر فيه:

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم ... بعد الممات جمال الكتب والسير

وفى شهر رمضان سنة ١٨١ هـ توفى عبد الله بن المبارك وهو عائد من الغزو، وكان عمره ثلاثة وستين عاماً، ويقال: إن الرشيد لما بلغه موت عبد الله، قال: مات اليوم سيد العلماء.

■ ■ ■

١٢ ـ إمام دار الهجرة مالك بن أنس

الإمام مالك بن أنس (٩٣ هـ/ ٧١٢ م ـ ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م).

إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة المشهورين وهو الثانى تاريخياً بالنسبة إليهم إليه ينسب المذهب المالكى فى الفقه، ومن بين أهم أئمة الحديث النبوى الشريف.

ولد سنة ٩٣ هـ، وهو عام وفاة خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك رضي الله عنه.

إنه أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن حارث وهو ذو إصبح بن عوف بن مالك بن شداد بن زرعة وهو حمير الأصغر وعمرو بن الحارث ذى أصبح الحميرى، من ملوك اليمن، الحميرى ثم الأصبحى، المدنى، حليف بنى تميم من قريش، فهم حلفاء عثمان أخى طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه هى العالية وقيل الغالية بنت الشريك الأزدية وجد الإمام من كبار التابعين وروى عن عمر وطلحة وعائشة وأبى هريرة وحسان بن ثابت وكان من أفاضل الناس وأحد الأربعة الذين حملوا عثمان بن عفان ومات سنة اثنتى وعشر ومائة.

ولد مالك بن أنس فى ربيع الأول سنة ٩٣ هـ الموافق ٧١٢ م بذى المروة نزل أولاً بالعقيق ثم نزل المدينة المنورة، نشأ مالك فى بيت اشتغل بعلم الحديث، وكان أكثرهم عناية عمة نافع المكنى بـ «أبى سهيل»، ولذا عد من شيوخ ابن شهاب.

وكان أخوه النضر مشتغلاً بالعلم ملازماً للعلماء حتى أن مالك كان يكنى بأخى النضر لشهرة أخيه. بدأ مالك يطلب العلم صغيراً تحت تأثير البيئة التى نشأ فيها وتبعاً لتوجيه أمه له، فقد حكى أنه كان يريد أن يتعلم الغناء فوجهته أمه إلى طلب العلم، قالت له إن الناس ينظرون فى غناء ذى الوجه الحسن ويتركون ذى الوجه

القبيح، وفى ذلك أنها لا تريد تشبيهه بالقبيح ولكن ليترك الغناء.

ولولعه بالعلم نقض سقف بيته ليبيعه ويطلب به العلم وملازمة كبار العلماء ويقول الإمام مالك: «حينما بلغت سن التعليم جاءت عمتى وقالت: إذهب فاكتب (تريد الحديث)».

حفظ القرآن ثم اتجه لحفظ الحديث وكان لا بد من كل طالب علم من ملازمة عالم من بين العلماء، فلازم فى البداية ابن هرمز المتوفى سنة ١٤٨ هـ سبع سنين لم يخلطه بغيره حتى كان يقول مالك: «كنت آتى ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل».

وبعد ذلك اتجه مالك إلى نافع مولى ابن عمر فجالسه وأخذ عنه علماً كثيراً وقد اشتهر أن أصح الأحاديث هى المروية عن مالك عن نافع عن ابن عمر.

كما أخذ مالك عن ابن شهاب الزهرى وهو أول من دون الحديث ومن أشهر شيوخ المدينة المنورة، وقد روى عنه مالك فى موطئه ١٣٢ حديثاً بعضها مرسل.

كما أخذ عن الإمام جعفر الصادق من آل البيت وأخرج له فى موطئه ٩ أحاديث منها ٥ متصلة مسندة أصلها حديث واحد طويل هو حديث جابر فى الحج والأربعة منقطعة. كذلك روى عن هشام بن عروة بن الزبير، ومحمد بن المنكدر، ويحيى بن سعيد القطان الأنصارى، وسعيد بن أبى سعيد المقبرى، وربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأى، ومن أقرانه الأوزاعى والثورى والليث.

وروى عن عبد الرحمن بن مهدى والقنعى، وقد بلغ عدد شيوخه على ما قيل ٣٠٠ من التابعين و ٦٠٠ من أتباع التابعين.

تحلق الناس عنده لطلب العلم وهو ابن سبع عشرة سنة ولم يفت إلا بعدما استشار سبعين عالماً من علماء المدينة وهو ابن أربعين سنة.

وقال أهل العلم إن مالك بن أنس هو المقصود بحديث النبى ﷺ: «ليضربن الناس أكباد الإبل فى طلب العلم، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة».

عرف عن الإمام مالك بأنه قوى الحافظة كان يحفظ أكثر من ٤٠ حديثاً فى

مجلس واحد.

انتشر علمه فى الأمصار، واشتهر فى سائر الأقطار، وضربت إليه أكباد الإبل، وارتحل الناس إليه من شتى الأنحاء، فكان يدرس وهو ابن سبع عشرة سنة، فمكث يفتى ويعلم الناس، حتى إن كثيراً من مشايخه رووا عنه كالزهرى، وربيعة الرأى فقيه أهل المدينة، وغيرهما، وروى عنه خلق كثير من الرواة من أشهرهم سفيان الثورى والإمام الشافعى وعبد الله بن المبارك.

ويروى أن الخليفة هارون الرشيد لما قدم إلى المدينة المنورة أرسل للإمام مالك أن يأتيه لكى يقرأ عليه كتاب الموطأ، فأرسل له مالك بأن العلم يؤتى ولا يأتى، فقصد الرشيد منزل الإمام، واستند إلى الجدار فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين، من إجلال رسول الله ﷺ إجلال العلم.

ولم يكن هذا الفعل من الإمام مالك تكبراً على الخليفة، بل كان ذلك لمصلحة شرعية هى بيان فضل العلم والعلماء وتعليم الناس سواء كانوا حكاماً أو محكومين.

عاش مالك فى الخلافة الأموية والعباسية فى عصر تسوده الفتن وكان موقفه كموقف الحسن البصرى وسعيد بن المسيب اللذين كانا قبله وهو موقف استنكار الفتن والدعوة إلى الابتعاد عنها وكان إذا سئل عن تلك الفتن نصح بالابتعاد عنها وبعدم الولوج فيها.

وقد صح أن الحسن البصرى كان ينهى عن الدعاء على أمثال الحجاج وغيره وكان ينهى عن مد اللسان فى قول السوء فى حقهم.

وقد سمع مرة الحسن البصرى رجلاً يسب الحجاج فقال له: لا تفعل يرحمك الله إنكم من أنفسكم أوتيتم، إننا نخاف إن عزل الحجاج أو مات أن تليكم القردة والخنازير.

وروى البصرى عن رسول الله ﷺ قوله المشهور: «عمالكم عملكم وكما تكونوا يولى عليكم»، عمالكم أى رؤساؤكم هم أعمالكم أى انعكاس لأعمالكم.

وكان الإمام مالك ممن يغشى مجالس الخلفاء ولم يكن يبتعد عنها وذلك للنصح

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوصية بالخير فما كان يوفر جهداً ليوصى الخليفة أو ينصحه عندما تسنح الفرصة وقد عوتب فى ذلك فقال: لولا أننى أتيتهم ما رأيت للنبى ﷺ فى هذه المدينة سنة معمول بها، فكان إذا أتاهم نصحهم لكى يحيوا سنة النبى ﷺ وخاصة فى المدينة المنورة وكانوا يستجيبون لنصيحته.

سأل مالك رجلاً أندلسياً ذات مرة عن سيرة عبد الرحمن الداخل، فأجاب الأندلسى: إنه يأكل خبز الشعير ويلبس الصوف، ويجاهد فى سبيل الله، فقال مالك: ليت أن الله زين حرمنا بمثله، فنقم العباسيون عليه.

وقال ابن عبد البر: ذكر الإمام أحمد بن حنبل أن مالكاً كان لا يجيز طلاق المُكْرَه، فضرب فى ذلك.

يقول ابن خلدون فى المقدمة: «ولهذا لما أفتى مالك بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه، ورأوها قادحة فى يمين البيعة، ووقع فى محنة الإمام».

وعن هذه المحنة يقول ابن عبد البر: «لما دعى مالك وسمع منه وقبل قوله شنف الناس له وحسدوه ونعتوه بكل شىء، فلما ولى جعفر بن سليمان على المدينة، سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشىء، وهو يأخذ بحديث فى طلاق المكره أنه لا يجوز، ويحدث بحديث (وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»، فغضب والى المدينة، وقد كان ذلك فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور، فدعى مالك وحده وضربه بالسياط ومدت يداه حتى انخلع كتفاه وارتكب منه أمراً عظيما».

يقول ابن خلكان عن واقعة ضرب الإمام مالك: «فلم يزل بعد ذلك الضرب فى علو ورفعة، وكأنما كانت السياط حلياً حلى به» ويقول ابن الجوزى ـ كما فى شذور العقود: «وفيها ـ أى فى سنة سبع وأربعين ومائة ـ ضرب مالك بن أنس سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان».

من المواقف الرائعة لهذا الإمام الجليل، والتى تدل على عظيم قدره وعلو شأنه وترفعه على هوى نفسه؛ عندما جاء الناس يبشرونه بأن أبا جعفر المنصور

قد نال من جعفر بن سليمان والى المدينة، الذى ضربه وآذاه فى محنته، فقال مالك: «سبحان الله أترون حظنا مما نزل بنا الشماتة به، فإنا نخشى من عقوبة الله أكثر من هذا ونرجو من عفو الله أكثر من هذا، وقد ضرب فيه محمد بن المنكدر وربيعة وابن المسيب، ولا خير فيمن لا يؤذى فى هذا الأمر، وإنى والله تخوفت أن أموت يوم المحنة فألقى النبى ﷺ فأستحى منه أن يدخل بعض آله النار بسببى، وقد أشهدت الناس بعد إفاقتى أنى جعلت ضاربى فى حل».

طلب منه الخليفة أبو جعفر المنصور أن يجمع الناس على علم واحد، فقال الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين، إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى البلاد، فأفتى كل فى مصره بما رآه، إن لأهل هذه البلاد قولا ولأهل المدينة قولاً».

فقال أبو جعفر: «يضرب عليه عامتهم بالسيف، وتقطع عليه ظهورهم بالسياط».

فقال مالك: «يا أمير المؤمنين لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وعملوا به ودالوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم».

والإمام مالك لم يؤيد خروج محمد النفس الزكية فى المدينة المنورة على أبى جعفر المنصور سنة مائة وخمس وأربعين، ولزم بيته ولم يؤيد الخارجين ولم يدعمهم برأيه، كذلك لم يؤيد خروج إبراهيم أخى محمد النفس الزكية فى البصرة فى نفس السنة. وكان مستند الإمام مالك فى عدم الخروج على الحاكم المتغلب بالقوة هو رجحان المفسدة فى الخروج، وأن الثورة والخروج على الحكام ـ وإن ظلموا وأجبروا الناس على البيعة وأكرهوهم على الطاعة ـ يفرق شمل الأمة وينشر الفوضى.

ولقد حدث بالفعل ما حذر منه الإمام مالك؛ فبعد خروج محمد النفس الزكية حاصر عيسى بن موسى ـ وهو قائد جيش أبى جعفر المنصور ـ المدينة، واستبيحت مدينة رسول الله ﷺ وقتل العباسيون أبناء المهاجرين والأنصار، واضطهد آل على بن أبى طالب رضي الله عنه وقيدوا وجلبوا إلى العراق، وقضى على الخارجين والثائرين،

وقتل محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم رحمهما الله تعالى.

والإمام مالك لا يرى بأساً من قتال العدو تحت راية الحاكم الظالم والمتغلب بالقوة؛ يقول في المدونة الكبرى: «لو ترك هذا لكان ضرراً على أهل الإسلام».

قال له أحد تلامذته يوماً: «إن الناس يستكثرون أنك تدخل على الأمراء، فقال: إن ذلك بالحمل على نفسي وذلك أنه ربما أستشير من لا ينبغي».

فالإمام لا يريد ترك المجال وتهيئة المناخ للجهال والفساق، ويعمل على عدم احتكار أهل الفساد للشورى لدى الأمراء.

ومن أمثلة نصحه للحكام وحثه إياهم على مصالح المسلمين ما قاله عتيق بن يعقوب: «كان مالك إذا دخل على الوالي وعظه وحثه على مصالح المسلمين، ولقد دخل يوماً على هارون الرشيد فحثه على مصالح المسلمين وقال له: لقد بلغني أن عمر بن الخطاب كان في فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة النار تحت القدور، يخرج الدخان من لحيته وقد رضي الناس منكم بدون هذا.

ودخل عليه مرة وبين يديه شطرنج منصوب وهو ينظر فيه، فوقف مالك ولم يجلس، وقال: أحق هذا يا أمير المؤمنين؟

قال: لا.

قال: فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

فرفع هارون رجله وقال: لا ينصب بين يدي بعد».

وقال الحنيني: «سمعت مالكاً يحلف بالله: ما دخلت على أحد من السلاطين إلا أذهب الله هيبته من قلبي، حتى أقول له الحق».

كان أكثر الأئمة الذين ظهروا في عصر الإمام مالك تلامذة له، وقد كان تلاميذه من شتى بقاع الأرض لا يعدون ولا يحصون والذي ساعده على ذلك أنه كان مقيماً بالمدينة المنورة وكان الحجاج يذهبون لزيارة مسجد الرسول ﷺ فيجلسون إليه يتعلمون منه العلم، فمنهم من كان يطول به المقام عنده ومنهم من

كان يقصر به المقام. والذى جعل أيضاً تلاميذ الإمام مالك كثيرين أن مالكاً كان معمراً. وأحصى الذهبى ما يزيد على ألف وأربعمائة تلميذاً، منهم محمد بن إدريس الشافعى، صاحب المذهب الشافعى، عبد الرحمن بن القاسم، عبد الله بن وهب، أشهب بن عبد العزيز القيسى، أسد بن الفرات، عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون، ابن أبى إياس أبو الحسن الخراسانى، ابن الوليد أبو يحمد الحميرى، ابن خداش أبو الهيثم المهلبى، أبو عبد الله اللخمى، سعيد ابن شعبة أبو عثمان الخراسانى، سليمان بن جارود أبو داود الطيالسى، ابن ذكوان أبو عبد الله الترمذى، بن حماد أبو يحيى النرسى، بن جبلة عبدان المروزى، عبد الله بن نافع الزبيرى، بن عمرو القيسى أبو عامر العقدى، وكيع بن جراح أبو سفيان.

وكتابه الموطأ، وهو أهم مؤلفاته وأجل آثاره الذى كتبه بيده حيث اشتغل فى تأليفه ما يقرب من ٤٠ سنة. وهو الكتاب الذى بلغت شهرته الآفاق واعترف الأئمة له بالسبق على كل كتب الحديث فى عهده وبعد عهده إلى عهد الإمامين البخارى ومسلم.

قال الإمام الشافعى: «ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك»، وفى رواية: «أكثر صوابا» وفى رواية: «أنفع». وهذا القول قبل ظهور صحيح البخارى.

قال البخارى أصح الأسانيد فى الموطأ.

قال القاضى أبو بكر بن العربى فى شرح الترمذى: «الموطأ هو الأصل واللباب وكتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى».

ومن كتبه أيضاً:

الرد على القدرية، رسالة فى القدر، كتاب النجوم والحساب مدار الزمن، رسالة فى الأقضية، فى ١٠ أجزاء، تفسير غريب القرآن، مجموعة رسائل فقهية رويت عنه بلغت نحو ٣٦ ألف مسألة، وسميت بالمدونة الكبرى.

وفى وفـاته يقـول بكر بن سليـمـان الصـواف: «دخلنا على مـالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها، فقلنا له: يا أبا عبد الله كيف تجدك؟ قال: ما أدرى كيف أقول لكم، إلا أنكم ستعاينون غداً من عفو الله ما لم يكن فى حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه رحمه الله»[1].

وقيل: إنه تشهد ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد.

توفى مالك بن أنس فى ربيع الأول سنة ١٧٨ هـ الموافق ٧٩٥ م عن عمر يناهز ثلاث وثمانين سنة، حيث صلى عليه أمير المدينة عبد الله بن محمد بن إبراهيم العباسى وشيع جنازته واشترك فى حمل نعشه ودفن فى البقيع.

■ ■ ■



(١) المعارف لابن قتيبة.

١٣ ـ الوزير يحيى بن خالد البرمكى وابنه جعفر والرشيد

سوف يأتى الحديث عن البرامكة ونكبتهم وأزمتهم مع الرشيد ولكننا نتحدث عن أهم شخصيات البرامكة المؤثرة فى حياة الرشيد وهو الوزير يحيى البرمكى وابنه جعفر، يقول ابن كثير:

يحيى بن خالد أبو على الوزير، والد جعفر البرمكى، ضم إليه المهدى ولده الرشيد فرباه، وأرضعته امرأته مع الفضل بن يحيى، فلما ولى الرشيد عرف له حقه، وكان يقول: قال أبى، قال أبى.

وفوض إليه أمور الخلافة وأزمتها، ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة فقتل جعفر وخلد أباه يحيى فى الحبس حتى مات فى ١٩٠ هـ.

وكان كريماً فصيحاً، ذا رأى سديد، يظهر من أموره خير وصلاح.

قال يوماً لولده: خذوا من كل شىء طرفاً، فإن من جهل شيئاً عاداه.

وقال لأولاده: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون.

وكان يقول لهم: إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فإنها لا تبقى، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فإنها لا تبقى.

وكان إذا سأله سائل فى الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتى درهم، فقال رجل يوماً:

يا سمى الحصور يحيى	أتيحت لك من فضل ربنا جنتان
كل من مر فى الطريق عليكم	فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمثلى قليل	هى للفارس العَجْلان

فقال: صدقت.

وأمر فسبق به إلى الدار، فلما رجع سأل عنه فإذا هو قد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف، وعن دار أربعة آلاف، وعن الأمتعة أربعة آلاف.

وكلفه الدخول أربعة آلاف، وأربعة آلاف يستظهر بها.

وجاء رجل يوماً فسأله شيئاً فقال: ويحك! لقد جئتنى فى وقت لا أملك فيه مالا، وقد بعث إلىَّ صاحب لى يطلب منى أن يهدى إلى ما أحب، وقد بلغنى أنك تريد أن تبيع جارية لك، وأنك قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار، وإنى سأطلبها فلا تبعها منه بأقل من ثلاثين ألف دينار.

فجاؤونى فبلغوا معى بالمساومة إلى عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعف قلبى عن ردها، وأجبت إلى بيعها، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار.

فأهداها إلى يحيى، فلما اجتمعت بيحيى قال: بكم بعتها؟

قلت: بعشرين ألف دينار.

فجاؤونى فوصلوا فى ثمنها إلى ثلاثين ألف دينار، فبعتها منهم.

فلما جئته لامنى أيضاً وردها علىّ، فقلت: أشهدك أنها حرة وإنى قد تزوجتها.

وقلت: جارية قد أفادتنى خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم.

وذكر الخطيب أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم، فضاق ذرعاً، وقد توعده بالقتل وخراب الديار إن لم يحملها فى يومه ذلك، فدخل على يحيى بن خالد وذكر أمره فأطلق له خمسة آلاف ألف، واستطلق له من ابنه الفضل ألفى ألف.

وقال لابنه: يا بنى! بلغنى أنك تريد أن تشترى بها ضيعة، وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر.

وأخذ له من ابنه جعفر ألف ألف، ومن جاريته دنانير عقدا اشتراه بمائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار.

وقال للمترسم عليه: قد حسبناه عليك بألفى ألف.

فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد، وكان قد وهبه لجارية يحيى، فلم يعد فيه بعد إذ وهبه.

وقال له بعض بنيه وهم فى السجن والقيود: يا أبت! بعد الأمر والنهى والنعمة صرنا إلى هذا الحال.

فقال: يا بنى! دعوة مظلوم سرت بالليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها.

ثم أنشأ يقول:

رب قوم قد غدوا فى نعمة ... زمنا والدهر ريان غدق

سكت الدهر زمانا عنهم ... ثم أبكاهم دما حين نطق

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجرى على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم، وكان سفيان يدعو له فى سجوده.

يقول: اللهم إنه قد كفانى المؤنة وفرغنى للعبادة فاكفه أمر آخرته.

فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه فى المنام فقال: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لى بدعاء سفيان.

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله فى الحبس فى الرافقة لثلاث خلون من المحرم عام ١٩٠ هـ عن سبعين سنة، وصلى عليه ابنه الفضل، ودفن على شط الفرات، وقد وجد فى جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه: قد تقدم الخصم والمدعى عليه بالأثر، والحاكم الحكم العدل الذى لا يجور ولا يحتاج إلى بينة.

فحملت إلى الرشيد فلما قرأها بكى يومه ذلك، وبقى أياما يتبين الأسى فى وجهه[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير، وقد ذكرنا مواقف يحيى بن خالد مع الرشيد ومساندته له حين خلعه الهادى من ولاية العهد.

كان أبو الفضل البرمكى الوزير السرى الجواد، كان سيد بنى بَرْمَك وأفضلهم جوداً وحلماً ورأياً، وكان من أكمل أهل زمانه أدباً وفصاحة وبلاغة، وأخباره فى الكرم والشرف مشهورة. تقدم على أكثر أهل عصره فى الإنشاء والكتابة.

مما يؤدى عنه أنه قال: ما رأيت رجلاً إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم فى عينى وصدرى وإن قصر سقط من عينى.

وحدث محمد بن صالح الواقدى قال: دخلت على يحيى ابن خالد البرمكى فقلت: إن ههنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفاً، فقال يا محمد: هؤلاء جاءوا يشكرون معروفنا فكيف لنا شكر شكرهم.

وقال: مسألة الملوك عن حالها من سجية النوكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير فقل: صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة، وإذا كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة فإن الملوك لا تسأل ولا تشمت ولا تكيف وأنشد:

إن الملوك لا يخاطبونا ... ولا إذا ملوا يعاتبونا

وفى المقال لا ينازعونا ... وفى العطاس لا يشمتونا

وفى الخطاب لا يكيفونا ... يثنى عليهم ويبجلونا

وافهم وصاتى ... لا تكن مجنونا

وقيل له: أى الأشياء أقل؟

قال: قناعة ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع، وسكون النفس إلى المدح.

وقيل له ما الكرم؟

فقال: ملك فى زى مسكين: قيل له فما اللؤم؟

قال: مسكين فى بطش عفريت. قيل فما الجود؟

قال: عفو بعد مقدرة.

وقال: من ولى ولاية فتاه فيها فقدره دونها.

وقال: إذا فتحت بينك وبين المعروف فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة، إذا أردت أن تنظر مروءة المرء فانظر إلى، كانت حسنة فاحكم له بالشرف، وإن رأيت فما وراءها خير.

وقال: أحسن جبلة الولاة إصابة السياسة، ورأس إصابة السياسة العمل لطاعة الله وفتح بابين لرعية، أحدهما رأفة ورحمة وبدل وتحنن، والآخر غلظة ومباعدة وإمساك ومنع.

وقال: العذر الصادق مع النية الحسنة يقومان مقام النجح.

وقال: ما سقط غبار موكبى على أحد إلا وجب على حقه.

وقال الفضل له: يا أبت، ما لنا نسدى إلى الناس المعروف فلا يتبين فيهم كتبينه ببر غيرنا؟ قال آمال الناس فينا أعظم من آمالهم فى غيرنا، وإنما يسر الإنسان ما بلغه أمله.

وقال: أنا مخير فى الإحسان إلى أحسن إليه، ومرتهن بالإحسان إلى من أحسنت إليه، لأنى إن وصلته فقد أتمته، وإن قطعته فقد أهدرته.

وقال: الخط صورة روحها البيان، ويدها السرعة، وقدمها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول.

أما ابنه جعفر فكان أخا الرشيد من الرضاعة ونديمه ووزيره وكان يرافقه فى سفره وجليسه ولا يفارقه حتى حدثت الوحشة بينهما فأمر الرشيد بقتله فقتل فى نكبة البرامكة كما سيأتى ذكر ذلك فى حينه ولا يعلم أحد من المؤرخين حقيقة الأمر، ولماذا أمر الرشيد بقتله حتى أنهم زعموا زوراً أن سبب قتله أنه تزوج من العباسة أخت الرشيد دون موافقة منه وأنجب منها وهذا لم يثبت كما ذكرنا ولعل السبب الحقيقى هو سبب سياسى يخص الحكم والدولة وتزايد نفوذ البرامكة فى عصر الرشيد والله أعلم.

١٤ ـ الفُضَيْل بن عياض: عابد الحرمين ١٠٧ هـ ـ ١٨٧ هـ

الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو على التميمى اليربوعى الخراسانى المروزى المجاور بحرم الله.

قال الإمام الذهبى فى سير أعلام النبلاء:

عن الفضل بن موسى قال: كان الفضيل بن عياض شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها، إذ سمع تاليا يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحديد: ١٦) فلما سمعها، قال: بلى يا رب، قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا.

قال ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل فى المعاصى، وقوم من المسلمين ههنا، يخافوننى، وما أرى الله ساقنى إليهم إلا لأرتدع، اللهم إنى قد تبت إليك، وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام.

وقال الإمام الذهبى تعليقاً على القصة:

وبكل حال: فالشرك أعظم من قطع الطريق، وقد تاب من الشرك خلق صاروا أفضل الأمة، فنواصى العباد بيد الله، وهو يضل من يشاء، ويهدى إليه من أناب.

ـ موقف للفضيل مع هارون الرشيد:

عن محمد بن عبد الله الأنبارى، قال: سمعت فضيلاً يقول: لما قدم هارون الرشيد إلى مكة قعد فى الحِجْر[1] هو وولده، وقوم من الهاشميين، وأحضروا

(١) الحِجْر: هو حجر إسماعيل ويقال له الحطيم وهو جزء من الكعبة المشرفة.

المشايخ، فبعثوا إلىّ فأردت ألا أذهب، فاستشرت جارى، فقال: اذهب لعله يريد أن تعظه، فدخلت المسجد، فلما صرت إلى الحجر، قلت لأدناهم: أيكم أمير المؤمنين؟

فأشار إليه، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فرد على، وقال: اقعد، ثم قال: إنما دعوناك لتحدثنا بشيء، وتعظنا، فأقبلت عليه.

فقلت: يا حسن الوجه، حساب الخلق كلهم عليك.

فجعل يبكى ويشهق، فرددت عليه، وهو يبكى، حتى جاء الخادم فحملونى وأخرجونى، وقال: اذهب بسلام.

قال الذهبى:

وعنه: يا مسكين، أنت مسيء وترى أنك محسن، وأنت جاهل وترى أنك عالم، وتبخل وترى أنك كريم، وأحمق وترى أنك عاقل، أجلك قصير، وأملك طويل.

- رسالة ابن المبارك إلى الفضيل بن عياض:

روى الحافظ ابن عساكر عن محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة قال: أملى علىَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وأنشدها إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوى غبار خيل الله فى ... أنف امرئ ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام، فلما ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟

قال: قلت: نعم.

قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبى عبد الرحمن إلينا، وأملى علىّ الفضيل بن عياض:

حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله، فقال: «هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟» فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبى ﷺ: «فوالذى نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله، أو ما علمت أن الفرس المجاهد ليستن فى طوله فيكتب له بذلك الحسنات[1]!؟

روى عن الأعمش والثورى ومنصور بن المعتمر وهشام بن حسان وسليمان التيمى وعوف الأعرابى وغيرهم وروى عنه الثورى وابن عيينة والشافعى وابن المبارك والحميدى ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدى وقتيبة بن سعيد وغيرهم.

قال سفيان بن عيينة: فضيل ثقة.

وكان يقبل يده (أى سفيان بن عيينة).

قال النسائى: ثقة مأمون رجل صالح.

قال عبد الله بن المبارك: ما بقى على ظهر الأرض عندى أفضل من فضيل بن عياض.

وقال الذهبى: الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام.

قال ابن حجر: ثقة عابد إمام.

من أحواله وأقواله:

قال: من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

قال: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

قال: الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحاً، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل.

قيل له: ما الزهد؟ قال: القنوع. قيل: ما الورع؟ قال: اجتناب المحارم. قيل: ما العبادة؟ قال: أداء الفرائض. قيل: ما التواضع؟ قال: أن تخضع للحق.

قال: لو أن لى دعوة مستجابة ما جعلتها إلا فى السلطان قيل له: يا أبا على فسر لنا هذا، قال: إذا جعلتها فى نفسى لم تعدنى، وإذا جعلتها فى السلطان صلح فصلح بصلاحه العباد والبلاد.

قال: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله.

قال: من استوحش من الوحدة واستأنس بالناس لم يسلم من الرياء، لا حج ولا جهاد أشد من حبس اللسان، وليس أحد أشد غما ممن سجن لسانه.

قال: كفى بالله محبا، وبالقرآن مؤنسا، وبالموت واعظا.

قال: خصلتان تقسيان القلب، كثرة الكلام، وكثرة الأكل.

توفى الفضيل سنة سبع وثمانين ومائة ١٨٧ هـ.

قال الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء عنه:

الفضيل بن عياض ابن مسعود بن بشر الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام أبو على التميمى اليربوعى الخراسانى المجاور بحرم الله ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد وارتحل فى طلب العلم فكتب بالكوفة عن منصور والأعمش وبيان بن بشر وحصين بن عبد الرحمن وليث وعطاء بن السائب وصفوان بن سليم وعبد العزيز بن رفيع وأبى إسحاق الشيبانى ويحيى بن سعيد الأنصارى وهشام بن حسان وابن

أبى ليلى ومجالد وأشعث بن سوار وجعفر الصادق وحميد الطويل وخلق سواهم من الكوفيين والحجازيين.

حدث عنه ابن المبارك ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدى وابن عيينة والأصمعى وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدى ابن هلال شيخ واسطى وحسين الجعفى وأسد السنة والشافعى وأحمد بن يونس ويحيى بن يحيى التميمى وابن وهب ومسدد وقتيبة وبشر الحافى والسرى بن مغلس السقطى وأحمد بن المقدام وعبيد الله القواريرى ومحمد بن زنبور المكى ولوين ومحمد بن يحيى العدنى والحميدى وعبد الصمد بن يزيد مردويه وعبدة بن عبد الرحيم المرزوى ومحمد بن أبى السرى العسقلانى ومحمد بن قدامة المصيصى ويحيى بن أيوب المقابرى وخلق كثير آخرهم موتا الحسين ابن داود البلخى.

وروى عنه سفيان الثورى أجل شيوخه وبينهما فى الموت مئة وأربعون عاما.

وقال إبراهيم بن محمد الشافعى سمعت سفيان بن عيينة يقول فضيل ثقة وقال أبو عبيد قال ابن مهدى فضيل رجل صالح ولم يكن بحافظ وقال العجلى كوفى ثقة متعبد رجل صالح سكن مكة وقال محمد بن عبد الله بن عمار ليت فضيلاً كان يحدثك بما يعرف قيل لابن عمار ترى حديثه حجة قال سبحان الله وقال أبو حاتم صدوق وقال النسائى ثقة مأمون رجل صالح.

وقال الدارقطنى ثقة قال محمد بنْ سعد ولد بخراسان بكورة أبيورد وقدم الكوفة وهو كبير فسمع من منصور وغيره ثم تعبد وانتقل إلى مكة ونزلها إلى أن مات بها فى أول سنة سبع وثمانين ومئة فى خلافة هارون وكان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً كثير الحديث.

وقال أبو وهب محمد بن مزاحم سمعت ابن المبارك يقول رأيت أعبد الناس عبد العزيز بن أبى رواد وأورع الناس الفضيل بن عياض وأعلم الناس سفيان الثورى وأفقه الناس أبا حنيفة ما رأيت فى الفقه مثله، وروى إبراهيم بن شماس عن ابن المبارك قال ما بقى على ظهر الأرض عندى أفضل من الفضيل بن عياض.

قال نصر بن المغيرة البخارى سمعت إبراهيم بن شماس يقول رأيت أفقه الناس وأورع الناس وأحفظ الناس وكيعا والفضيل وابن المبارك.

وقال عبيد الله القواريرى أفضل من رأيت من المشايخ بشر بن منصور وفضيل بن عياض وعون بن معمر وحمزة بن نجيح قلت عون وحمزة لا يكادان يعرفان وكانا عابدين.

قال النصر بن شميل سمعت الرشيد يقول ما رأيت فى العلماء أهيب من مالك ولا أورع من الفضيل.

وروى أحمد بن الحوارى، عن الهيثم بن جميل سمعت شريكا يقول لم يزل لكل قوم حجة فى أهل زمانهم وإن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه، فقام فتى من مجلس الهيثم فلما توارى.

قال الهيثم: إن عاش هذا الفتى يكون حجة لأهل زمانه.

قيل من كان الفتى؟!.

قال: أحمد بن حنبل.

قال عبد الصمد مردويه الصائغ: قال لى ابن المبارك إن الفضيل بن عياض صدق الله فأجرى الحكمة على لسانه فالفضيل ممن نفعه علمه.

وقال أبو بكر عبد الرحمن بن عفان سمعت ابن المبارك يقول لأبى مريم القاضى ما بقى فى الحجاز أحد من الأبدال إلا فضيل بن عياض وابنه على وعلى مقدم فى الخوف وما أبقى أحد فى بلاد الشام إلا يوسف ابن أسباط وأبو معاوية الأسود وما بقى أحد بخراسان إلا شيخ حائك يقال له معدان.

قال: أبو بكر المقاريضى المذكر سمعت بشر بن الحارث يقول: عشرة من كانوا يأكلون الحلال لا يدخلون بطونهم إلا حلالا ولو استفوا التراب والرماد.

قلت: من هم يا أبا نصر قال سفيان وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وابنه وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط وأبو معاوية نجيح الخادم وحذيفة

المرعشى وداود الطائى ووهيب بن الورد.

وقال إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحدا كان الله فى صدره أعظم من الفضيل.

كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره وكان دائم الحزن شديد الفكرة ما رأيت رجلا يريد الله بعلمه وعمله وأخذه وعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره كنا إذا خرجنا معه فى جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكى كأنه مودع أصحابه ذاهب إلى الآخرة حتى يبلغ المقابر فيجلس مكانه بين الموتى من الحزن والبكاء حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها.

وقال عبد الصمد بن يزيد مردويه: سمعت الفضيل يقول لم يتزين الناس بشىء أفضل من الصدق وطلب الحلال.

فقال: ابنه على يا أبت إن الحلال عزيز.

قال: يا بنى وإن قليله عند الله كثير.

قال سرى بن المغلس: سمعت الفضيل يقول من خاف الله لم يضره أحد ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد.

وقال فيض بن إسحاق سمعت الفضيل بن عياض وسأله عبدالله بن مالك يا أبا على ما الخلاص مما نحن فيه قال أخبرنى من أطاع الله هل تضره معصية أحد؟ قال لا قال فمن يعصى الله هل تنفعه طاعة أحد؟ قال لا قال هو الخلاص إن أردت الخلاص.

قال إبراهيم بن الأشعث: سمعت الفُضَيْل يقول رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله وزهادته فى الدنيا على قدر رغبته فى الآخرة، من عمل بما علم استغنى عما لا يعلم ومن عمل بما علم وفقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته، وسمعته يقول أكذب الناس العائد فى ذنبه وأجهل الناس المدل بحسناته، وأعلم الناس بالله أخوفهم منه لن يكمل عبد حتى يؤثر دينه على

شهوته ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه.

وقال محمد بن عبدويه سمعت الفضيل يقول ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعاقبك الله عنهما.

قال سلم بن عبد الله الخراسانى سمعت الفضيل يقول إنما أمس مثل واليوم عمل وغدا أمل.

وقال فيض بن إسحاق: قال الفضيل والله ما يحل لك أن تؤذى كلبا ولا خنزيرا بغير حق فكيف تؤذى مسلما.

وعن فضيل لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه وعنه بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

عن إسحاق بن إبراهيم الطبرى قال ما رأيت أحدا أخوف على نفسه ولا أرجى للناس من الفضيل كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنسانا وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها وسأل، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعدا يلقى له الحصير فى مسجده فيصلى فى أول الليل ساعة ثم تغلبه عينيه فيلقى نفسه على الحصير فينام قليلا ثم يقوم فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم هكذا حتى يصبح وكان دأبه إذا نعس أن ينام ويقال أشد العبادة ما كان هكذا، وكان صحيح الحديث صدوق اللسان شديد الهيبة للحديث إذا حدث وكان يثقل عليه الحديث جدا وربما قال لى لو أنك طلبت منى الدنانير كان أيسر علىَّ من أن تطلب منى الحديث.

فقلت لو حدثتنى بأحاديث فوائد ليست عندى كان أحب إلى من أن تهب لى عددها دنانير قال:

إنك مفتون أما والله لو عملت بما سمعت لكان لك فى ذلك شغل عما لم تسمع.

قال محمد بن على بن شقيق: حدثنا أبو إسحاق: قال الفضيل لو خيرت بين أن أعيش كلبا وأموت كلبا ولا أرى يوم القيامة لاخترت ذلك!!

وقال فيض بن إسحاق سمعت الفضيل يقول والله لأن أكون ترابا أحب إلى من أن أكون فى مسلاخ - حياة - أفضل أهل الأرض وما يسرنى أن أعرف الأمر حق معرفته إذا لطاش عقلى.

وقال إسحاق بن إبراهيم الطبرى سمعت الفضيل يقول لو قلت إنك تخاف الموت ما قبلت منك لو خفت الموت ما نفعك طعام ولا شراب ولا شىء ما يسرنى أن أعرف الأمر حق معرفته إذا لطاش عقلى ولم أنتفع بشىء.

وقال إبراهيم بن الأشعث سمعت الفضيل يقول من أحب أن يذكر لم يذكر، ومن كره أن يذكر ذكر وسمعته وقد أفضنا من عرفات يقول واسوأتاه والله منك وإن عفوت وسمعته يقول الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحا فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل قلت وذلك لقوله لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله.

روى أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى عن على بن الحسن قال بلغ الفضيل أن حريزا يريد أن يأتيه فأقفل الباب من خارج فجاء فرأى الباب مقفلاً فرجع فأتيته فقلت له حريز قال ما يصنع بى يظهر لى محاسن كلامه وأظهر له محاسن كلامى فلا يتزين لى ولا أتزين له خير له.

ثم قال على ما رأيت أنصح للمسلمين ولا أخوف منه ولقد رأيته فى المنام قائماً على صندوق يعطى المصاحف والناس حوله فيهم سفيان بن عيينة وهارون أمير المؤمنين فما رأيته يودع أحداً فيقدر أن يتم وداعه.

قال فيض بن وثيق سمعت الفضيل يقول إن استطعت ألا تكون محدثاً ولا قارئاً ولا متكلماً إن كنت بليغاً قالوا ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته فيعجبك ذلك فتنتفخ وإن لم تكن بليغاً ولا حسن الصوت قالوا ليس يحسن يحدث وليس صوته بحسن أحزنك ذلك وشق عليك فتكون مرائياً وإذا جلست فتكلمت فلم تبال من ذمك ومن مدحك فتكلم.

وقال محمد بن زنبور قال الفضيل: لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالى من أكل الدنيا وقيل له ما الزهد قال القنوع، قيل ما الورع قال اجتناب المحارم قيل ما

العبادة. قال: أداء الفرائض. قيل ما التواضع قال أن تخضع للحق.

وقال: أشد الورع فى اللسان قلت هكذا هو فقد ترى الرجل ورعا فى مأكله وملبسه ومعاملته وإذا تحدث يدخل عليه الداخل من حديثه فإما أن يتحرى الصدق فلا يكمل الصدق وإما أن يصدق فينمق حديثه ليمدح على الفصاحة وإما أن يظهر أحسن ما عنده ليعظم وإما أن يسكت فى موضع الكلام ليثنى عليه ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة.

قال ابن عيينة سمعت الفُضَيْل بن عياض يقول يُغفر للجاهل سبعون ذنبا ما لا يُغفر للعالم ذنب واحد.

قال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو جعفر الحذاء: سمعت الفضيل يقول أخذت بيد سفيان بن عيينة فى هذا الوادى فقلت إن كنت تظن أنه بقى على وجه الأرض شر منى ومنك فبئس ما تظن.

قال عبد الصمد مردويه سمعت الفضيل يقول من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه لا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله عمل نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب ونظر الرجل إلى صاحب بدعة يورث العمى من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة.

قال أبو العباس السراج حدثنى أبو النضر إسماعيل بن عبد الله حدثنا يحيى بن يوسف الزمى عن فضيل بن عياض قال: لما دخل على هارون أمير المؤمنين قلت يا حسن الوجه لقد كلفت أمراً عظيماً أما إنى ما رأيت أحداً أحسن وجها منك فإن قدرت ألا تسود هذا الوجه بلفحة من النار فافعل.

قال: عظنى قلت بماذا أعظك هذا كتاب الله بين الدفتين انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه إنى رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ويطلبونها طلباً حثيثاً أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها.

وقال: عد إلىَّ.

فقال لو لم تبعث إلى لم آتك وإن انتفعت بما سمعت عدت إليك.

قال إبراهيم بن الأشعث سمعت الفضيل يقول فى مرضه ارحمنى بحبى إياك فليس شىء إلى منك.

وسمعته يقول وهو يشتكى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين.

وسمعته يقول من استوحش من الوحدة واستأنس بالناس لم يسلم من الرياء لا حج ولا جهاد أشد من حبس اللسان وليس أحد أشد غما ممن سجن لسانه.

قال الحسين بن زياد سمعت الفضيل كثيراً يقول احفظ لسانك وأقبل على شانك واعرف زمانك واخف مكانك.

وقال أحمد بن إبراهيم الدورقى حدثنا الفَيْضُ بن إسحاق سمعت الفضيل يقول وددت أنه طار فى الناس أنى مت حتى لا أذكر إنى لأسمع صوت أصحاب الحديث فيأخذنى البول فرقا منهم.

وقال الدورقى حدثنا الحسين بن زياد سمعت فضيلا يقول لأصحاب الحديث لم تكرهونى على أمر تعلمون أنى كاره له يعنى الرواية لو كنت عبداً لكم فكرهتكم كان نولى أن تبيعونى لو أعلم أنى إذا دفعت ردائى هذا إليكم ذهبتم عنى لفعلت.

وقال إسحاق بن إبراهيم سمعت الفضيل يخاطب نفسه ما أراه أخرجك من الحل فدسك فى الحرم إلا ليضعف عليك الذنب أما تستحى تذكر الدينار والدرهم وأنت حول البيت إنما كان يأتيه التائب والمستجير.

وعن الفضيل قال: المؤمن يغبط ولا يحسد، الغبطة من الإيمان والحسد من النفاق.

هذا يفسر قوله عليه الصلاة والتسليم لا حسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله مالاً ينفقه فى الحق ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار فالحسد هنا معناه الغبطة أن تحسدوا أخاك على ما آتاه الله لا أنك تحسده بمعنى أنك تود زوال ذلك عنه فهذا بغى وخبث.

وعن الفضيل قال من أخلاق الأنبياء الحلم والأناة وقيام الليل.

وعن ابن أبى عمر قال ما رأيت بعد الفضيل أعبد من وكيع قال إبراهيم بن

الأشعث رأيت سفيان بن عيينة يقبل يد الفُضَيْل مرتين وعن ابن المبارك قال إذا نظرت إلى الفضيل جدد لى الحزن ومقت نفسى ثم بكى.

قال يحيى بن أيوب دخلت مع زافر بن سليمان على الفضيل بن عياض فإذا معه شيخ فدخل زافر وأقعدنى على الباب قال زافر فجعل الفضيل ينظر إلىَّ ثم قال هؤلاء المحدثون يعجبهم قرب الإسناد ألا أخبرك بإسناد لا شك فيه رسول الله عن جبريل عن الله «ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد» فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس ثم غشى عليه وعلى الشيخ وجعل زافر ينظر إليهما.

ثم خرج الفضيل وقمنا والشيخ مغشى عليه قال سهل بن راهويه قلت لابن عيينة ألا ترى إلى الفضيل لا تكاد تجف له دمعة قال إذا قرح القلب نديت العينان.

قال الأصمعى نظر الفضيل إلى رجل يشكو إلى رجل فقال يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك.

قال الفيض قال لى الفضيل لو قيل لك امرأتى غضبت وشق عليك وعسى ما قيل لك حق تزينت للدنيا وتصنعت وقصرت ثيابك وحسنت سمتك وكففت أذاك حتى يقال أبو فلان عابد ما أحسن سمته فيكرمونك وينظرونك ويقصدونك ويهدون إليك مثل الدرهم الستوق(١) لا يعرفه كل أحد فإذا قشر قشر عن نحاس.

عن إبراهيم بن الأشعث سمعت الفضيل يقول بلغنى أن العلماء فيما مضى كانوا إذا تعلموا عملوا وإذا عملوا شغلوا وإذا شغلوا فقدوا وإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا وعنه قال كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا وبخشية الله علما وبالاغترار جهلا وعنه خصلتان تقسيان القلب كثرة الكلام وكثرة الأكل وعنه كيف ترى حال من كثرت ذنوبه وضعف علمه وفنى عمره ولم يتزود لمعاده وعنه يا مسكين أنت مسىء وترى أنك محسن وأنت جاهل وترى أنك عالم وتبخل وترى أنك كريم وأحمق وترى أنك عاقل، أجلك قصير وأملك طويل، قلت أى والله صدق وأنت ظالم وترى أنك مظلوم وآكل للحرام وترى أنك متورع وفاسق وتعتقد أنك عدل وطالب العلم للدنيا وترى أنك تطلبه لله.

(١) الزائف الذى لا قيمة له.

هارون الرشيد
مع الفضيل بن عياض

عن الفضل بن الربيع قال: حج أمير المؤمنين هارون الرشيد فأتانى فخرجت مسرعا.

فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك.

فقال: ويحك قد حك فى نفسى شىء فانظر لى رجلاً أسأله.

فقلت: ههنا سفيان بن عيينة.

فقال: امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعت الباب فقال: من ذا؟

فقلت: أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا.

فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك.

فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله

فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين؟ قال نعم فقال: أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عنى صاحبك شيئا انظر لى رجلا أسأله.

فقلت له ههنا عبد الرزاق بن همام قال امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب.

فقال: من هذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعا.

فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أتيتك قال خذ لما جئناك له.

فحدثه ساعة ثم قال له: عليك دين قال نعم قال: أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا.

قال: ما أغنى صاحبك شيئا انظر لى رجلا أسأله.

قلت: ههنا الفضيل ابن عياض.

قال: امض بنا إليه فأتيناه فإذا وهو قائم يصلى يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب فقرعت الباب.

فقال: من هذا فقلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال: ما لى ولأمير المؤمنين.

فقلت: سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روى عن النبى ﷺ أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلى إليه.

فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل.

فقلت فى نفسى ليكلمنه الليلة بكلام نقى من تقى.

فقال: له خذ لما جئناك له رحمك الله.

فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء ابن حيوة فقال لهم إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على. فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله (إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت) وقال له محمد بن كعب القرظى (إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك).

وقال له رجاء بن حيوة (إن أردت النجاة غداً من عذاب الله عز وجل فأحب

للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت) وإنى أقول لك إنى أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشى عليه فقلت له أرفق بأمير المؤمنين.

فقال: يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ثم أفاق.

فقال له: زدنى رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر يا أخى أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له ما أقدمك قال خلعت قلبى بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل.

قال فبكى هارون بكاء شديدا ثم قال له: زدنى رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله أمرنى على إمارة فقال له النبى ﷺ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل.

فبكى هارون بكاء شديدا وقال له: زدنى رحمك الله.

فقال: يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبى ﷺ قال: من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة.

فبكى هارون وقال له: عليك دين؟

قال: نعم دين لربى يحاسبنى عليه فالويل لى إن سألنى والويل لى إن ناقشنى والويل لى إن ألهم حجتى.

قال: إنما أعنى دين العباد.

قال إن ربى لم يأمرنى بهذا، أمر ربى أن أوحده وأطيع أمره فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨).

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك.

فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب.

قال هارون: أبا عباس إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به.

فقال لها: مثلى ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال فلما علم الفضيل خرج فجلس فى السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء.

فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا[1].

وقال محرز بن عون كنت مع الفضيل فأتى هارون ومعه يحيى بن خالد وولده جعفر فقال له يحيى يا أبا على هذا أمير المؤمنين يسلم عليك قال أيكم هو قالوا هذا فقال يا حسن الوجه لقد طوقت أمراً عظيماً وكررها.

ثم قال حدثنى عبيد المكتب عن مجاهد فى قوله «وتقطعت بهم الأسباب»

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى.

البقرة قال الأوصال التى كانت فى الدنيا وأومأ بيده إليهم.

قال عبد الله بن خبيق قال الفضيل تباعد من القراء فإنهم إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك وإن غضبوا شهدوا عليك وقبل منهم قال قطبة بن العلاء سمعت الفضيل يقول آفة القراء العجب وللفضيل رحمه الله مواعظ وقدم فى التقوى راسخ وله ترجمة فى كتاب الحلية.

وفى تاريخ أبى القاسم ابن عساكر وكان يعيش من صلة ابن المبارك ونحوه من أهل الخير ويمتنع من جوائز الملوك قال بعضهم كنا جلوسا عند الفضيل بن عياض فقلنا له: كم سنك.

فقال:

بلغت الثمانين أو جزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظر

علتنى السنون فأبليتنى ... فدق العظامُ وكَلَّ البصر[1]

■ ■ ■

(١) انظر سير أعلام النبلاء ـ مصدر سابق.

١٥ ـ الوزير جعفر بن يحيى البرمكى

قال الذهبى عنه فى كتابه سير أعلام النبلاء:

البرمكى الوزير الملك أبو الفضل جعفر ابن الوزير الكبير أبى على يحيى ابن الوزير خالد ابن برمك الفارسى كان خالد من رجال العلم توصل إلى أعلى المراتب فى دولة أبى جعفر ثم كان ابنه يحيى كامل السؤدد جليل المقدار بحيث إن المهدى ضم إليه ولده الرشيد فأحسن تربيته وأدبه فلما أفضت الخلافة إلى الرشيد رد إلى يحيى مقاليد الأمور ورفع محله وكان يخاطبه يا أبى فكان من أعظم الوزراء.

ونشأ له أولاد صاروا ملوكاً ولا سيما جعفر وما أدراك ما جعفر له نبأ عجيب وشأن غريب بقى فى الارتقاء فى رتبة شرك الخليفة فى أمواله ولذاته وتصرفه فى الممالك ثم انقلب الدست فى يوم فقُتل وسجن أبوه وإخوته إلى الممات فما أجهل من يغتر بالدنيا.

وقال الأصمعى سمعت يحيى بن خالد يقول الدنيا دِوَلٌ والمال عاريةٌ ولنا بمن قبلنا أُسوة وفينا لمن بعدنا عبرة.

فأما جعفر فكان من ملاح زمانه كان وسيما أبيض جميلا فصيحا مفوها أديبا عذب العبارة حاتمى السخاء وكان لعابا غارقا فى لذات دنياه ولى نيابة دمشق فقدمها فى سنة ثمانين ومئة.

فكان يستخلف عليها ويلازم هارون وكان يقول إذا أقبلت الدنيا عليك فأعط فإنها لا تفنى وإذا أدبرت فأعط فإنها لا تبقى.

قال ابن جرير هاجت العصبية بالشام وتفاقم الأمر فاغتم الرشيد فعقد لجعفر وقال إما أن تخرج أو أخرج فسار فقتل فيهم وهذبهم ولم يدع لهم رمحا ولا قوسا فهجم الأمر واستخلف على دمشق عيسى بن المعلى ورد.

قال الخطيب كان جعفر عند الرشيد بحالة لم يشاركه فيها أحد وجوده أشهر من أن يذكر وكان من ذوى اللسن والبلاغة يقال إنه وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ونظر فى جميعها فلم يخرج شيئا منها عن موجب الفقه.

كان أبوه قد ضمه إلى القاضى أبى يوسف حتى فقه وعن ثمامة بن أشرس قال ما رأيت أبلغ من جعفر البرمكى والمأمون قيل اعتذر إلى جعفر رجل فقال قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار علينا وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك.

قال جحظة حدثنا ميمون بن مهران حدثنى الرشيدى حدثنى مهذب حاجب العباس بن محمد يعنى أخا المنصور أن العباس نالته إضافة فأخرج سفطا فيه جوهر بألف ألف فحمله إلى جعفر وقال أريد عليه خمسين مئة ألف.

قال: نعم.

وأخذ السفط فلما رجع العباس إلى داره وجد السفط قد سبقه ومعه ألف ألف ودخل جعفر على الرشيد فخاطبه فى العباس فأمر له بثلاث مئة ألف دينار.

وعن إبراهيم الموصلى قال حج الرشيد وجعفر وأنا معهم فقال لى جعفر انظر لى جارية لا مثل لها فى الغناء والظرف.

قال فأرشدت إلى جارية لم أر مثلها وغنت فأجادت فقال مولاها لا أبيعها بأقل من أربعين ألف دينار قلت قد أخذتها فأعجب بها جعفر.

فقالت الجارية: يا مولاى فى أى شىء أنت.

قال: قد عرفت ما كنا فيه من النعمة فأردت أن تصيرى إلى هذا الملك فتسعدى.

قالت: لو ملكت منك ما ملكت منى ما بعتك بالدنيا فاذكر العهد وقد كان حلف أن لا يأكل لها ثمناً.

فتغرغرت عيناه وقال لجعفر أشهدوا أنها حرة وأنى قد تزوجتها وأمهرتها دارى فقال جعفر انهض بنا فدعوت الحمالين لنقل الذهب فقال جعفر والله لا

صحبنا مئة درهم وقال لولاها أنفقه عليكما قيل كان فى خزائن جعفر دنانير زنة الواحد مئة مثقال كان يرمى بها إلى أصطحة الناس سكتة.

وأصـفـر من ضـرب دار الملوك   يلوح على وجـهـه جـعـفـر

يزيد على مـئـة واحـدا   مـتى يعطه مـعـسـر يوسـر

وقيل بل الشعر لأبى العتاهية وكان على الدينار صورة جعفر.

قال صاحب الأغانى أخبرنا عبد الله بن الربيع حدثنى أحمد بن إسماعيل عن محمد بن جعفر قال شهدت أبى يحدث جدى وأنا صغير قال أخذ بيدى أمير المؤمنين فأقبل يخترق الحجر حتى انتهينا إلى حجرة ففتحها ودخلنا فأغلقها وقعدنا على باب ونقره فسمعت صوت عود فغنت امرأة فأجادت فطربت والله ثم غنت فرقصنا معاً وخرجنا فقال لى أتعرف هذه.

قلت: لا.

قال: عُلية أختى والله لئن لفظت به لأقتلنك.

فقال له جدى لئن لفظت به والله ليقتلنك[1].

قد اختلف فى سبب مصرع جعفر على أقوال فقيل إن جبريل ابن بختيشوع الطبيب قال إنى لقاعد عند الرشيد فدخل يحيى بن خالد وكان يدخل بلا إذن فسلم فرد الرشيد رداً ضعيفاً فوجم يحيى فقال هارون يا جبريل يدخل عليك أحد بلا إذن قلت لا قال فما بالنا فوثب يحيى وقال قدمنى الله يا أمير المؤمنين قبلك والله ما هو إلا شىء خصصتنى به والآن فتبت فاستحيا الرشيد وقال ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون وقيل إن ثمامة قال أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه وفيها إن يحيى لا يغنى عنك من الله شيئا فأوقف الرشيد يحيى على الرسالة.

وقال أتعرف محمد بن الليث.

---

(١) وهذه الرواية ومثلها فى كتاب الأغانى للأصفهانى.

قال نعم هو متهم على الإسلام.

فسجنه فلما نكبت البرامكة أحضره وقال أتحبنى قال لا والله قال أتقول هذا قال نعم وضعت فى رجلى القيد وحلت بينى وبين عيالى بلا ذنب سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله ويحب الإلحاد وأهله فأطلقه.

وقال أتحبنى قال لا ولا أبغضك فأمر له بمئة ألف.

وقال أتحبنى.

قال نعم.

قال انتقم الله ممن ظلمك فقال الناس فى البرامكة وكثروا.

وقيل إن يحيى دخل بعد على الرشيد فقال للغلمان لا تقولوا له فاربد لون يحيى.

وقيل بل سبب قتل جعفر أن الرشيد سلم له يحيى بن عبد الله بن حسن العلوى فرق له وأطلقه سراً فجاء رجل ينعته إلى الرشيد وأنه رآه بحلوان فأعطى الرجل مالا وقيل بل أنشأ جعفر دارا أنفق عليها عشرين ألف ألف درهم فأسرف.

وقيل اعتمر يحيى بن خالد فتعلق بالأستار وقال رب ذنوبى عظيمة فإن كنت معاقبى فاجعل عقوبتى فى الدنيا وإن أحاط ذلك بسمعى وبصرى ومالى وولدى حتى أبلغ رضاك.

فقدح الأمير ابن ماهان عند الرشيد فى موسى بن يحيى بن خالد وأعلمه طاعة أهل خراسان له وأنه يكاتبهم فاستوحش الرشيد منه وركبه دين فاختفى من الغرماء فتوهم الرشيد أنه سار إلى خراسان ثم ظهر فسجنه فهذا أول نكبتهم فأتت أمه تلاطف الرشيد.

فقال يضمنه أبوه فضمنه.

وغضب الرشيد أيضاً على الفضل بن يحيى لتركه الشرب معه وكان الفضل يقول لو علمت أن شرب الماء ينقص مروءتى لتركته وكان مشغوفا بالسماع وكان جعفر ينادم الرشيد ويأمره أبوه بالإقلال من ذلك فلا يسمع.

وقال يحيى: يا أمير المؤمنين أنا أكره مداخل جعفر معك فلو اقتصرت به على الإمرة دون العشرة.

قال: يا أبت ليس ذا بك بل تريد أن تقدم الفضل عليه.

حدثنا أحمد بن زهير أظنه عن عمه زاهر بن حرب أن سبب هلاك البرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وأخته عباسة وكان يحضرهما مجلس الشراب فيقوم هو فقال أزوجكها على ألا تمسها قال فكانا يثملان ويذهب الرشيد ويثب جعفر عليها فولدت منه غلاما فوجهته إلى مكة فاختفى الأمر ثم ضربت جارية لها فوشت بها فلما حج الرشيد هم بقتل الطفل ثم تأثم من ذلك فلما وصل إلى الحيرة[1]. بعث إلى مسرور الخادم ومعه أبو عصمة وأجناد فأحاطوا بجعفر ليلاً فدخل عليه مسرور وهو في مجلس لهو فأخرجه بعنف وقيده بقيد حمار وأتى به فأمر الرشيد بقتله وعن مسرور قال وقع على رجلي يقبلها وقال دعني أدخل فأوصي قلت لا سبيل إلى ذا فأوص بما شئت فأوصى وأعتق مماليكه ثم ذبحته بعد أن راجعت فيه الرشيد وجئته برأسه ووجه الرشيد جنداً إلى أبيه فأحاطوا به وبأولاده ومواليه وأخذت أموالهم وأملاكهم وبعثت جثة جعفر إلى بغداد فصلب ونودي ألا لا أمان لمن آوى برمكيا.

وصلب الرشيد أنس بن أبي شيخ على الزندقة وكان مختصاً بالبرامكة.

وسُئل سعيد بن سالم عن ذنب البرامكة فقال ما كان منهم بعض ما يوجب ما فعل الرشيد لكن طالت أيامهم وكل طويل يُمَلُّ وقيل رفعت القصة إلى الرشيد فيها.

قل لأمين الله في أرضه	ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا	مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره	وأمره ما إنَّ له رَدُّ
وقد بنى الدار التي ما بني الـ	فرس لها مثلاً ولا الهند

(١) وهذه القصة من المفتريات على هارون الرشيد كما ذكرنا.

الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند

ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد

فقرأها وأثرت فيه وقيل إن أخته قالت له ما رأيت لك سرورا منذ قتلت جعفرا فلم قتلته قال لو علمت أن قميصى يعلم السبب لمزقته.

عن محمد بن عبد الرحمن الهاشمى خطيب الكوفة قال: دخلت على أمى يوم الأضحى وعندها عجوز فى أثواب رثة فقالت تعرف هذه.

قلت لا.

قالت هذه والدة جعفر البرمكى فسلمت عليها ورحبت بها وقلت حدثينا ببعض أمركم قالت :لقد هجم على مثل هذا العيد وعلى رأسى أربع مئة جارية وأنا أزعم أن ابنى عاق لى وقد أتيتكم يقنعنى جلد شاتين أجعل أحدهما فراشا لى.

قال: فأعطيتها خمس مئة درهم فكادت تموت فرحا.

لم يزل يحيى وآله محبوسين وحالهم حسنة إلى سخط الرشيد على ابن عمه عبد الملك بن صالح فعمهم بسخطه وجدد لهم التهمة وضيق عليهم ودامت جثة جعفر معلقة مدة وعلقت أطرافه بأماكن ثم أحرقت وقيل لم يحبس محمد بن يحيى.

وفي تاريخ ابن خلكان أن الرشيد دعا ياسرًا غلامه فقال: قد انتخبتك لأمر لم أر له الأمين ولا المأمون فحقق ظني.

قال: لو أمرتني بقتل نفسي لفعلت.

قال: ائتني برأس جعفر فوجم لها.

قال: ويلك ما لك.

قال: الأمر عظيم ليتني مت قبل هذا قال : امض ويلك، فمضى فأتى جعفرًا فقال: ياياسر سررتني بإقبالك، لكن سؤتني بدخولك بلا إذن قال الأمر وراء ذلك ياجعفر قد أمرت بكذا، قال المسكين وأقبل يقبل قدمه .

وقال دعنى أدخل وأوصى قال لا سبيل إلى ذلك فأوص فقال لى عليك حق فارجع إلى أمير المؤمنين وقل قتلته فإن ندم كانت حياتى على يدك قال لا أقدر قال فآتى معك إلى مخيمه وأسمع كلامه وقولك له.

قال: أما هذا فنعم وذهب به فلما دخل ياسر قال ما وراءك فذكر له قول جعفر فشتمه وقال لئن راجعتنى لأقدمنك قبله.

فخرج وضرب عنقه وأتاه برأسه فقال يا ياسر جئنى بفلان وفلان فلما أتاه بهما قال اضربا عنقه فإننى لا أقدر أرى قاتل جعفر.

وقال أبو العتاهية:

قولا لمن يرتجى الحياة أما	فى جعفر عبرة ويحياه
كانا وزيرى خليفة الله ها	رون هما ما هما وزيراه
فذالكم جعفر برمته	فى حالق رأسه ونصفاه
والشيخ يحيى الوزير أصبح قد	نحاه عن نفسه وأقصاه
شتت بعد الجميع شملهم	فأصبحوا فى البلاد قد تاهوا
كذاك من يسخط الإله بما	يرضى به العبد يجزه الله
سبحان من دانت الملوك له	نشهد أن لا إله إلا الله
طوبى لمن تاب قبل عثرته	فتاب قبل الممات طوباه[1]

وقال عنه ابن كثير فى البداية والنهاية:

أبو الفضل البرمكى، الوزير ابن الوزير، ولاه الرشيد الشام وغيرها من البلاد، وبعثه إلى دمشق لما ثارت الفتنة العشيران بحوران بين قيس ويمن، وكان ذلك أول نار ظهرت بين قيس ويمن فى بلاد الإسلام، كان خامداً من زمن الجاهلية فأثاره

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى.

فى هذا الأوان، فلما قدم جعفر بجيشه خمدت الشرور وظهر السرور، وقيلت فى ذلك أشعار حسان، قد ذكر ذلك ابن عساكر فى ترجمة جعفر من تاريخه، منها:

لقد أوقدت فى الشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها

إذا جاش سوج البحر من آل برمك ... عليها خبت شهبانها وشرارها

رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلافى صدعها وانجبارها

هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها

وكانت له فصاحة وبلاغة، وذكاء وكرم زائد، كان أبوه قد ضمه إلى القاضى أبى يوسف فتفقه عليه، وصار له اختصاص بالرشيد، وقد وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع، ولم يخرج فى شىء منها عن موجب الفقه.

وقد روى الحديث عن أبيه، عن عبد الحميد الكاتب، عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان، عن زيد بن ثابت كاتب الوحى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين فيه».

رواه الخطيب وابن عساكر، من طريق أبى القاسم الكعبى المتكلم، واسمه: عبد الله بن أحمد البلخى ـ وقد كان كاتبا لمحمد بن زيد ـ، عن أبيه، عن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن زريق، عن الفضل بن سهل ذى الرياسيتين، عن جعفر بن يحيى، به.

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: قال جعفر للرشيد: يا أمير المؤمنين! قال لى أبى يحيى: إذا أقبلت الدنيا عليك فأعط، وإذا أدبرت فأعط، فإنها لا تبقى، وأنشدنى أبى:

لا تبخلن لدنيا وهى مقبلة ... فليس ينقصها التبذير والسرف

فإن تولت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

قال الخطيب: ولقد كان جعفر من علو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد على حالة انفرد بها، ولم يشاركه فيها أحد.

وكان سمح الأخلاق، طلق الوجه، ظاهر البشر.

أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكر.

وكان أيضاً من ذوى الفصاحة والمذكورين بالبلاغة.

وروى ابن عساكر، عن مهذب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية: أنه أصابته فاقة وضائقة، وكان عليه ديون، فألح عليه المطالبون وعنده سفط فيه جواهر شراؤه عليه ألف ألف، فأتى به جعفرا فعرضه عليه وأخبره بما هو عليه من الثمن، وأخبره بإلحاح المطالبين بديونهم، وأنه لم يبق له سوى هذا السفط.

فقال: قد اشتريته منك بألف ألف، ثم أقبضه المال وقبض السفط منه، وكان ذلك ليلاً.

ثم أمر من ذهب بالمال إلى منزله وأجلسه معه فى السمر تلك الليلة، فلما رجع إلى منزله إذا السفط قد سبقه إلى منزله أيضاً.

قال: فلما أصبحت غدوت إلى جعفر لأتشكر له فوجدته مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستئذنان عليه، فقال له جعفر: إنى قد ذكرت أمرك للفضل، وقد أمر لك بألف ألف، وما أظنها إلا قد سبقتك إلى منزلك، وسأفاوض فيك أمير المؤمنين.

فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار.

وكان جعفر ليلة فى سمره عند بعض أصحابه، فجاءت الخنفسله فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر، وقال: إن الناس يقولون: من قصدته الخنفساء يبشر بمال يصيبه، فأمر له جعفر بألف دينار.

ثم عادت الخنفساء، فرجعت إلى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى.

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه: انظر جارية اشتريها تكون فائقة فى الجمال والغناء والدعابة، ففتش الرجل فوجد جارية على النعت فطلب سيدها فيها مالا كثيراً على أن يراها جعفر، فذهب جعفر إلى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها، فلما غنته أعجبته أكثر، فساومه صاحبها فيها.

فقال له جعفر: قد أحضرنا مالا فإن أعجبك وإلا زدناك.

فقال لها سيدها: إنى كنت فى نعمة وكنت عندى فى غاية السرور، وإنه قد انقبض على حالى، وإنى قد أحببت أن أبيعك لهذا الملك، لكى تكونى عنده كما كنت عندى.

فقالت له الجارية: والله يا سيدى لو ملكت منك كما ملكت منى لم أبعك بالدنيا وما فيها، وأين ما كنت عاهدتنى ألا تبيعنى ولا تأكل من ثمنى.

فقال سيدها لجعفر وأصحابه: أشهدكم أنها حرة لوجه الله، وأنى قد تزوجها.

فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل المال.

فقال جعفر: والله لا يتبعنى.

وقال للرجل: قد ملكتك هذا المال فأنفقه على أهلك، وذهب وتركه.

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل، إلا أن الفضل كان أكثر منه مالا.

وروى ابن عساكر من طريق الدارقطنى بسنده: أنه لما أصيب جعفر وجدوا له فى جرة ألف دينار، زنة كل دينار مائة دينار، مكتوب على صفحة الدينار جعفر:

وأصفر من ضرب دار الملوك ... يلوح على وجهه جعفر

يزيد على مائة واحدا ... متى تعطه معسرا يوسر

وقال أحمد بن المعلى: كتبت عنان جارية الناطفى لجعفر تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها، وكتبت إليه هذه الأبيات من شعرها فى جعفر:

يا لائمى جهلا ألا تقصر ... من ذا على حر الهوى يصبر

لا تلحنى إذا شربت الهوى ... صرفا فممزوج الهوى سكر

أحاط بى الحب فخلفى له ... بحر وقدامى له أبحر

تخفق رايات الهوى بالردى فوقي وحولي للهوى عسكر

سيان عندي في الهوى لائم أقل فيه والذي يكثر

أنت المصفى من بني برمك يا جعفر الخيرات يا جعفر

لا يبلغ الواصف في وصفه ما فيك من فضل ولا يعشر

من وفر المال لأغراضه فجعفر أغراضه أوفر

ديباجة الملك على وجهه وفي يديه العارض الممطر

سحت علينا منهما ديمة ينهل منها الذهب الأحمر

لو مسحت كفاه جلمودة نضر فيها الورق الأخضر

لا يستتم المجد إلا فتى يصبر للبذل كما يصبر

يهتز تاج الملك من فوقه فخرا ويزهى تحته المنبر

أشبهه البدر إذا ما بدا أو غرة في وجهه يزهر

والله ما أدرى أبدر الدجى في وجهه أم وجهه أنور

يستمطر الزوار منك الندى وأنت بالزوار تستبشر

وكتبت تحت أبياتها حاجتها، فركب من فوره إلى أبيه فأدخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها فقال: لا! والله لا أشتريها.

وقد قال فيها الشعراء فأكثروا، واشتهر أمرها، وهى التى يقول فيها أبو نواس:

لا يشتريها إلا ابن زانية أو قلطبان يكون من كانا

وعن ثمامة بن أشرس، قال: بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد، فانتبه من منامه يبكى مذعورا، فقلت: ما شأنك؟

قال: رأيت شيخا جاء فأخذ بعضادتى هذا الباب وقال:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

قال فأجبته:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

قال ثمامة: فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر، ثم خرج الرشيد فنظر إليه فتأمله ثم أنشأ يقول:

تقاضاك دهرك ما أسلفا وكدر عيشك بعد الصفا

فلا تعجبن فإن الزمان رهين بتفريق ما ألفا

قال: فنظرت إلى جعفر وقلت: أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت فى الكرم والجود غاية.

قال: فنظر إلى كأنه جمل صؤول ثم أنشأ يقول:

ما يعجب العالم من جعفر ما عاينوه فبنا كانا

مَن جعفر أو مَن أبوه ومن كانت بنو برمك لولانا

ثم حول وجه فرسه وانصرف.

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة، وكان عمره سبعا وثلاثين سنة، ومكث وزيرا بسبع عشرة سنة.

وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس فى يوم عيد أضحى تستمنحهم جلد كبش تدفأ به، فسألوها عما كانت فيه من النعمة فقالت: لقد أصبحت فى مثل هذا اليوم وإن على رأسى أربعمائة وصيفة، وأقول إن ابنى جعفرا عاقٌ لى.

وروى الخطيب البغدادى بإسناده: أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفرا وما أحل بالبرامكة، استقبل القبلة وقال: اللهم إن جعفرا كان قد كفانى مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة(١).

(١) روى أنه قال ذلك أيضاً حين علم بموت يحيى البرمكى أبو جعفر.

١٦ـ أحمد بن هارون الرشيد «الأمير المجهول»

هو الابن البكر لهارون الرشيد مات فى حياته ولم يره لأنه لم يكن يعلم بولادته فقد تزوج أمه قبل توليه الخلافة وقد أورد قصته غير واحد من المؤرخين منهم الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية فى أحداث سنة ١٨٤ هـ فقال:

كان زاهداً عابداً قد تنسك، وكان لا يأكل إلا من عمل يده فى الطين، كان يعمل فاعلاً فيه، وليس يملك إلا مروا وزنبيلا ـ أى: مجرفة وقفة ـ وكان يعمل فى كل جمعة بدرهم ودانق يتقرب بهما من الجمعة إلى الجمعة، وكان لا يعمل إلا فى يوم السبت فقط، ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة.

وقيل إنه من زبيدة فى قول بعضهم، والصحيح أنه من امرأة كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاها خاتما من ياقوت أحمر، وأشياء نفيسة، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتيه.

فلما صارت الخلافة إليه لم تأته ولا ولدها، بل اختفيا، وبلغه أنهما ماتا، ولم يكن الأمر كذلك، وبحث عنهما فلم يطلع لهما على خبر. فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها، ثم رجع إلى بغداد، وكان يعمل فى الطين ويأكل مدة زمانية.

هذا وهو ابن أمير المؤمنين، ولا يذكر للناس من هو إلى أن اتفق مرضه فى دار من كان يستعمله فى الطين فمرضه عنده.

فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل: اذهب بهذا إلى الرشيد وقل له: صاحب هذا الخاتم يقول لك: إياك أن تموت فى سكرتك هذه فتقدم حيث لا ينفع نادماً ندمه، واحذر انصرافك من بين يدى الله إلى الدارين، وأن يكون آخر

العهد بك، فإن ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك، وسيصير إلى غيرك، وقد بلغك أخبار من مضى.

قال: فلما مات دفنته، وطلبت الحضور عند الخليفة، فلما أوقفت بين يديه قال: ما حاجتك؟

قلت: هذا الخاتم دفعه إلى رجل وأمرنى أن أدفعه إليك، وأوصانى بكلام أقوله لك.

فلما نظر الخاتم عرفه فقال: ويحك وأين صاحب هذا الخاتم؟

قال: فقلت: مات يا أمير المؤمنين.

ثم ذكرت الكلام الذى أوصانى به، وذكرت له أنه يعمل بالفاعل فى كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دوانيق، أو بدرهم ودانق، يتقوت به سائر الجمعة، ثم يقبل على العبادة.

قال: فلما سمع هذا الكلام قام فضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهرا لبطن ويقول: والله لقد نصحتنى يا بنى، ثم بكى، ثم رفع رأسه إلى الرجل وقال: أتعرف قبره؟

قلت: نعم! أنا دفنته.

قال: إذا كان العشى فائتنى.

فقال: فأتيته فذهب إلى قبره فظل يبكِ عنده حتى أصبح ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم وكتب له ولعياله رزقاً.

■ ■ ■

١٧ ـ عبد الله بن عبد العزيز العمرى

عبد الله بن عبد العزيز العمرى، أدرك أبا طوالة، وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد، وكان عابداً زاهداً، وعظ الرشيد يوماً فأطنب وأطيب، قال له وهو واقف على الصفا: «أتنظر كم حولها ـ يعنى الكعبة ـ من الناس؟

فقال: كثيراً، فقال: كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه، وأنت تُسأل عنهم كلهم.

فبكى الرشيد بكاء كثيراً، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل ينشف به دموعه.

ثم قال له: يا هارون إن الرجل ليسرف فى ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يسرف فى أموال المسلمين كلهم؟

ثم تركهم وانصرف والرشيد يبكى.

توفى عن ست وستين سنة(١).

■■■

---

(١) البداية والنهاية.

١٨ - القاضى عافية بن يزيد

عافية بن يزيد بن قيس القاضى للمهدى على جانب بغداد الشرقى، وهو وابن علاثة، كانا يحكمان بجامع الرصافة، وكان عافية عابدا زاهدا ورعا، دخل يوما على المهدى فى وقت الظهيرة فقال: يا أمير المؤمنين أعفنى.

فقال له المهدى: ولِمَ أعفيك؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء؟

فقال له: لا ولكن كان بين اثنين خصومة عندى فعمد أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أنى أحبه - فأهدى إلىَّ منه طبقا لا يصلح إلا لأمير المؤمنين، فرددته عليه، فلما أصبحنا: وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا عندى فى قلبى ولا نظرى، بل مال قلبى إلى المهدى منهما، هذا مع أنى لم أقبل منه ما أهداه فكيف لو قبلت منه؟ فاعفنى عفا الله عنك فأعفاه.

وقال الأصمعى: كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية وقد أحضره لأن قوماً استعدوا عليه إلى الرشيد، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب عما يسأله. وطال المجلس فعطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية.

فقال له الرشيد: لِمَ لم تشمتنى مع الناس؟

فقال: لأنك لم تحمد الله، واحتج بالحديث فى ذلك.

فقال له الرشيد: ارجع لعملك فوالله ما كنت لتفعل ما قيل عنك، وأنت لم تسامحنى فى عطسة لم أحمد الله فيها. ثم رده رداً جميلا إلى ولايته(١).

■ ■ ■

(١) البداية والنهاية.

١٩ ـ صالح بن بشير المرّى

صالح بن بشير المُّرى أحدُ العُبَّاد الزهَّاد، كان كثير البكاء يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثورى وغيره من العلماء، ويقول: سفيان هذا نذير قوم.

وقد استدعاه المهدى ليحضر عنده فجاء إليه راكباً على حمار فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنيه ـ ولى العهد من بعده موسى الهادى وهارون الرشيد ـ أن يقوما إليه لينزلاه عن دابته فابتدراه فأنزلاه، فأقبل صالح على نفسه فقال: لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق فى هذا اليوم، وفى هذا المقام.

ثم جلس إلى المهدى فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه، ثم قال له: اعلم إن رسول الله ﷺ خصم من خالفه فى أمته، ومن كان محمد خصمه كان الله خصمه. فأَعِدَّ لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججاً تضمن لك النجاة، وإلا فاستسلم للهلكة، واعلم إن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى بدعته، واعلم أن الله قاهر فوق عباده، وأن أثبت الناس قدما آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله، فبكى المهدى وأمر بكتابة ذلك الكلام فى دواوينه.

توفى سنة ١٧٦ هـ رحمه الله.

■ ■ ■

٢٠ ـ الكسائى إمام نحاة الكوفة وسابع القراء

هو على بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائى (١١٩ هـ/ ٧٣٧ م ـ ١٨٩ هـ/ ٨٠٥ م) مولى بنى أسد من أصول فارسية. كان إمام الكوفيين فى اللغة والنحو، وسابع القراء السبعة.

هو مؤدب الرشيد وولده الأمين وبلغ عند هارون الرشيد منزلة عظيمة ونال جاها وأموالا، ويعد المؤسس الحقيقى للمدرسة الكوفية فى النحو.

قال الإمام ابن الجزرى (عالم القراءات): «واختلف فى تسميته بالكسائى، فالذى رويناه عنه أنه سئل عن ذلك، فقال: لأنى أحرمت فى كساء. وقيل غير ذلك». ولد بالكوفة سنة ١١٩ هـ/ ٧٣٧.

ومن أشهر تلاميذه فى النحو هشام بن معاوية ويحيى الفراء.

أخذ القراءة عرضاً عن حمزة أربع مرات، وعليه اعتماده، وعن محمد بن أبى ليلة، وعيسى بن عمر الهمدانى، وروى الحروف عن أبى بكر بن عياش، وإسماعيل ويعقوب ابنى جعفر عن نافع، وعن عبد الرحمن بن أبى حماد، وعن أبى حيوة شريح بن يزيد.

روى عنه القراءات أبو عمر الدورى، وأبو الحارث الليث بن خالد، ونصير بن يوسف، وقتيبة بن مهران، وأحمد بن سريج وأبو عبيد، ويحيى الفراء، وخلف بن هشام، وغيرهم. وأما راوياه فهما الليث، وحفص الدورى، للكسائى عدد من التصانيف من أشهرها: معانى القرآن ومقطوع القرآن وموصوله، وكتاب فى القراءات، وكتاب النوادر الكبير وكتاب النوادر الأصغر، ومختصر فى النحو، وكتاب اختلاف العدد وكتاب قصص الأنبياء وكتاب الحروف وكتاب العدد وكتاب القراءات وكتاب المصادر وكتاب الهجاء وغيرها.

قال الشافعى: «من أراد أن يتبحر فى النحو، فهو عيال على الكسائى» قال ابن الأنبارى: «اجتمع فيه أنه كان أعلم الناس بالنحو، وواحدهم فى الغريب، وأوحد فى علم القرآن، كانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط عليهم، فكان يجمعهم ويجلس على كرسى، ويتلو وهم يضبطون عنه حتى الوقوف»، وقال عنه إسحاق بن إبراهيم: «سمعت الكسائى يقرأ القرآن على الناس مرتين».

عاش الكسائى ٧٠ سنة، وتوفى بالرى ـ جنوب شرقى طهران ـ سنة ١٨٩ هـ/ ٨٠٥م[١].

■ ■ ■

(١) انظر غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى، هدية العارفين للبابانى، إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، تهذيب التهذيب لابن حجر.

٢١ـ حفص بن غياث القاضى

حفص بن غياث ابن طلق بن معاوية بن مالك بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن جشم بن وهبيل بن سعد بن مالك بن النخع.

إنه الإمام الحافظ العلامة القاضى أبو عمر النخعى الكوفى قاضى الكوفة ومحدثها وولى القضاة ببغداد أيضاً مولده سنة سبع عشرة ومئة.

وسمع من عاصم الأحول وسليمان التيمى ويحيى بن سعيد وهشام بن عروة ويزيد بن أبى عبيد والعلاء بن المسيب والأعمش ومحمد بن زيد بن المهاجر وابن جريج وأبى إسحاق الشيبانى وأبى مالك الأشجعى وحبيب بن أبى عمرة وبريد بن عبد الله بن أبى بردة وعبيد الله بن عمر وليث بن أبى سليم وهشام بن حسان والعلاء بن خالد وجده طلق وخلق سواهم وعنه يحيى بن سعيد القطان رفيقه وابن مهدى وابن عمه طلق بن غنام وابنه عمر بن حفص ويحيى بن يحيى وأحمد وإسحاق ويحيى وعلى وابنا أبى شيبة وأحمد الدورقى وسفيان ابن وكيع وسلم بن جنادة وسهل بن زنجلة وصدقة بن الفضل وأبو سعيد الأشج وعلى بن خشرم وعمرو الناقد وابن نمير وهارون بن إسحاق وهناد وأبو كريب وأبو هشام الرفاعى وأمم سواهم آخرهم أحمد بن عبد الجبارْ العطاردى.

قال أحمد بن كامل ولى الرشيد قضاء الشرقية ببغداد حفصا ثم نقله إلى قضاء الكوفة لإصداره حكماً لم يعجب زبيدة زوجة الرشيد كما سيأتى ذكر تلك القصة.

قال أبو جعفر الجمال آخر القضاة بالكوفة حفص بن غياث يعنى الأكابر.

وقال يحيى بن معين وغيره ثقة قال عبد الخالق بن منصور سئل يحيى أيهما احفظ ابن إدريس أم حفص؟، فقال ابن إدريس كان حافظا وكان حفص صاحب حديث له معرفة.

قيل فابن فضيل قال كان ابن إدريس أحفظ وقال العجلى ثقة مأمون فقيه

كان وكيع ربما يسأل عن الشيء فيقول اذهبوا إلى قاضينا فسألوه وكان شيخا عفيفا مسلما وقال يعقوب بن شيبة حفص ثقة ثبت إذا حدث من كتابه ويتقى بعض حفظه.

وروى عن يحيى القطان.

قال: حفص أوثق أصحاب الأعمش وقال محمد بن عبد الله بن نمير حفص أعلم بالحديث من ابن إدريس أبو حاتم عن أحمد بن أبى الحوارى قال حدثت وكيعا بحديث فعجب فقال من جاء به قلت حفص بن غياث قال إذا جاء به أبو عمر فأى شىء نقول نحن وقال أبو زرعة ساء حفظه بعدما استقضى.

فمن كتب عنه من كتابه فهو صالح وقال أبو حاتم هو أتقن وأحفظ من أبى خالد الأحمر محمد بن عبد الرحيم صاعقة.

عن ابن المدينى قال كان يحيى يقول حفص ثبت قلت إنه يهم فقال كتابه صحيح قال يحيى لم أر بالكوفة مثل هؤلاء الثلاثة حزام وحفص وابن أبى زائدة كان هؤلاء أصحاب حديث قال على فلما أخرج حفص كتبه كان.

قال إبراهيم بن مهدى سمعت حفص بن غياث وهو قاض بالشرقية يقول لرجل يسأل عن مسائل القضاء لعلك تريد أن تكون قاضيا لأن يدخل الرجل أصبعه فى عينه فيقتلعها فيرمى بها خير له من أن يكون قاضيا.

قال أبو بكر بن أبى شيبة سمعت حفص بن غياث يقول والله ما وليت القضاء حتى حلت لى الميتة.

ومات يوم مات ولم يخلف درهما وخلف عليه تسع مئة درهم دينا.

قال سجادة كان يقال ختم القضاء بحفص بن غياث قال سعيد بن سعيد الحارثى عن طلق بن غنام قال خرج حفص يريد الصلاة وأنا خلفه فى الزقاق فقامت امرأة حسناء فقالت أصلح الله القاضى زوجنى فإن إخوتى يضرون بى.

فالتفت إلى وقال: يا طلق اذهب فزوجها إن كان الذى يخطبها كفؤا فإن كان يشرب النبيذ حتى يسكر فلا تزوجه وإن كان رافضيا فلا تزوجه.

فقلت لم قلت هذا قال إن كان رافضيا فإن الثلاث عنده واحدة وإن كان يشرب النبيذ حتى يسكر فهو يطلق ولا يدرى.

قال عمر بن حفص سمعت أبى يقول مررت بطاق اللحامين فإذا بعليان جالس فسمعته يقول من أراد سرور الدنيا وحزن الآخرة فليتمن ما هذا فيه فوالله لقد تمنيت أنى كنت مت قبل أن ألى القضاء.

عن يحيى بن الليث قال باع رجل من أهل خراسان جمالا بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسى وكيل أم جعفر فمطله بثمنها وحبسه فطال ذلك على الرجل فأتى بعض أصحاب حفص بن غياث فشاوروه.

فقال: اذهب إليه فقل له أعطنى ألف درهم وأحيل عليك بالمال الباقى وأخرج إلى خراسان فإذا فعل هذا فالقنى حتى أشير عليك ففعل الرجل وأعطاه مرزبان ألف درهم.

قال: فأخبره فقال عد إليه فقل إذا ركبت غدا فطريقك على القاضى تحضر وأوكل رجلاً يقبض المال وأخرج فإذا جلس إلى القاضى فادع عليه بمالك فإذا أقر حبسه حفص وأخذت مالك فرجع إلى مرزبان وسأله فقال انتظرونى بباب القاضى.

فلما ركب من الغد وثب إليه الرجل فقال إن رأيت أن تنزل إلى القاضى حتى أوكل بقبض المال وأخرج فنزل مرزبان فتقدما إلى حفص بن غياث فقال الرجل أصلح الله القاضى لى على هذا الرجل تسعة وعشرون ألف درهم.

فقال حفص: ما تقول يا مجوسى:

قال: صدق أصلح الله القاضى.

قال: ما تقول يا رجل فقد أقر لك.

قال: يعطينى مالى.

فقال: ما تقول؟

قال: هذا المال على السيدة.

قال: أنت أحمق تقر ثم تقول هو على السيدة ما تقول يا رجل.

قال: أصلح الله القاضى إن أعطانى مالى وإلا حبسته.

قال: ما تقول يا مجوسى؟

قال: المال على السيدة.

قال القاضى: خذوا بيده إلى الحبس.

فلما حبس بلغ الخبر أم جعفر فغضبت وبعثت إلى السندى أن يخرج مرزبان وكانت القضاة تحبس الغرماء.

فعجل السندى فأخرجه.

وبلغ حفصا الخبر فقال أحبس أنا ويخرج السندى لا جلست أو يرد مرزبان للحبس.

فجاء السندى إلى أم جعفر فقال: الله الله فى إنه حفص بن غياث وأخاف من أمير المؤمنين أن يقول لى بأمر من أخرجت رديه إلى الحبس وأنا أكلم حفصا فى أمره فأجابته فرجع مرزبان إلى الحبس فقالت: أم جعفر لهارون قاضيك هذا أحمق حبس وكيلى واستخف به فمره لا ينظر فى الحكم وتولى أمره إلى أبى يوسف.

فأمر لها بالكتاب وبلغ حفصا الخبر فقال للرجل أحضرنى شهودا حتى أسجل لك على المجوسى بالمال.

فجلس حفص فسجل على المجوسى بالمال وورد كتاب هارون مع خادم له فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين.

قال: مكانك نحن فى شىء حتى نفرغ منه.

فقال: كتاب أمير المؤمنين.

قال: انظر ما يقال لك.

فلما فرغ حفص من السجل أخذ الكتاب من الخادم فقرأه فقال اقرأ على

أمير المؤمنين السلام وأخبره أن كتابه ورد وقد أنفذت الحكم.

فقال الخادم: قد والله عرفت ما صنعت أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد والله لأخبرنه بما فعلت.

قال له: قل له ما أحببت.

فجاء الخادم فأخبر هارون فضحك وقال للحاجب مر لحفص بثلاثين ألف درهم(١).

فركب يحيى بن خالد البرمكى الوزير فاستقبل حفصا منصرفا من مجلس القضاء فقال: أيها القاضى قد سررت أمير المؤمنين اليوم وأمر لك بمال فما كان السبب فى هذا؟!

قال: تمم الله سرور أمير المؤمنين وأحسن حفظه وكلاءته ما زدت على ما أفعل كل يوم.

قال: على ذلك.

قال: ما أعلم إلا أن يكون سجلت على مرزبان المجوسى بما وجب عليه.

قال: فمن هذا سر أمير المؤمنين.

فقال حفص: الحمد لله كثيرا.

فقالت أم جعفر لهارون لا أنا ولا أنت إلا أن تعزل حفصا.

فأبى عليها ثم ألحت عليه فعزله عن الشرقية وولاه قضاء الكوفة فمكث عليها ثلاث عشرة سنة وكان أبو يوسف لما ولى حفص قال لأصحابه: تعالوا نكتب نوادر حفص فلما وردت أحكامه وقضاياه على أبى يوسف قال له أصحابه: أين النوادر التى زعمت تكتبها.

قال: ويحكم إن حفصا أراد الله فوفقه.

قال أحمد بن حنبل: رأيت مقدم فم حفص بن غياث مضببة أسنانه بالذهب.

(١) انظر سير أعلام النبلاء ـ مصدر سابق.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل سمعت أبى يقول فى حديث حفص بن غياث عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن النبى خمروا وجوه موتاكم ولا تشبهوا باليهود فأنكره أبى وقال أخطأ قد حدثناه حجاج عن ابن جريج عن عطاء مرسلا.

وسئل يحيى بن معين عن حديث لحفص بن غياث عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر كنا نأكل ونحن مع رسول الله ونحن نمشى فقال لم يحدث به إلا حفص كأنه وهم فيه سمع حديث عمران بن حدير فغلط بهذا.

ويروى عن أحمد أنه قال كان حفص يخلط فى حديثه قلت احتج بهذه الكلمة بعض قضاتنا على أن حفصا لا يحتج به فى تفرده عن رفاقه بخبر فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تبعث بعثا إلى النار فهذه اللفظة ثابتة فى صحيح البخارى وحفص فحجة والزيادة من الثقة فمقبولة والله أعلم.

قال هارون بن حاتم: سمعت حفص بن غياث يقول وُلدت سنة سبع عشرة ومئة.

قال هارون: وفلج[1] حفص حين مات ابن إدريس فمكث فى البيت إلى أن مات سنة أربع وتسعين ومئة فى العشر من رمضان وصلى عليه الفضل بن العباس أمير الكوفة يومئذ.

وأما سلم بن جنادة فقال: مات سنة خمس وتسعين ومائة.

وقال محمد بن المثنى وأبو حفص الفلاس مات سنة ست وتسعين ومائة والصحيح الأول[2].

■ ■ ■

---

(١)، (٢) انظر سير أعلام النبلاء ومعنى فلج أى أصابه الفالج وهو الشلل النصفى.

٢٢ ـ حافظ العصر
سفيان بن عُيينة

سفيان بن عُيينة بن أبى عمران الهلالى إمام ومحدث شهير زاهد ورع وقد ولد فى الكوفة سنة ١٠٧، وتوفى ١٩٨.

أجمع الناس على صحة حديثه وروايته وقد روى الحديث عن الزهرى وأبى إسحق السبيعى وعمرو بن دينار ومحمد بن المكندر وأبى الزناد وعاصم بن أبى النجود المقرى والأعمش وعبد الملك بن عمير وغيرهم.

وروى عنه الشافعى ومحمد بن اسحق والزبير بن بكار ويحيى بن أكثم وعدد كبير من العلماء الأجلاء والأئمة الكبار.

قال الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء: (سفيان بن عُيينة الإمام الكبير، حافظ العصر، شيخ الإسلام. طلب الحديث وهو حدث بل غلام، ولقى الكبار وحمل عنهم علما جَمًّا، وأتقن، وجود، وجمع، وصنف، وعمر دهرا، وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علو الإسناد، ورحل إليه من البلاد، وألحق الأحفاد بالأجداد. ولقد كان خلق من طلبة الحديث يتكلفونْ الحج، وما المحرك لهم سوى لقى سفيان بن عُيينة لإمامته وعلو إسناده. وجاور عنده غير واحد من الحفاظ.

ومن كبار أصحابه المكثرين عنه: الحُمَيْدى، والشافعى، وابن المدينى، وأحمد، وإبراهيم الرمادى.

قال الإمام الشافعى: لولا مالك وسفيان بن عُيينة لذهب علم الحجاز. وعنه قال: وجدت أحاديث الأحكام كلها عند ابن عُيينة سوى ستة أحاديث ووجدتها كلها عند مالك سوى ثلاثين حديثا.

فهذا يوضح لك سعة دائرة سفيان فى العلم، وذلك لأنه ضم أحاديث

العراقيين إلى أحاديث الحجازيين وارتحل ولقى خلقا كثيرا ما لقيهم مالك. وهما نظيران فى الإتقان، ولكن مالكا أجل وأعلى، فعنده نافع، وسعيد المقبرى. قال عبد الرحمن بن مهدى: كان بن عُيينة من أعلم الناس بحديث الحجاز.

وقال أبو عيسى الترمذى: سمعت محمدا يعنى البخارى يقول: ابن عُيينة أحفظ من حماد بن زيد قال حرملة: سمعت الشافعى يقول: ما رأيت أحداً فيه من آلة العلم ما فى سفيان بن عُيينة، وما رأيت أكف عن الفتيا منه. قال: وما رأيت أحداً أحسن تفسيرا للحديث منه.

قال عبد الله بن وهب: لا أعلم أحداً أعلم بتفسير القرآن من ابن عُيينة، وقال: أحمد بن حنبل أعلم بالسنن من سفيان.

قال وكيع: كتبنا عن ابن عُيينة أيام الأعمش. قال على بن المدينى: ما فى أصحاب الزهرى أحد أتقن من سفيان بن عُيينة.

قال ابن عُيينة: حج بى أبى وعطاء بن أبى رباح حى.

وقال أحمد بن عبد الله العجلى: كان ابن عُيينة ثبتا فى الحديث، وكان حديثه نحوا من سبعة آلاف، ولم تكن له كتب.

قال بهز بن أسد: ما رأيت مثل سفيان بن عُيينة. فقيل له: ولا شعبة؟ قال: ولا شعبة. قال يحيى بن معين: هو أثبت الناس فى عمرو بن دينار.

وقال ابن مهدى: عند ابن عُيينة من معرفته بالقرآن وتفسير الحديث، ما لم يكن عند سفيان الثورى.

أخبرنا أبو يَعْلَى الخليلى. سمعت البويطى، سمعت الشافعى يقول: أصول الأحكام نيف وخمس مئة حديث، كلها عند مالك إلا ثلاثين حديثا، وكلها عند ابن عُيينة إلا ستة أحاديث. رواته ثقات سمعت أحمد بن النضر الهلالى، سمعت أبى يقول: كنت فى مجلس سفيان بن عُيينة، فنظر إلى صبى، فكأن أهل المسجد تهاونوا به لصغره، فقال سفيان: كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم. ثم قال: يا

نضر لو رأيتنى ولى عشر سنين، طولى خمسة أشبار، ووجهى كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابى صغار، وأكمامى قصار، وذيلى بمقدار، ونعلى كآذان الفار، أختلف إلى علماء الأمصار، كالزهرى وعمرو بن دينار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتى كالجوزة، ومقلتى كالموزة، وقلمى كاللوزة، فإذا أتيت قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير. ثم ضحك. فى صحة هذا نظر، وإنما سمع من المذكورين وهو ابن خمس عشرة سنة أو أكثر.

قال أحمد بن حنبل: دخل سفيان بن عُيينة على معن بن زائدة يعنى أمير اليمن ولم يكن سفيان تلطخ بعد بشىء من أمر السلطان، فجعل يعظه. قال على بن حرب الطائى: سمعت أبى يقول: أحب أن تكون لى جارية فى غنج سفيان بن عُيينة إذا حدث.

قال حامد بن يحيى البلخى: سمعت ابن عُيينة يقول: رأيت كأن أسنانى سقطت، فذكرت ذلك للزهرى، فقال: تموت أسنانك، وتبقى أنت.

قال: فمات أسنانى وبقيت أنا، فجعل الله كل عدو لى محدثا. قلت: قال هذا من شدة ما كان يلقى من ازدحام أصحاب الحديث عليه حتى يبرموه.

وقال ابن المدينى: قال لى يحيى القطان. ما بقى من معلمى أحد غير سفيان بن عُيينة، وهو إمام منذ أربعين سنة.

وقال على: سمعت بشر بن المفضل يقول: ما بقى على وجه الأرض أحد يشبه ابن عُيينة.

وحكى حرملة بن يحيى أن ابن عُيينة قال له وأراه خبز شعير: هذا طعامى منذ ستين سنة.

الحميدى، سمع سفيان يقول: لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلا أشقى أهله وولده.
وقال سفيان مرة لرجل: ما حرفتك؟

قال: طلب الحديث. قال: بشر أهلك بالإفلاس.

وروى على بن الجعد عن ابن عُيينة قال: من زيد فى عقله، نقص من رزقه.
ونقل سنيد بن داود عن ابن عُيينة قال: من كانت معصيته فى الشهوة فارج له، ومن كانت معصيته فى الكبر فاخش عليه، فإن آدم عصى مشتهيا فغفر له، وإبليس عصى متكبرا فلعن.

ومن كلام ابن عُيينة قال: الزهد: الصبر، وارتقاب الموت. وقال: العلم إذا لم ينفعك، ضرك.

قال عثمان بن زائدة: قلت لسفيان الثورى: ممن نسمع؟ قال: عليك بابن عُيينة.

قال نعيم بن حماد: ما رأيت أحداً أجمع لمتفرق من سفيان بن عُيينة.

ويروى أن سفيان كان يقول فى كل موقف: اللهم لا تجعله آخر العهد منك، فلما كان العام الذى مات فيه لم يقل شيئاً.

وقال: قد استحييت من الله تعالى.

وقد كان سفيان مشهوراً بالتدليس، عمد إلى أحاديث رفعت إليه من حديث الزهرى، فيحذف اسم من حدثه، ويدلسها، إلا أنه لا يدلس إلا عن ثقة عنده.

فأما ما بلغنا عن يحيى بن سعيد القطان، أنه قال: اشهدوا أن ابْن عُيينة اختلط سنة سبع وتسعين ومئة، فهذا منكر من القول ولا يصح ولا هو بمستقيم فإن يحيى القطان مات فى صفر من سنة ثمان وتسعين مع قدوم الوفد من الحج. فمن الذى أخبره باختلاط سفيان، ومتى لحق أن يقول هذا القول وقد بلغت التراقى؟ وسفيان حجة مطلقا، وحديثه فى جميع دواوين الإسلام، ووقع لى كثير من عواليه، بل وعند عبد الرحمن سبط الحافظ السلفى من عواليه جملة صالحة. وكان سفيان رحمه الله صاحب سنة واتباع.

حدثنا محمد بن منصور الجواز، قال: رأيت سفيان بن عُيينة سأله رجل: ما تقول فى القرآن؟

قال: كلام الله، منه خرج، وإليه يعود.

وقال محمد بن إسحاق الصاغانى: حدثنا لوين، قال: قيل لابن عُيينة: هذه الأحاديث التى تروى فى الرؤية؟

قال: حق على ما سمعناها ممن نثق به ونرضاه.

توفى سنة ١٩٨ هـ(١).

■ ■ ■



(١) سير أعلام النبلاء.

٢٣ ـ أبو معاوية الضرير

هو محمد بن خازم مولى بنى سعد بن زيد مناة بن تميم، الإمام الحافظ الحجة أبو معاوية السعدى الكوفى الضرير، أحد الأعلام.

قال أحمد وجماعة: ولد سنة ثلاث عشرة ومائة.

وعمى وهو ابن أربع سنين، فأقاموا عليه مأتما، قاله أبو داود. ويقال: عمى ابن ثمانى سنين.

حدث عن: هشام بن عروة، وعاصم الأحول، ويحيى بن سعيد الأنصارى، والأعمش، وسهيل، وإسماعيل بن أبى خالد، وبريد بن عبد الله بن بردة، وداود بن أبى هند، وعبيد الله بن عمر، وأبى مالك الأشجعى، وأبى إسحاق الشيبانى، ومحمد بن سوقة، والكلبى، وسعد بن طريف الإسكاف، وإسماعيل بن مسلم المكى، وبشار بن كدام، وجعفر بن برقان، وجويبر بن سعيد، وحجاج بن أرطأة، والحسن بن عمرو الفقيمى، وخالد بن إلياس، وسعد بن سعيد، وعمرو بن ميمون بن مهران، وأبى بردة عمرو بن يزيد، وقنان بن عبد الله، وليث بن أبى سليم، وخلق كثير.

وعنه: ابنه إبراهيم، وابن جُرَيْج شيخه، والأعمش شيخه، ويحيى بن سعيد القطان، ويحيى بن يحيى، وعمرو بن عون، وأحمد بن يونس، وأحمد بن حنبل، وابن مَعِين، وإسحاق وأبو كريب، وابنا أبى شيبة، وعلى، وأبو خيثمة، وسعيد بن منصور، وابن نمير، وهناد، وقتيبة، وعلى بن محمد الطنافسى، وأحمد بن أبى الحوارى، وأحمد بن منيع، وعلى بن حرب، وأخوه أحمد بن حرب، وأحمد بن سنان، والحسن بن عرفة، والحسن بن محمد الزعفرانى، وسهل بن زنجلة، وصدقة بن الفضل، وسعدان بن نصر، وعبد الرحمن بن محمد الطرسوسى، وعلى بن إشكاب، ومحمد ابن إسماعيل الحسانى، ومحمد بن إسماعيل الأحمسى، ومحمد بن طريف، ومحمد ابن عبد الدورقى، وخلق كثير خاتمتهم أحمد بن عبد الجبار العطاردى.

سئل أحمد عن أبى معاوية وجرير فى الأعمش، فقدم أبا معاوية.

وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: كان أبو معاوية إذا سئل عن أحاديث الأعمش، يقول: قد صار حديث الأعمش فى فمى علقما أو أمر لكثرة ما تردد عليه ثم قال أبى: أبو معاوية فى غير حديث الأعمش مضطرب، لا يحفظها حفظا جيدا. وسمعت أبى يقول: كان والله حافظا للقرآن، عن محمود بن غيلان، عن أبى نعيم: سمعت الأعمش يقول لأبى معاوية: أما أنت، فقد ربطت رأس كيسك.

وعن محمود بن غيلان: سمعت شبابة يقول: جاء أبو معاوية إلى مجلس شعبة، فقال: يا أبا معاوية، سمعت حديث كذا من الأعمش؟

قال: نعم.

فقال شعبة: هذا صاحب الأعمش، فاعرفوه.

وقال أبو زرعة الدمشقى: سمعت أبا نعيم يقول: لزم أبو معاوية الأعمش عشرين سنة وقال أحمد بن عمر الوكيعى: ما أدركنا أحداً كان أعلم بأحاديث الأعمش من أبى معاوية وكان هارون الرشيد يجب أبا معاوية، ويحترمه، قيل: إنه أكل عنده، فغسل يديه، فكان الرشيد هو الذى صب على يده، وقال: تدرى يا أبا معاوية من يصب عليك؟ إنه أمير المؤمنين.

فرد قائلاً: أما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين؟

ثم وصله بذهب كثير.

توفى رحمه الله سنة ١٩٦ هـ وقيل سنة ١٩٤ هـ وقيل سنة ١٩٥ هـ.

■ ■ ■

٢٤ ـ عبد الله بن إدريس العالم الذى رفض منصب القاضى للرشيد

إنه عبد الله بن إدريس ابن يزيد بن عبد الرحمن الإمام الحافظ المقرئ القدوة شيخ الإسلام أبو محمد الأودى الكوفى ولد سنة عشرين ومئة.

وحدث عن أبيه وحصين بن عبد الرحمن وسهيل بن أبى صالح وهشام بن عروة وأبى إسحاق الشيبانى وسليمان الأعمش وإسماعيل بن أبى خالد وابن جريج ومسعر وسفيان والحسن بن عبيد الله وأبى مالك الأشجعى والمختار بن فلفل ويزيد بن عبد الله ابن أبى بردة وعاصم بن كليب وليث بن أبى سليم ويزيد بن أبى زياد وابن عجلان ويحيى بن سعيد الأنصارى وابن إسحاق وخلق وتلا على نافع وكان من أئمة الدين حدث عنه مالك وهو من مشايخه وابن المبارك ويحيى بن آدم وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبو بكر وعثمان ابنا أبى شيبة وهناد وأبو كريب وأبو سعيد الأشج والحسن بن عرفة وأحمد بن عبد الجبار العطاردى وخلق كثير.

وقد أقدمه الرشيد بغداد ليوليه قضاء الكوفة فامتنع.

قال بشر بن الحارث ما شرب أحد ماء الفرات فسلم إلا عبد الله بنْ إدريس.

وقال أحمد بن حنبل كان بن إدريس نسيجا وحده.

قال يعقوب ابن شيبة كان عابدا فاضلا كان يسلك فى كثير من فتياه ومذاهبه مسالك أهل المدينة يخالف الكوفيين وكان بينه وبين مالك صداقة ثم قال وقد قيل إن جميع ما يرويه مالك فى الموطأ فيقول بلغنى عن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمعه من ابن إدريس.

قال أبو حاتم هو حجة إمام من أئمة المسلمين وقيل لم يكن بالكوفة أحد أعبد لله من ابن إدريس قال ابن عرفة لم أر بالكوفة أفضل منه.

أبو داود عن إسحاق بن إبراهيم عن الكسائى قال: قال لى هارون الرشيد من

أقرأ الناس؟، فقلت عبد الله بن إدريس قال ثم من؟، قلت ثم حسين الجعفى قال ثم من؟، قلت رجل آخر.

وعن حسين العنقزى قال لما نزل بابن إدريس الموت بكت بنته فقال لا تبكى يا بنية فقد ختمت القرآن فى هذا البيت أربعة آلاف ختمة.

وكان ابن إدريس يحرم النبيذ(1) وقال قلت لحفص بن غياث اترك الجلوس فى المسجد فقال أنت قد تركت ذلك ولم تترك قلت لأن يأتينى البلاء وأنا فار أحب إلى من أن يأتينى وأنا متعرض له قال أبو خيثمة سمعت ابن إدريس يقول:

كل شراب مسكر كثيره فإنه محرم يسيره

إنى لكم من شره نذيره

قال يعقوب بن شيبة حدثنا عبيد بن نعيم حدثنا الحسن بن الربيع البورانى قال قرئ كتاب الخليفة إلى ابن إدريس وأنا حاضر من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى عبد الله بن إدريس قال فشهق ابن إدريس شهقة وسقط بعد الظهر فقمنا إلى العصر وهو على حاله.

وانتبه قبيل المغرب وقد صببنا عليه الماء فلا شىء قال: إنا لله وإنا إليه راجعون صار يعرفنى حتى يكتب إلى، أى ذنب بلغ بى هذا؟

كان مولده سنة خمس عشرة ومئة ومات بالكوفة فى ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين عن وكيع أن عبد الله بن إدريس امتنع من القضاء وقال للرشيد لا أصلح فقال: الرشيد وددت إنى لم أكن رأيتك.

فقال: وأنا وددت أنى لم أكن رأيتك.

فخرج ثم ولى حفص ابن غياث وبعث الرشيد بخمسة آلاف إلى ابن إدريس فقال للرسول وصاح به مر من هنا.

فبعث إليه الرشيد لم تل لنا ولم تقبل صلتنا فإذا جاءك ابنى المأمون فحدثه فقال إن جاء مع الجماعة حدثناه وحلف ألا يكلم حفص بن غياث حتى يموت أبو سعيد(2).

---

(1) تمرات نبيذ فى الماء وله أحكام فيما إذا اشتد أو لم يشتد راجع أحكامه فى كتب الفقه المتخصصة.

(2) المصدر السابق.

٢٥ ـ محمد بن يوسف بن معدان

محمد بن يوسف ابن معدان الزاهد العابد القدوة أبو عبد الله الأصبهانى عروس الزهاد له حديث واحد وهو منكر وروى عن يونس بن عبيد والأعمش وأبان والحمادين آثارا وعنه ابن مهدى والقطان وابن المبارك والشاذكونى وزهير بن عباد وصالح بن مهران وآخرون.

وكان ابن المبارك يأتيه ويحبه وهو من أجداد أبى نعيم الحافظ لأبيه.

قال يحيى القطان: ما رأيت خيراً منه فذكر له الثورى فقال هذا شىء وهذا شىء وكان لا يضع جنبه.

وقد رابط وزار قبر أبى إسحاق الفزارى وكان يأتيه فى العام من أصبهان سبعون ديناراً فيحج ويرجع إلى الثغر.

مات سنة أربع وثمانين ومائة.

وكان لا يشترى خبزه من خباز واحد، ولا بقله من بقال واحد، وكان يشترى ممن لا يعرفه، وحين سئل عن ذلك قال: أخشى أن يحابونى فأكون ممن يعيش بدينه وكان لا يضع جنبه لنوم صيفاً ولا شتاءً.

ومات ولم يجاوز الأربعين سنة، وكانت وفاته عام ١٨٤ هـ. رحمه الله[١].

هؤلاء هم جلساء هارون وأهم علماء عصره فماذا إذن يكون الرشيد؟

■ ■ ■

(١) انظر سير أعلام النبلاء والبداية والنهاية.

5

لمحات من شخصية الرشيد الخليفة

- السنوات الأولى فى خلافة الرشيد.
- سخاء الرشيد وعطاياه لشعبه.
- الرشيد والعُبَّاد والزُّهَّاد والعلماء.
- الرشيد مع الشعراء والفصحاء.
- الرشيد وهديته العجيبة للملك شارلمان ملك الفرنجة.


مجلة
FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
الابتسامة

السنوات الأولى
فى خلافة الرشيد هارون

مات الخليفة، عاش الخليفة، أو مات الملك.. يحيا الملك، هكذا بدأ الرشيد خلافته بعد موت أخيه الخليفة الهادى كما ذكرنا عام ١٧٠ هـ.

فقد بويع له بالخلافة ليلة موت الهادى وهى ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول عام ١٧٠ هـ وكان عمره يومئذ اثنتين وعشرين سنة فى ريعان الشباب وفتوتة وقوته، فذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أنه بعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن وقد كان الهادى قد عزم تلك الليلة على قتل خالد بن يحيى وقتل هارون الرشيد معا وكان الرشيد وابن خالد بن يحيى إخوة من الرضاعة، فولاه الرشيد الوزارة وولى يوسف بن القاسم بن صحيح كتابة الإنشاء وهو الذى قام بين يديه حتى أخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ.

وذكر ابن كثير وغيره من المؤرخين أن أم الرشيد الخيزران هى التى أرسلت وأخرجت خالد بن يحيى من محبسه فجاء إلى الرشيد بالليل فوجده نائماً فقال له: قم يا أمير المؤمنين فقال له الرشيد: كم تروعنى، لو سمعك هذا الرجل يقصد أخاه لكان ذلك أكبر ذنوبى عنده.

وكان الرشيد لا يعلم بخبر وفاة أخيه الهادى، فقال له يحيى بن خالد البرمكى: قد مات الرجل.

فجلس هارون فقال له: أشر ـ أى أعطنى المشورة ـ علىَّ فى الولايات.

فجعل يحيى البرمكى يذكر الولايات ـ الأقاليم ـ لرجال يسميهم له فيوليهم الرشيد.

وفى تلك الليلة جاءت البشرى للرشيد بولادة ابنه عبد الله المأمون.

وفى الصباح تم تجهيز الخليفة المتوفَّى للدفن وصلى عليه الرشيد وتم دفنه

بعيساباذ، فلما فرغ من الجنازة أصدر الرشيد أول مرة وقراراته بضرب عنق أبى عصمة القائد الذى كان مع جعفر بن الهادى وقد أراد أبوه الهادى تعيينه ولياً للعهد بدلاً من أخيه الرشيد، ولم ينس الرشيد لأبى عصمة موقفه تجاهه حين عبر جعفر الجسر، فمنع أبى عصمة الرشيد من العبور حتى يعبر جعفر ابن أخيه وقال له: اصبر وقف حتى يجوز ولى العهد.

فقال الرشيد: السمع والطاعة للأمير.

فجاء جعفر وأبو عصمة ووقف الرشيد مكسوراً ذليلاً، ولهذا أمر بضرب عنقه حين تولى أمر الخلافة ثم سار إلى بغداد عاصمة الخلافة.

ومرَّ الرشيد إلى جسر بغداد واستدعى الغواصين فقال: إنى سقط منى ههنا خاتم كان والدى المهدى قد اشتراه لى بمائة ألف، فلما كان من أيام بعث إلىَّ الهادى يطلبه فألقيته إلى الرسول فسقط ههنا.

فغاص الغواصون وراءه فوجده وفرح الرشيد به.

وأصدر الرشيد أمراً بتولية أبيه من الرضاعة يحيى بن خالد بن برمك رئاسة وزرائه وقال له: قد فوضت إليك أمر الرعية وخلعت ذلك من عنقى وجعلته فى عنقك، فول من رأيت واعزل من رأيت.

وأمره ألا يقطع أمراً إلا بمشاورة والدته الخيزران كانت هى المشاورة فى الأمور كلها فتبرم وتحل وتمضى وتحكم كما كانت فى عهد زوجها المهدى وقد قال إبراهيم بن الموصلى فى تولى يحيى البرمكى الوزارة:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمةً
فلما وُلى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذى النَّدى(١)
فَهارون واليها ويحيى وزيرها

---

(١) الندى: الجود والكرم فى العطاء.

وكانت أولى سنوات الرشيد وخلافته أنه سار على نهج أبيه وأخيه فى تتبع الزنادقة والملاحدة فقتل منهم خلقاً كثيراً.

وقد روى الطبرى فى تاريخه بسنده أن موسى الهادى كان قد خلع الرشيد وبايع لابنه جعفر، وكان عبد الله بن مالك على الشرطة، فلما توفى الهادى هجم خزيمة بن خازم فى تلك الليلة، فأخذ جعفر بن الهادى من فراشه ـ وكان صبياً صغيراً ـ وكان خزيمة فى خمسة آلاف من مواليه معهم السلاح فقال له: والله لأضربن عنقك أو تخلعهما.

فلما كان من الغد، ركب الناس إلى باب جعفر فأتى به خزيمة فأقامه على باب الدار فى العُلو والأبواب مغلقة فأقبل جعفر ينادى:

ـ يا معشر المسلمين من كانت لى فى عنقه بيعة فقد أحللته منها والخلافة لعمى هارون ولا حق لى فيها.

وبهذا الفعل حظى خزيمة بمكانة كبيرة عند هارون.

وفى السنة الأولى من خلافته ولدت له زوجته زبيدة ابنه محمد الأمين فى شهر شوال عام ١٧٠ هـ وكان أخيه المأمون قد ولد فى ربيع الأول عام ١٧٠ هـ فى أول ليلة لهارون فى الخلافة كما ذكرنا وكانت أم المأمون جارية فارسية.

وفى عامه الأول توجه الرشيد لمكة المكرمة لأداء الحج.

وفى العام الثانى من خلافته أمر بقتل نائب الجزيرة أبا هريرة محمد بن فرج فى قصر الخلد بين يديه وتصدى للفضل بن سعيد الحرورى الذى خرج عليه وقتله وتوفت أم الرشيد الخيزران عام ١٧٣ هـ.

وفى عام ١٧٥ هـ أخذ الرشيد بولاية العهد من بعده لابنه محمد الأمين من زوجته زبيدة والذى ولد فى عام تولى الرشيد الخلافة وكذلك ابنه عبد الله المأمون الذى ولد من جارية فارسية، وكان عمر الأمين حين أخذت له البيعة بالولاية للعهد خمس سنوات.

وقد أنشد الشاعر سلم الخاسر فى ذلك:

قـــد وفق الله الخليـــفـــة إذ بنى

بيت الخـلافـة للـهـجـان الأزهر

فـــهـــو الخليـفـــة عن أبيـــه وجــده

شـــهـــدا عليـــه بمنظر وبمخـــبـــر

قـد بـايع الثـقـلان فى مـــهـد الـهـدى

لمحـمـد بن زبيـدة ابنة جـعــفــر

وكان الرشيد كما ذكرنا من قبل يريد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه عبد الله المأمون لولا تدخل زوجته زبيدة وأم الأمين فقد كان يقول الرشيد عن المأمون: والله إن فيه حزم المنصور ونسك المهدى، وعزة نفس الهادى ولو شئت أن أقول الرابعة منى لقلت وإنى لأقدم محمد بن زبيدة وإنى لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك[1].

وذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ وصفاً للرشيد فقال: وكان الرشيد أبيض طويلاً سميناً جميلاً.

وكان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم، وإذا حج أحج معه مائةً من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة وكان يحب التشبه بجده أبى جعفر المنصور إلا فى العطاء فإنه كان سريع العطاء جزيله وكان يحب الفقهاء والشعراء ويعطيهم ولا يضيع لديه بر ومعروف وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله وكان يصلى كل يوم مائة ركعة تطوعاً إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة[2].

وكان الرشيد قد أصدر عفواً أمَّن فيه من كان هارباً أو مستخفياً غير نفر من الزنادقة حين جلس على كرسى الخلافة وعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرية وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم.

وحين حج بالناس فى عامة الأول أعطى أهل الحرمين عطاءً كثيراً وقيل إنه غزا أيضاً فى تلك السنة عام ١٧٠ هـ.

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير.　　　(٢) المصدر السابق.

سخاء الرشيد
وعطاياه لشعبه

كان الرشيد كثير العطايا والجوائز للشعراء والعامة من الشعب الذين يأتون إليه في مجلسه العامر فقد ذكر ابن عبد رَبِّهِ في كتابه العقد الفريد أنه قيل لشبيب بن شيبة عند باب الرشيد: كيف رأيت الناس؟

قال: رأيت الداخل راجياً، والخارج راضياً.

والقصص في ذلك كثيرة ملأت بها كتب التأريخ نذكر منها:

بينما يسير الرشيد ويحيى الوزير يوماً، فوقف له رجل فقال: يا أمير المؤمنين، عطبت دابتي، فقال الرشيد: يعطى خمس مئة درهم، فغمزه وزيره يحيى بن خالد البرمكي فلما نزلوا قال له الرشيد: يا أبت أومأت إليَّ بشيءٍ ولم أعرفه[1]؟

فقال: مثلك لا يجري هذا القدر على لسانه، إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف، عشرة آلاف ألف.

فقال: إذا سئلت مثل هذا فكيف أقول؟

فقال: تقول: يشترى له دابة[2].

ودخل الأصمعي وابن أبي حفص الشطرنجي على هارون الرشيد، فخرج الرشيد فقال: يا أصمعي، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: فأيكما قال بيتاً وأصاب به المعنى الذي في نفسي فله عشرة آلاف درهم، قال ابن أبي حفص: قد حضرني بيت يا أمير المؤمنين، قال: هاته، فأنشأ يقول:

---

(١) كان الوزير يَحْيَى بن خالد البرمكي أباً للرشيد من الرضاعة.

(٢) وفيات الأعيان: مصدر سابق، ورغم سخاء الرشيد فإنه ترك في خزانة الدولة بعد وفاته كما ذكر ابن الأثير في الكامل في التاريخ نحو ٩٠٠ مليون دينار بقيمة هذا الزمن.

مـجلس يألف السـرور إليـه ... لحب ريحـانه ذكـراك

فقال: أحسنت والله، يا فضل أعطه عشرة آلاف درهم.

ثم قال ابن أبى حفص: قد حضرنى بيت ثان يا أمير المؤمنين، قال: هاته، فأنشأ يقول:

كلمـا دارت الزجـاجـة زادتـ ... ـه حنيناً ولوعـة فـبكاك

قال: أحسنت والله، يا فضل أعطه عشرة آلاف درهم، قال الأصمعى: فنزل بى فى ذلك اليوم ما لم ينزل قط مثله، أن ابن أبى حفص يرجع بعشرين ألف درهم، وبفخر ذلك المجلس، وأرجع صفراً منهما جميعاً ثم حضرنى بيت، فقلت: يا أمير المؤمنين قد حضرنى ثالث، فقال: هاته، فأنشأت أقول:

لم ينلْكَ المنى بأن تحضرينى ... وتجافت أمنيتى عن سواكَ

فقال: أحسنت والله، يا فضل أعطه عشرين ألف درهم، ثم قال هارون: قد حضرنى الرابع، فقلنا: إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنا فعل، فأنشأ يقول:

فـتمنيت أن يغـشينى اللـ ... ـه نعـاسـاً لعل عـينى تراك

قال: فقلنا يا أمير المؤمنين أنت والله أشعر منا، فجوائزنا لأمير المؤمنين، فقال: جوائزكما لكما، وانصرفا[1].

ودخل إسحاق بن إبراهيم الموصلى على الرشيد يوماً، فقال: أنشدنى من شعرك، فأنشد:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى ... فـذلك شىء مـا إليـه سـبيل

أرى الناس خِلان الجواد ولا أرى ... بخـيـلاً له فى العـالمين خليل

ومن خيرِ حالات الفتى ـ لو علمته ـ ... إذا نال خـيـراً أن يكون ينيل

عطائى عطاءُ المكثرين تكرمـا ... ومالى ـ كما قد تعلمين ـ قليل

(١) تاريخ بغداد: للخطيب البغدادى.

وإني رأيت البخل يزْرى بأهله ... ويحقر يوماً أن يقال بخيل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأى أمير المؤمنين جميل ؟

قال: لا، كيف إن شاء الله، يا فضل أعطه مئة ألف درهم، لله در أبيات تأتينا بها، ما أحسن فصولها، وأثبت أصولها.

فقال إسحاق الموصلي: يا أمير المؤمنين كلامك أجود من شعرى، قال: أحسنت، يا فضل أعطه مئة ألف أخرى(١).

ووقف رجل من بنى أمية للرشيد على الطريق وبيده كتاب كالقصة، فإذا فيه أربعة أبيات، وهى:

يا أمينَ اللهِ، إنّي قائلٌ ... قَوْلَ ذي لبّ وصدق وحسبْ

لكُمُ الفضل علينا، ولنا ... بكُمُ الفضلُ على كلٌ العربْ

عبد شمس كان يتلو هاشماً ... وهما بعدُ لأمٍّ ولأبٌ

فَصِلِ الأرحامَ منا، إنَّما ... عبدُ شمسٍ عمٌّ عبدِ المطلبُ

فاستحسن ذلك الرَّشيد، فأمر له لكل بيت بألف دينار، وقال: لو زدتنا لزدناك.

وقدم هارون الرشيد الكوفة، فكتب قوماً من القُرَّاء، فأمر لكل واحد منهم بألفى درهم، فكان داود الطَّائى ممن كُتب فيهم ودعى باسمه أين داود الطائى؟ فقالوا: داود يجيبكم؟ أرسلوا إليه.

قال ابن السماك وحماد بن أبى حنيفة: نحن نذهب إليه، قال ابن السماك لحماد فى الطريق: إذا نحن دخلنا عليه فانثرها بين يديه، فإن للعين حظها، فقال حماد: رجل ليس عنده شىء يؤمر له بألفى درهم يردها!! فلما دخلوا عليه فنثروها بين يديه قال: سوءة، إنما يفعل هذا بالصبيان، وأبى أن يقبلها(٢).

قال الأصمعى: فإنى عند الرشيد يوماً وعنده عيسى بن جعفر، فأقبل على

---

(١) تاريخ بغداد ـ مصدر سابق.

(٢) وفيات الأعيان ـ مصدر سابق.

مسرور الكبير، فقال له: يا مسرور كم فى بيت مال السرور؟

قال: ليس فيه شىء.

فقال عيسى: هذا بيت الحزن.

قال: فاغتم لذلك الرشيد، وأقبل على عيسى فقال: والله لتعطين الأصمعى سلفاً على بيت مال السرور ألف دينار، فاغتم عيسى وانكسر.

قال: فقلت فى نفسى جاء موضع البيتين، فأنشدت الرشيد:

إذا شئت أن تلقى أخاك مُعَبَّاً   وجداه في الماضين، كعب، وحاتم

فكشْ عمَّا في يديه فإنَّما   تكشف أخبار الرِّجالِ الدَّراهمُ

قال: فتجلَّى عن الرشيد، وقال لمسرور: أعطه على بيت مال السرور ألفى دينار، وما كان البيتان يساويان عندى درهمين[1].

وقدم الرشيد الرقة فى شهر رمضان سنة ١٩٠ هـ، بعد أن فتح هرقلة[2] فلما عيد جلس، فدخل عليه المهنئون، وكان من بينهم شعراء كثر، وفيهم أشجع السامى، فبدر فأنشد:

لازلت تنشر أعياداً وتطويها   تمضي لها بك أيَّام وتُمضيها

ولا تفضُّ بك الدنيا ولا برحت   يطوي بك الدَّهرُ أياماً وتطويها

ليهنك الفتحُ والأيَّامُ مقبلة   إليكَ بالنَّصرِ معقوداً نواصيها

أمسَت هِرقلةُ تهوي من جوانبها   وناصرُ الله والإسلامِ يرميها

ملكتَها وقتلتَ الناكثين بها   بنصر من يملك الدُّنيا وما فيها

ما روعىَ الدينُ والدُّنيا علي قدَم   بمثل هارون راعيه وراعيها

فأمر الرشيد بعشر آلاف دينار وقال لا ينشد فى أحد بعد ودخل عليه

(١) تاريخ بغداد ـ مصدر سابق.

(٢) انظر معجم البلدان ـ ياقوت الحموى.

العمانى ذات يوم يرتدى قلنسوة طويلة وخُفًا ساذجاً، فقال له الرشيد: يا عمانى، إياك أن تنشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور، وخفان دلقمان(١).

فبكر إليه من الغد وقد تزيًا بزىَّ الأعراب، ثم أنشده وقبل يده وقال: يا أمير المؤمنين، قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبلت يده، وأخذت جائزته، ثم يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ثم السفاح، ثم المنصور، ثم المهدى، كل هؤلاء رأيت وجوههم، وقبلت أيديهم، وأخذت جوائزهم إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة والرؤساء، والله ما رأيت فيهم أبهى منظراً، ولا أحسن وجهاً، ولا أنعم كفاً، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين.

فأعظم له الجائزة على شعره، وأضعف له على كلامه وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى جميع من حضر، أنه قام ذلك المقام(٢).

وكان الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضى وعبدالوهاب الكوفى فى مجلسه، فتذاكروا والرطب، فقال أبو يوسف: السكر أطيب من المشان(٣)، وقال عبدالوهاب: المشان أطيب، فقال الرشيد: ليحضر الطعام.

ودعا بعدة من بنى هاشم كانوا هناك، فأقبلوا جميعاً على السكر، وتركوا المشان، فقال الرشيد: قضوا عليك يا أبا عبدالرحمن وهم لا يعلمون.

فقال أبو عبدالرحمن ـ عبدالوهاب الكوفى ـ: إنى لم أر «مشان» قط أردأ من هذا.

فقال أبو يوسف: هكذا هما إذا اجتمعا(٤).

قال إبراهيم بن المهدى: كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة ـ السفن فيها مرامى نيران ـ وهو يريد نحو الموصل، والشطرنج بين أيدينا، فلما فرغنا قال لى

---

(١) الدلقم دابة صغيرة جميلة ناعمة الملمس والدمالق هو الحجر الأملس.

(٢) عيون الأخبار.

(٣) السكر والمشان «بضم الميم أو كسرها» وهما نوعان من التمر ـ انظر مختار الصحاح.

(٤) انظر مروج الذهب للسعودى.

الرشيد: يا إبراهيم ما أحسن الأسماء عندك؟

قلت: اسم رسول الله ﷺ.

قال: فما الثانى بعده؟

قلت: اسم هارون اسم أمير المؤمنين.

قال: فما أسمجها؟

قلت: إبراهيم.

فزأرنى وقال: ويلك!! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن جل وعز.

قلت: بشؤم هذا الاسم لقى ما لقى من غرور.

قال: وإبراهيم ابن رسول الله ﷺ، قلت: لا جرم لما سمى بهذا الاسم لم يعش.

قال: فإبراهيم الإمام.

قلت: بجرفة اسمه قتله مروان الجعدى فى جراب النورة، وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلع، وإبراهيم بن عبدالله بن الحسن قتل، ولم أجد أحداً سمى بهذا الاسم إلا رأيته مقتولاً أو مضروباً أو مطروداً. فما انقضى كلامى حتى سمعت ملاحاً على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته شاتماً رجلاً اسمه إبراهيم، فالتفت إلى الرشيد، فقلت: يا أمير المؤمنين أصدقت قولى إن أشام الأسماء إبراهيم؟

فضحك الرشيد كثيراً.

ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً وبين يديه حمامة تلتقط حباً، فقال له: صفها وأوجز.

فقال: كأنما المنظر من ياقوتتين، وتلتقط بدرتين، وتطأ على عقيقتين، وأنشدونا لبعضهم:

هتفت هاتفة ... آذَنَها إلْفٌ يبين
ذاتُ طوقٍ مثل عَطْـ ... ـف النون أقنى الطَّرفَيْن

وتـــراهـــا نـــاظـــرة	نـحـــو من ياقـــوتـتـين
تـرجـع الأنـفـــاس من	ثـقـــبين كــــاللـؤلـؤتـين
وتـري مـــثـل البـــســا	تين لـهـــا قـــادمـــتـين
ولـهـا لحـيـان كـالصـد	غـيـــر من عـــرعـــرتين
ولـهـا ســاقـــان حـــمـ	ـراوان مــــثـل الوردتـين
نـســجت فـــوق جنا	حـيـهـا لهـا برنوسـتـين
وهـي طاووســيَّـــة اللَّـ	ـونِ بـنـان المـنـكـبـين
تحـت ظـل مـن ظـلال ا	لأيْكِ صـافي الكتـــفين
فَـقَـدَتْ إلفـاً فناحت	من تبـــــاريح وبين
فـهي تبكيـه بلا	دمعٍ جـمـود المقلتين
وهـي لا تصـبغ عـيناً	ها كـمـا تصـبغ عـيني[١]

ودخل مَعْنُ بن زائدة على الرشيد فمشى فقارب الخطو، فقال له: كبرت والله يا معن؟

فقال معن: فى طاعتك يا أمير المؤمنين.

قال الرشيد: وإن فيك على ذلك لبقية.

قال: هل لك يا أمير المؤمنين.

قال: وإنك لجلد، قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين، فرضى عنه وولاه.

قال الكسائى: دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء، وثبت للقيام، فقال: اقعد.

فلم أزل عنده حتى خفَّ عامة من كان فى مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال

---

(١) المصدر السابق.

لى: يا على، ألا تحب أن ترى محمداً وعبدالله؟ ـ ابنى الرشيد ـ قلت: ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما، فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء، فأمرهما بالدنو منه فدنوا فصير محمداً عن يمينه وعبدالله عن يساره، ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما، ففعلت، فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه، ثم قال لى: يا على، كيف ترى مذهبهما وجوابها؟ فقلت: يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر:

أرى قَمَرَىْ مَجْدٍ وفرعىْ خلافةٍ   يزيْنهما عِرْقٌ كريمٌ ومحتد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت فى الثرى عروقه، وعذبت مشاربه، أبوهما أغر، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، يحكمان بحكمه، ويستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلبان فى سعادته، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما.

ثم قلت لهما: هل ترويان من الشعر شيئاً؟

فقالا: نعم، ثم أنشدنى محمد:

وإنّي لغف الفقر مشترك الغنى   وتارك شكل لا يوافقه شكلى

وأجعل مالى دون عِرضىَ جُنَّة   لنفسي، ومفضال بما كان من فضلِ

ثم أنشد عبدالله:

بكرت تلومُكَ مَطْلَعَ الفجر   ولقد تلوم بغير ما تدرى

مَلَكُ الأمورِ عليَّ مقتدر   يُعْطى إذا ما شاء من يُسْرِ

ولرُبَّ مغتبط بمرزئه   ومفجع بنوائب الدهر

وترى قناتى حين يغمدُها   عضُّ الثقاف بطيئة الكسر

فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب ألسنا ولا أحسن ألفاظاً ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا منهما، ودعوت لهما دعاء كثيراً، وأمن الرشيد على دعائى، ثم ضمهما إليه، وجمع يده عليهما، فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره.

أحضر جعفر بن سليمان على مائدته بالبصرة يوم أن زاره الرشيد ألبان الظباء وزبدها فاستطاب الرشيد الطعام وسأل عن سر لذة الطعام وطيبه.

وغمز جعفر بعض الغلمان، فأطلق عن الظباء ومعها خشفانها ـ ولدها الصغار ـ وعليها غطاء درعها، حتى مرت فى تجاه عين الرشيد، فلما رآها على تلك الحال وهى مقرطة مخضبة، استخفه الفرح والتعجب، حتى قال: ما هذه الألبان؟ وما هذه السمنان واللبأ والرائب والزبد الذى بين أيدينا؟

قال: من حلب هذه الظباء، ألفت وهى خشفان فتلاقحت وتلاحقت[1].

وقال الأصمعى: حضرت أنا وأبو عبيدة معمر بن المثنى عند الفضل بن الربيع ـ وقد روى من طريق أخرى أن ذلك كان عند الرشيد ـ فقال لى: كم كتابك فى الخيل.

فقلت: جلد واحد.

فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال: خمسون جلدة.

فأمر بإحضار الكتابين وأحضر فرساً، وقال لأبى عبيدة اقرأ كتابك حرفاً حرفاً وضع يدك فى موضع موضع من الفرس، فقال: لست بيطاراً[2]، وإنما هذا شىء أخذته عن العرب.

فقال لى: قم يا أصمعى وافعل ذلك، فقمت وأمسكت ناصيته، وشرعت أذكر عضواً عضواً، وأضع يدى عليه وأنشد ما قالت العرب فيه، إلى أن فرغت منه.

فقال: خذه، فأخذته، وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه.

---

(١) انظر كتاب الحيوان للدميرى.

(٢) بيطاراً معالج الحيوان.

وقال الرشيد لأبى عبيدة: ما تقول فيما قال؟

قال: أصاب فى بعض، وأخطأ فى بعض، فالذى أصاب فيه منى تعلمه، والذى أخطأ فيه ما أدرى من أين أتى به(1).

وقال الأصمعى: ذكرت يوماً للرشيد نهم الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك، وقلت: إنه كان يجلس ويحضر بين يديه الخراف المشوية، وهى كما أخرجت من تنانيرها، فيريد أخذ كلاها فتمنعه الحرارة، فيجعل يده على طرف جبته ويدخلها فى جوف الخروف فيأخذ كلاه.

فقال لى: قاتلك الله، ما أعلمك بأخبارهم! اعلم أنه عرضت على ذخائر بنى أمية، فنظرت إلى ثياب مذهبة ثمينة، وأكمامها ودكة بالدهن، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتنى الحديث، ثم قال: على بثياب سليمان، فأتى بها، فنظر إلى تلك الآثار فيها ظاهرة فكسانى منها حلة.

وكان الأصمعى ربما خرج فيها أحياناً فيقول: هذه جبة سليمان التى كسانيها الرشيد(2).

الرشيد مع الشعراء الفصحاء:

دخل الفرَّاء أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمى على الرشيد، فتكلم بكلام لحن فيه ـ أى أخطأ فى اللغة ـ فقال الوزير جعفر البرمكى:

ـ إنه قد لحن يا أمير المؤمنين.

فقال الرشيد للفراء: أتلحن؟

فقال الفراء: يا أمير المؤمنين، إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت، فاستحسن الرشيد قوله(3).

وأنشد العباس بن الأحنف الرشيد يوماً قوله:

---

(1)، (2)، (3) وفيات الأعيان ـ مصدر سابق.

طاف الهوى فى عباد الله كلهم حتى إذا مر بى من بينهم وقفا

قال له الرشيد: ما الذى رأى فيك حتى وقف عليك؟

قال: سألنى عن جود أمير المؤمنين فأخبرته، فاستحسن الرشيد جوابه ووصله[1].

عمل الرشيد بيتاً من الشعر وأراد أن يزيده بآخر فامتنع القول عليه، فقال: علىَّ بالعباس.

فلما وقف بين يدى الرشيد قال له: وجهت إليك بسبب بيت قلته، ورمت أن أشفعه بمثله فامتنع القول علىَّ.

فقال: يا أمير المؤمنين، دعنى حتى ترجع إلىَّ نفسى، فإنى تركت عيالى على حال من القلق عظيمة، ونالنى من الخوف ما يتجاوز الحد والوصف، فانتظر هنيهة ثم أنشده:

جنان قد رأيناها ولم نَر مثلها بشرا

فقال العباس بن الأحنف:

يزيدك وجْهُهَا حُسناً إذا ما زِدْتَه نظرا

فقال: زدنى، فقال:

إذا ما الليل سال عليك بالإظلام واعتكرا

ودجَّ فلن تَرَ قمراً فأبرزها تَرَ قمراً

فقال له الرشيد: قد ذعرناك وأفزعنا عيالك، وأقل الواجب أن نعطيك ديتك، وأمر له بعشرة آلاف درهم[2].

حلف الرشيد ألا يدخل إلى جارية له أياماً، وكان يحبها، فمضت الأيام ولم تسترضه، فقال:

(١) وفيات الأعيان ـ مصدر سابق.

(٢) دية قتيل الخطأ.

صَـــدَّ عَنِّى إذا رآنى مــفــتتن   وأطال الصَّــبـــر لما أن فَطَنْ

كـان مملوكى فـأضـحى مـالكى   إنَّ هذا من أعـــاجــيـب الزَّمنْ

ثم أحضر أبا العتاهية، فقال: أجزهما، فقال:

عِـــــزَّةُ الحبُ أرَتْـهُ ذِلَّتـى   فى هـواه، وله وجــهٌ حَـسَنْ

فـلهـــذا صــرت مملوكـــاً لَهُ   ولِهــذا شـاعَ مــا بى وعَلَنْ(١)

قـال الأصـمـعى: جمع الرشـيـد من الأطباء أربعـة: عـراقيـاً، وروميـاً، وهنديا، ويونانيا. فقال: ليصف لى كل واحد منكم الدواء الذى لا داء معه.

فقال العراقى: الدواء الذى لا داء معه حب الرشاد الأبيض.

وقال الهندى: الإهليلج الأسود.

وقال الرومى: الماء الحار.

وقال اليونانى ـ وكان أطبهم ـ حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحار يرخى المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكن الدواء الذى لا داء معه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه(٢).

دخل سـهل بن هارون على الرشـيـد وهو يضـاحك ابنه المأمـون، فـقـال سـهل ـ يدعو للمأمون ـ: اللهم زده من الخيرات، وابسطْ له من البركات، حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه، مقصراً عن غده.

فقال له الرشـيد: يا سهل، من روى من الشعر أفصحه، ومن الحديث أوضحه، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول، قال: يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً سبقنى إلى هذا المعنى.

قال: بلى، سبقك أعشى همذان، حيث يقول:

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى.

(٢) العقد الفريد ـ مصدر سابق.

رايتك أمس خير بنى معدٍ   وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً   كذاك تزيد سادة عبدِ شمس

وقال الرشيد: لو قيل للدنيا صفى لنا نفسك، وكان ممن ينطق، ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبى نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفتْ   له عن عدو فى ثياب صديق
وما الناس إلا هالك وابن هالك   وذو نسبٍ فى الهالكين عريق[1]

ومن ذكاء الرشيد ما روى ما ذكره صاحب المُسْتَطْرَف فى كل فن مُسْتَظْرَف أن امرأة دخلت على الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين! أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت.

فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟

فقالت: من آل برمك، ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم.

فقال: أما الرجال فقد مضى أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت المرأة؟

قالوا: ما نراها قالت إلا خيراً.

قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك، فتعنى أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ (الأنعام: ٤٤)، وأما قولها وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه   تَرَقَّبْ زوالاً إذا قِيلَ تَمْ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن: ١٥).

فتعجبوا من ذلك.

---

(١) العقد الفريد ـ مصدر سابق.

ذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب أن الرشيد زار أخاه إبراهيم بن المهدى فى الرقة فقدم له الطعام فرأى الرشيد فى أطباق الطعام مثل قريص السمك - قطع صغيرة - فاستصغر القطع وقال: - لِمَ صغَّر طباخك تقطيع السمك؟

فقال إبراهيم له: يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك.

فقال الرشيد له: فيشبه أن يكون فى الجام مائة لسان. وسأله عن ثمن السمك الذى اخترمته ألسنته فأخبره بأنه أكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده وحلف ألا يطعم شيئاً دون أن يحضره ألف درهم، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به، وقال: أرجو أن يكون كفارة تسرفك فى إنفاقك على جام سمك ألف درهم، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال: اخرج من دار أخى، ثم انظر أول سائل تراه فادفعه إليه.

قال إبراهيم: وكان شراء الجام على الرشيد بمئتين وسبعين ديناراً، فغمزت بعض خدمى للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير إليه، وفطن الرشيد فقال له: يا غلام إذا دفعته إلى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مئتى دينار فإنه خير منها، ففعل الخادم ذلك، فوالله ما أمكن خادمى أن يخلصه من السائل إلا بمئتى دينار(1).

قال الرشيد يوماً لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟

فقال: يا أمير المؤمنين المديح فيك دون قدرك، والشعر فيك فوق قدرى، ولكنى أستحسن قول العتابى (كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبى) (توفى عام ٢٢٠ هـ)(2):

ماذا يرى قائلٌ يُثنى عليك وقد ... ناداك فى الوحى تقديسٌ وتطهير

فُـتَّ المدائحَ إلاَّ أنَّ ألسُـنَـنا ... مُستَنْطقات بما تُخفى الضَّمائير

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى.

(٢) كاتب وشاعر، رمى بالزندقة، فطلبه الرشيد، فهرب إلى اليمن، فسعى الفضل بن يحيى البرمكى بأخذ الأمان له من الرشيد، فأمنه، وعاد فاختص بالبرامكة، من كتبه: فنون الحكم، الآداب، الخيل، الأجواد، الألفاظ.

في عتـرة لم تقم إلا بطاعتـهم — من الكتـاب ولم تُقضَ الْمشـاعيـر
هذى يمينك فى قُـرْباك صـائلةٌ — وصارمٌ من سيوف الهند مأثور[1]

وقال الرشيد للعباس بن الحسن: أراك تكثر من ذكر يَنْبُع[2] وصفتها، فصفها لى وأوجز، قال: بكلام أو شعر؟ قال الرشيد: بكلام وشعر، فقال العباس بن الحسن: جِدَتُها فى أصل عِذقها، وعِذْقها مسرَّح شأنها، فتبسَّم الرَّشيد، فقال العباس:

يا وادِىَ القصـرِ نِعم القصـرُ والوادى — مِن مَنزلٍ حاضـرٍ إن شئتَ أو بادى
ترى قـراقيـره والعِيسَ وَاقـفـةً — والضبُّ وَالنونَ والملاَّح والحادى[3]

■ ■ ■



(١) عيون الأخبار: العقد الفريد.

(٢) ميناء المدينة المنورة على ساحل البحر الأحمر، «وفيها عيون عذب غزيرة.. وهى قرية غناء.. ينبع حصن به نخيل وماء وزرع» (معجم البلدان).

(٣) تاريخ الطبرى: ـ مصدر سابق.

الرشيد وحبه
للعباد والزهاد والعلماء

لم يكن الرشيد مزدوج الشخصية كما صوره من أرادوا تشويه صورته مثل الأصفهانى وغيره، فقد كان الرشيد يحب العلماء والعباد والزهاد وهذا ثابت فى كتب الثقات من العلماء والمؤرخين.

يقول الذهبى: وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكى على نفسه ولهوه وذنوبه لا سيما إذا وعظ.

يقول الخطيب البغدادى: وكان يحب الفقه والفقهاء، ويميل إلى العلماء.

عن أبى معاوية أيضاً قال: أكلت مع الرشيد يوماً، ثم صب على يدى رجل لا أعرفه، ثم قال الرشيد: تدرى من يصب عليك؟ قلت: لا، قال: أنا، إجلالاً للعلم، قال أبو معاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم.

ويروى بعضهم: دخلت على هارون الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه فى قفا الرجل المقتول، فقال هارون الرشيد: قتلته لأنه قال القرآن مخلوق، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل.

وبلغه عن بشر المريسى القول بخلق القرآن، فقال: لئن ظفرت به لأضربن عنقه.

وأخرج ابن عساكر عن ابن علية، أخذ هارون الرشيد زنديقاً، فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقى؟

فقال الرشيد: أريح العباد منك.

فقال الزنديق: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله كلها ما فيها حرف نطق به!!

فقال الرشيد: فأين أنت يا عدو الله من أبى إسحق الفزارى، وعبد الله بن المبارك، فينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفا!!

وروى أنه لما لقى الفضيل بن عياض هارون الرشيد، فقال الفضيل: يا حسن الوجه أنت المسؤول عن هذه الأمة، حدثنا ليث عن مجاهد (وتقطعت بهم الأسباب) قال: الوصل الذى كان بينهم فى الدنيا، فجعل هارون الرشيد يبكى وينتحب رحمه الله!!، وكان يأتى بنفسه بيت الفضيل بن عياض كما ذكرنا من قبل.

ويقول منصور بن عمار: ما رأيت أغزر دمعا عند الذكر من ثلاثة: فضيل بن عياض، وأبو عبد الرحمن الزاهد، وهارون الرشيد.

وكان هارون الرشيد من جملة دعائه: يا من خشعت له الأصوات بأنواع اللغات يسألونه الحاجات، إن من حاجتى إليك أن تغفر لى ذنوبى إذا توفيتنى، وصرت فى لحدى، وتفرق عنى أهلى وولدى، اللهم لك الحمد حمداً يفضل كل حمد كفضلك على جميع الخلق، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون له رضا، وصل عليه صلاة تكون له ذخراً وأجزه عنا الجزاء الأوفى، اللهم أحينا سعداء وتوفنا شهداء واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء مرجومين.

يقول محمد بن منصور البغدادى: لما حبس الرشيد أبا العتاهية جعل عليه عينا يأتيه بما يقول، فرآه يوماً قد كتب على الحائط:

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم

إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر الرشيد بذلك فبكى وأحضره واستحله!!

وبلغ من بعض عمال يوماً حسن سيرته وتحريه العدل والأمانة، فأرسل إليه الرشيد يستقدمه ليكافأه ويكون مقدما عنده، فدخل عليه الرجل، وكان الرشيد يأكل سفرجلا، وهو يقشره ويأكل منه، فقال له: يا فلان، ما أحسن ما انتهى إلى مولاك عنك، ولك عنده ما تحب، وقد أمرت لك بكذا وكذا، ووليتك كذا وكذا، فسل حاجتك!

فتكلم الرجل بحسن سيرته وقال: أنسيتهم والله يا أمير المؤمنين سيرة العمرين!!

فغضب هارون الرشيد واستشاط غضبا، وأخذ السفرجلة فرماه بها، وقال: يا بن اللخناء، العمرين!، العمرين!، العمرين! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز، نحتملها لعمر بن الخطاب!!

وقال له بعض أهل العلم: يا أمير المؤمنين انظر إلى هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك.

فقال الرشيد: أولست كذلك؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما.

ولم تكن مجالس الرشيد مجلس لهو ومجون كما صورها البعض خاصة الأصفهانى، فقد كان الرشيد يحج عاماً ويغزو فى سبيل الله عاماً ثانيا، فقد حج الرشيد أعوام ١٧٠، ١٧٣ هـ، ١٧٤ هـ، ١٧٥ هـ، و ١٧٧ هـ، ١٨٠ هـ، ١٨١ هـ، ١٨٦ هـ، ١٨٨ هـ.

وحدث الأصمعى عن شبيب بن شيبة قال: كنا فى طريق مكة، فجاء أعرابى فى يوم صائف شديد الحر، ومعه جارية سوداء وصحيفة، فقال: أفيكم كاتب؟

قلنا: نعم؛ وحضر غداؤنا فقلنا: لو دخلت وأصبت من الطعام! قال: إنى صائم.

قلنا: فى الحر وشدته وجفاء البادية!

فقال: إن الدنيا كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، ولا أحب أن أغبن أيامى ـ أضعفها ـ ثم نبذ إلينا الصحيفة، وقال: اكتب ولا تزيدن على ما أقول حرفاً:

هذا ما أعتق عبد الله بن عقيل الكلابى، أعتق جارية له سوداء يقال لها لؤلؤة، ابتغاء وجه الله تعالى وجواز العقبة، وإنه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولاء، المنة لله عليها وعليه واحدة.

قال الأصمعى: فحدثت الرشيد، فأمر أن يعتق عنه ألف نسمة أو مئة نسمة، ويكتب لهم هذا الكتاب(١).

لقى الفضيل بن عياض الرشيد فى آخر حجة له، وفيه رأى الفضيل، فقال الفضيل بعد لقائه مع الرشيد: لو أن لى دعوة مستجابة لجعلتها للإمام، لأن به صلاح الرعية، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد(٢).

وفى طريق عودة الرشيد إلى بغداد، رأى فى الكوفة بهلول المجنون، فنصح بهلول الرشيد وحاول الربيع إسكاته، فقال له الرشيد: قل يا بهلول، فقال:

هب أن قـدْ ملكتَ الأرض طراً ... ودان لك العباد فكان ماذا!

أليس غداً مصيرُك جوف قبرٍ ... ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا؟

قال الرشيد: أجدت يا بهلول، أفغيره؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالاً وجمالاً، فعف فى جماله، وواسى فى ماله، كتب فى ديوان الله من الأبرار.

فظن الرشيد أنه يريد شيئاً، فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك.

فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يقضى دين بدين، أردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك.

قال الرشيد: إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق تقتات به، قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنه سبحانه لا يعطيك وينسانى، وها أنا قد عشت عمراً لم تجر علىَّ رزقاً، انصرف لا حاجة لى فى جرايتك.

قال الرشيد: هذه ألف دينار خذها.

قال: اردد على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عنى فقد آذيتنى.

---

(١) انظر عيون الأخبار: مصدر سابق.

(٢) انظر تاريخ بغداد: مصدر سابق.

فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا[1].

قال الكسائى: صليت يوماً بالرشيد، فأعجبتنى قراءتى، فغلطت غلطة ما غلطها صبىٌّ، أردت أن أقول (لعلهم يرجعون)، فقلت: (لعلهم ترجعين)، فما تجاسر الرشيد أن يردها، فلما سلمت قال: أى لغة هذه؟ فقلت: إن الجواد قد يعثر. فقال الرشيد: أما هذا فنعم[2].

وكان الرشيد يغدق العطايا على العلماء والفقهاء ويرتب لهم الرواتب، وكان من هؤلاء العالم سفيان بن عيينة الذى رتب له ألف درهم كل شهر كما ذكر ذلك ابن كثير فى البداية والنهاية، فكان سفيان يدعو للرشيد فى سجوده، ويقول: اللهم إنه كفانى المؤونة، وفرغنى للعبادة فاكفه أمر آخرته.

ولما مات سفيان وُجد فى جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه: «قد تقدم الخصم والمدعى عليه بالأثر، والحاكم الحكم العدل الذى لا يجور ولا يحتاج إلى بينة» فحملت إلى الرشيد، فلما قرأها بكى يومه ذاك، وبقى أياماً يتبين الأسى فى وجهه.

قال ابن السماك وهو محمد بن صبيح الواعظ للرشيد:

إن الله لم يجعل أحداً فوقك، فاجتهد الا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك.

فقال الرشيد: لئن كنت أقصرت فى الكلام، لقد أبلغت الموعظة.

قال الأصمعى فيما ذكره عنه ابن كثير فى البداية والنهاية:

دخلت على الرشيد وهو يقلم أظافره يوم الجمعة، فقلت له فى ذلك فقال: أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة، وبلغنى أن أخذها يوم الجمعة ينفى الفقر، فقلت: يا أمير المؤمنين، أو تخشى الفقر؟

فقال: يا أصمعى، وهل أحد أخشى للفقر منى؟!

روى ابن عساكر عن إبراهيم المهدى قال: كنت يوماً عند الرشيد، فدعا طباخه فقال: أعندك فى الطعام لحم جزور؟

(١)، (٢) انظر البداية والنهاية مصدر سابق، وبهلول المجنون يعد من عقلاء المجانين فى عصره، تشوش عقله وقد توفى عام ١٨٣ هـ.

قال: نعم، ألوان منه.

فقال: أحضره مع الطعام.

فلما وضع بين يديه، أخذ لقمة منه فوضعها فى فيه، فضحك جعفر البرمكى، فترك الرشيد مضغ اللقمة، وأقبل عليه فقال: مِمَّ تضحك؟

قال: لا شىء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلاماً بينى وبين جاريتى البارحة.

فقال له: بحقى عليك لما أخبرتنى.

قال جعفر: بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك؟

قال الرشيد: بأربعة دراهم.

قال جعفر: لا والله يا أمير المؤمنين، بل بأربع مئة ألف درهم.

قال: وكيف ذلك؟

قال: إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة، فلم يوجد عنده، فقلت: لا يخلون المطبخ من لحم الجزور، فنحن ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين، لأنا لا نشترى من السوق لحم جزور، فصرف فى لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربع مئة ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم.

قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة، فهى على أمير المؤمنين بأربع مئة ألف.

قال جعفر: فبكى الرشيد بكاءً شديداً، وأمر برفع السماط من بين يديه، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول: هلكت والله يا هارون، ولم يزل يبكى حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر، فخرج فصلى بالناس.

ثم رجع يبكى حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وقد أمر بألفىْ ألفِ (مليونين) تصرف إلى فقراء الحرمين، فى كل حرم ألف ألف صدقة، وأمر بألفى ألف يتصدق بها فى جانبى بغداد الغربى والشرقى، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة.

ثم خرج إلى صلاة العصر، ثم رجع يبكى حتى صلى المغرب، فدخل عليه أبو يوسف القاضى فقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين باكياً فى هذا اليوم؟ فذكر أمره، وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته، وإنما ناله منها لقمة.

فقال أبو يوسف لجعفر: هل كان ما تذبحونه من الجزر يفسد أو يأكله الناس؟

قال: بل يأكله الناس، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذى أكله المسلمون فى الأيام الماضية، وبما يسره الله عليك من الصدقة، وبما رزقك من خشيته وخوفه فى هذا اليوم، وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦)، فأمر له الرشيد بأربع مئة ألف، ثم استدعى بطعام فأكل منه، فكان غداؤه فى هذا اليوم عشاء[1].

وعن شعيب بن حرب المدائنى قال: بينا أنا فى طريق مكة إذ رأيت هارون الرشيد، فقلت فى نفسى: قد وجب عليك الأمر والنهى، فقالت لى: لا تفعل فإن هذا رجل جبار، ومتى أمرته ضرب عنقك، فقلت لنفسى: لا بد من ذلك، فلما دنا منى صحت:

يا هارون! قد أتعبت الأمة وأتعبت البهائم.

فأمر الرشيد به، فقال: ممن الرجل؟

فقلت: رجل من المسلمين، فقال: ثكلتك أمك من أنت؟

فقلت: من الأنبار[2]، فقال: ما حملك على أن دعوتنى باسمى؟ قال شعيب: فورد على قلبى كلمة ما خطرت لى قط على بال، فقلت له: أنا أدعو الله باسمه فأقول: يا الله يا رحمن، أفلا أدعوك باسمك؟ وما ينكر من دعائى باسمك وقد رأيت الله تعالى سمى فى كتابه أحب الخلق إليه: يا آدم، يا نوح، يا هود، يا صالح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، يا محمد، وكَنَّى أبغض الخلق إليه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا

---

(١) انظر البداية والنهاية: مصدر سابق.

(٢) الأنبار: مدينة على الفرات فى غرب بغداد، يسميها الفرس «فيروز سابور»، والأنبار أيضاً مدينة قرب مدينة بلخ. «معجم البلدان».

أَبِي لَهَبٍ﴾، فقال الرشيد: أخرجوه أخرجوه، فأخرجت[١].

وقال له ابن السماك يوماً: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدى الله عز وجل والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم، وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تقبل، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال، فجعل الرشيد يبكى حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة، فقام فخرج من عنده وهو يبكى[٢].

وقال الرشيد لأبى العتاهية: عظنى بأبيات من الشعر وأوجز فقال:

لا تأمن الموت فى طرفٍ ولا نفس ... ولو تمتعت بالحجاب والحرس

واعلم بأن سهام الموت صائبة ... لكل مدرع منها ومترس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجرى على اليبس

فخر الرشيد مغشياً عليه[٣].

وحج الرشيد ماشياً، كان يمشى على اللبود، كانت تبسط له من منزلة إلى منزلة، وسبب حجه ماشياً أنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام، فقال له: يا هارون! إن هذا الأمر صائر إليك، فحج ماشياً واغز، ووسع على أهل الحرمين. فأنفق فيهم الرشيد أموالاً عظيمة، ولم يحج خليفة قبله ولا بعده، ماشياً رحمه الله.

دخل إلى الرشيد ابن السماك الواعظ فذكره ثم وعظه حتى بكى بكاءً شديداً، فقال ابن السماك: لتواضعك فى شرفك، أحب إلينا من شرفك[٤].

ووعظه أيضاً فقال: يا أمير المؤمنين، إن لك بين يدى الله تعالى مقاماً، وإن لك من مقامك منصرفاً، فانظر إلى أين منصرفك؟ إلى الجنة أو إلى النار.

---

(١) انظر وفيات الأعيان: والبداية والنهاية والكنية ما بدأت بأب أو أم، أبو فلان، أم فلان.

(٢) انظر البداية والنهاية: مصدر سابق.

(٣) انظر النجوم الزاهرة.

(٤) انظر النجوم الزاهرة.

فبكى الرشيد حتى قال بعض خواصه: أرفق بأمير المؤمنين.

فقال: دعه فليمت حتى يقال: خليفة الله مات من مخافة الله تعالى[١].

قال الفضيل بن عياض للرشيد: حساب الخلق كلهم عليك، فبكى الرشيد وشهق، ثم بكى الفضيل حتى جاء الخدم فحملوهما[٢].

دخل الفضيل فى مكة على الرشيد، فسأل الفضيل سفيان بن عيينة: يا سفيان أيهم أمير المؤمنين؟

قلت: هذا، قال: أنت هو يا حسن الوجه الذى تقلدت أمر هذه الأمة فى عنقك؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً، قال: فبكى هارون، وبكى الفضيل، ثم أتى لكل واحد من علماء مكة ببدرة، فوضعت بين أيديهم، فحمل كل منهم بدرته، إلا الفضيل. فقال له هارون: يا أبا على لا تستح أن تأخذ منا، خذها فأعطها مديوناً، وأشبع بها جائعاً، واكس بها عرياناً، أو فرج بها عن مكروب.

قال: ولا هذا، أعفنى منه يا أمير المؤمنين.

قال سفيان: فلما خرجنا قلت: يا أبا على أخطأت اليوم، قال: وكيف؟

قلت: هذا خطأ إذ لم تقبلها، أفلا أخذتها فقضيت عن مديون، وأشبعت جائعاً.

قال سفيان: فأخذ أطراف لحيتى فقال: يا أبا محمد أنت فقيه البلد، والمنظور إليه تغلط هذا الغلط، لو طابت لأولئك طابت لى، قال سفيان: فصغرت عند ذلك نفسى.

قال الإمام مالك بن أنس: شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، فقلت: لا تفعل، فإن أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع، وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب.

ووعظ أبو العتاهية الرشيد بهذه الأبيات:

---

(١)، (٢) انظر النجوم الزاهرة.

خـــانك الطرف الطمـــوح أيهـــا القلب الجمـــوح
لدواعـى الخـــيـــرِ والشـــــرِّ دُنُـــوٌّ وَنُـــزوحُ
هـل لمـطـلـوبٍ بـذنـبٍ تـوبَـةٌ منـهُ نَـصـــوحُ
كـــيفَ إصـــلاحُ قلوب إنَّمـــا هُـنَّ قُـــروحُ
أحـــســنَ اللـهُ بـنـا أنَّ الخـطـايـا لا تـفـــوحُ
ســيـصـيـر المرءُ يومــاً جَـسَــداً مــا فـيـه روحُ
بـين عَــيـنـى كُـلِّ حَـىٍّ عَـلَـمُ المـوت يَـلُـوحُ
كلُّنـا فـى غـفـلةٍ والـمـوتُ يغـدو ويَـرُوحُ
لِبنـى الدُّنـيـا من الدُّنْـيـا غَـبُـوقٌ(١) وَصَـبـوحُ
رُحـنَ فـى الـوَشـى وأصـبَـحنَ عليـهنَّ المُسُـوحُ
كـلُّ نـطَّـاحٍ مـن الـدَّهـرِ لـه يـومٌ نَـطُـوحُ
نُحْ على نَفْـسِكَ يا مِـسْـكِـينُ إنْ كـنـتَ تَـنـوحُ
لَتَـمُـوتَـنَّ وإن عُـمِّـرتَ مـا عُـمِّـرَ نُوحُ!

فبكى الرشيد وانتحب.

قال ابن الجوزى: قال الرشيد لشيبان: عظنى، فقال: لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف.

فقال الرشيد: فسر لى هذا.

قال: من يقول لك: أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الغَبُوق: الشُّرب بالعشى.

فبكى الرشيد حتى رحمه من حوله[1].

كتب ابن السماك إلى الرشيد يعزيه بابن له: أما بعد، فإن استطعت أن يكون شكرك لله حين قبضه أكثر من شكرك له حين وهبه، فإنه حين قبضه أحرز لك هبته، ولو سلم لم تسلم من فتنته، أرأيت حزنك على ذهابه وتلهفك لفراقه؟ أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك؟ أما هو فقد خلص من الكدر، وبقيت أنت معلقاً بالخطر، واعلم أن المصيبة مصيبتان إن جزعت، وإنما هى واحدة إن صبرت، فلا تجمع الأمرين على نفسك[2].

وقدم على الرشيد رجل من الأنصار، يقال له نُفَيْع ـ وكان عريضاً ـ قال: فحضر باب الرشيد ومعه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وحضر موسى بن جعفر على حمار له، فتلقاه الحاجب بالبر والإكرام، فأعظمه من كان هناك، وعجل له الإذن، فقال نفيع لعبد العزيز: من هذا الشيخ؟

قال: أو ما تعرفه؟

قال: لا.

قال: هذا شيخ آل أبى طالب، هذا موسى بن جعفر، قال: ما رأيت أعجز من هؤلاء القوم؟ يفعلون هذا برجل يقدر أن يزيلهم عن السرير؟ أما لئن خرج لأسوءنه.

فقال له عبد العزيز: لا تفعل، فإن هؤلاء أهل بيت قلما تعرض لهم أحد فى خطاب إلا وسموه بالجواب سمة يبقى عارها عليه مدى الدهر.

قال أبو معاوية الضرير محمد بن حازم: ما ذكرت عند الرشيد حديثاً إلا قال صلى الله وسلم على سيدى، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبل الثرى، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدى فصب الماء على وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية أتدرى من يصب عليك الماء؟ قلت: لا، قال: يصب عليك أمير المؤمنين، قال أبو معاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم[3].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى. (٢) عيوم الأخبار مصدر سابق.

(٣) انظر البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

دخل على الرشيد ابن السماك يوماً فاستسْقَى الرشيد، فأُتى بقلة فيها ماء مبَرَّد، فقال لابن السماك: عظنى، فقال: يا أمير المؤمنين! بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتها؟ قال: بنصف ملكى، فقال: اشرب هنيئاً، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك، بكم كنت تشترى ذلك؟

قال: بنصف ملكى الآخر.

فقال: إن ملكا قيمة نصفه شربة ماء، وقيمة نصفه الآخر بولة، لخليق ألا يُتَنَافَس فيه، فبكى الرشيد[1].

قال: يا بن السماك، ما أحسن ما بلغنى عنك! قال: يا مير المؤمنين، إن لى عيوباً لو اطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبتت لى فى قلب أحد مودة، وإنى لخائف فى الكلام الفتنة، وفى السر الغرة، وإنى لخائف على نفسى من قلة خوفى عليها[2].

وأخرج الصولى عن إسحاق الهاشمى قال: كنا عند الرشيد، فقال: بلغنى أن العامة يظنون فى بغض على بن أبى طالب، ووالله ما أحب أحداً حبى له، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضاً لنا، وطعنا علينا، وسعياً فى فساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم، ومساهمتنا إياهم وما حويناه، حتى إنهم لأميل إلى بنى أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه فهم ستدة الأهل، والسابقون إلى الفضل، ولقد حدثنى أبى المهدى عن أبيه المنصور عن ابن عباس أنه سمع النبى ﷺ يقول فى الحسن والحسين: «من أحبهما فقد أحبنى، ومن أبغضهما فقد أبغضنى»، وسمعه يقول: «فاطمة سيدة نساء العالمين، غير مريم بنت عمران وآسية ابنة مزاحم»[3].

قال الأصمعى: دخلت على الرشيد وهو ينظر فى كتاب ودموعه تتحدر على خديه، فظللت قائماً حتى سكن، وكان منه التفاتة فقال: اجلس يا أصمعى، أرأيت ما كان؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر القد الفريد ـ مصدر سابق.

(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى.

قلت: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبى العتاهية بخط جليل، وهو:

هل أنتَ مُعتبرٌ بمن خَلِيَتْ ... منه غَداةَ مضى دساكرُهُ

وبمن أذلَّ الموتُ مصرعَه ... فتبرأت منه عشائرُهُ

وبمن خَلَتْ منه أسِرَّتُهُ ... وبمن خلتْ منه منابره

أين الملوكُ وأين غيرهُمُ؟ ... صاروا مصيراً أنت صائره

يا مُؤثر الدُّنيا بلذته ... والمستعد لمن يفاخره

نَلْ ما بدا لك أن تنال من الـ ... ـدُّنيا فإنَّ الموتَ آخره

ثم قال الرشيد: كأنى والله أخَاطَب بذلك دون الناس، فلم يلبث بعد إلا يسيراً حتى مات.

وفى سنة ثمان وثمانين ومائة بعد عودة الرشيد من الحج رأى الرشيد بهلولاً المُوَلَّه فوعظه موعظة حسنة، فروينا من طريق الفضل بن الربيع الحاجب، قال: حججت مع الرشيد فمررنا بالكوفة فإذا بهلول المجنون يهذى.

فقلت: اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين، فسكت.

فلما حاذاه الهودج قال: يا أمير المؤمنين، حدثنى أيمن بن نائل، ثنا قدامة بن عبد الله العامرى، قال: رأيت النبى ﷺ بمنى على جمل وتحته رحل رث، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك.

قال الربيع: فقلت: يا أمير المؤمنين! إنه بهلول.

فقال: قد عرفته.

قل: يا بهلول فقال:

هب أن قد ملكت الأرض طرا ودان لك العباد فكان ماذا

أليس غدا مصيرك جوف قبر ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول، أفغيره؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالا وجمالا فعف فى جماله، وواسى فى ماله، كتب فى ديوان الله من الأبرار.

قال: فظن أنه يريد شيئاً.

فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك.

فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يقضى دين بدين، أردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك.

قال: إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق تقتات به.

قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينسانى، وها أنا قد عشت عمرا لم تجر على رزقا، انصرف لا حاجة لى فى جرايتك.

قال: هذه ألف دينار خذها.

فقال: أرددها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع بها؟ انصرف عنى فقد آذيتنى.

فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا(١).

واجتمع يوماً بمحمد بن الحسن الفقيه الحنفى صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان فى مجلس الرشيد، فقال الكسائى: من تبحر فى علم تهدى إلى جميع العلوم.

فقال له محمد: ما تقول فيمن سها فى سجود السهو، هل يسجد مرة أخرى؟

فقال الكسائى: لا.

قال: لماذا.

---

(١) البداية والنهاية أحداث ١٨٨ هـ.

قال: لأن النحاة تقول: التصغير لا يصغر.

فقال محمد: فما تقول فى تعليق الطلاق بالملك؟

قال: لا يصح.

قال: لِمَ؟

قال: لأن السيل لا يسبق المطر[١].

وقال الأصمعى للكسائى وهما عند الرشيد: ما معنى قول الراعى[٢]:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً　　　ودعا فلم أرَ مثله مخذولا

قال الكسائى: كان محرماً بالحج.

قال الأصمعى: ما أراد عدى بن زيد بقوله:

قتلوا كسرى بليلٍ محرماً　　　فتولّى لم يُمَتَّعْ بِكَفَنْ

هل كان محرماً بالحج؟ وأى إحرام لكسرى؟

فقال الرشيد للكسائى: إذا جاء الشعر فإياك والأصمعى.

قال الأصمعى: قوله «محرماً» فى حرمة الإسلام، ومن ثم قتل مسلماً محرماً، أى لم يحل فى نفسه شيئاً يوجب القتل، وقوله «محرماً» فى كسرى، يعنى حرمة العهد، الذى كان فى عنق أصحابه[٣].

هذا هو الرشيد الخليفة الذى ظلمه البعض وكتبوا سيرته بوصفه خليفة أو ملكا ماجنًا مزدوج الشخصية، حتى إننى سمعت أحد العلمانيين الشيوعيين الكبار حينما ذكر أمامه أن الرشيد كان يحج عاماً ويغزو فى سبيل الله عاماً، فضحك وقال كان يحج ليكفر عما فعله من الغزو وما اقترفه من ذنوب فى العام الماضى.

هكذا أراد الشعوبيون وأعداء العروبة والعرب والزنادقة أن يجعلوا الرشيد البطل الرئيسى لروايات ألف ليلة وليلة.

(١) انظر وفيات الأعيان مصدر سابق.

(٢) انظر جمهرة أشعار العرب.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان.

الرشيد وهديته العجيبة
للملك شارلمان

كانت دولة الرشيد قوية بالعلم والعلماء والاختراعات ولها جيش عظيم فى وقت كانت أوروبا تعيش عصر الظلام والجهل وهذا ما توضحه قصة هارون مع شارلمان ملك الفرنجة الذى كان له سطوته وملكه على غرب أوروبا بينما كان الملك نقفور على القسطنطينية شرق أوروبا.

فقد كان الملك شارلمان بن بابن ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التى كانت فى جرمانيا واستولى على المانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير فى الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للمسيحيين فى البلاد الإسلامية وخصوصاً زائرى القدس فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا الرشيد فسر بذلك لأنه عده فوزاً على الملك البيزنطى «نقفور» ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الإكرام واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله فى مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد.

وقد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فإن أوروبا فى ذلك الوقت كانت مهد جهالة لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم.

أما الحال فى البلاد الإسلامية فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء فى ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان فى إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا فى البلاد الإسلامية وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلاً يقال له إسحاق وأرسله إلى الرشيد مصحوباً ببعض الهدايا.

وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهى

ساعة وفيل وبعض أقمشة نفيسة، فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم فى حيرة.

فقد أرسل الرشيد لهم ساعة ضخمة من النحاس الأصفر مصنوعة بمهارة فنية مدهشة يبلغ ارتفاعها نحو أربعة أمتار وتتحرك بواسطة قوة مائية وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد من الكرات المعدنية يتبع بعضها البعض الآخر بحسب عدد الساعات فوق قاعدة نحاسية فتحدث رنينا جميلا يشيع البهجة فى أنحاء القصر الإمبراطورى.

ولكن الأهم من ذلك أن هذه الساعة التى أهداها هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان كانت مصممة بحيث يفتح باب من الأبواب الاثنى عشر المؤدية إلى داخل الساعة ويخرج منه فارس يدور حول الساعة ثم يعود إلى المكان الذى خرج منه فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من أبواب الساعة اثنا عشر فارسا مرة واحدة يدورون دورة كاملة ثم يعودون من حيث أتوا وتغلق الأبواب خلفهم.

وقد أثارت تلك الساعة دهشة الملك شارلمان وحاشيته إلى حد أن رهبان الملك اعتقدوا أن شيطانا يسكنها ويحركها فحمل كل واحد منهم فأسا وجاءوا إليها ليلاً وحطموها.. وكانت المفاجأة التى تحولت إلى صدمة وندم عندما اكتشف هؤلاء الرهبان أن الساعة لا يوجد بها شىء سوى آلاتها، وأن خرافة الشياطين والعفاريت التى تسكنها كانت سقطة كبيرة منهم! وهكذا كان أهل أوروبا حينها وقد حزن الملك شارلمان حزنا بالغا واستدعى حشدا من خيرة العلماء والصناع المهرة لمحاولة إصلاح هذه الساعة وإعادة تشغيلها.

ولكن المحاولة باءت بالفشل وعندما عرض عليه بعض مستشاريه أن يخاطب خليفة المسلمين هارون الرشيد ليبعث فريقا عربيا لإصلاحها قال شارلمان، إننى أشعر بخجل شديد أن يعرف ملك بغداد أننا ارتكبنا عارا باسم فرنسا كلها.

ومن هذه القصة يتبين لنا مدى الحضارة فى عصر هارون الذى اهتم بالعلم والعلماء.

فقد دفع هذا الإحساس بقيمة الوقت إلى حرص المسلمين الأوائل على أن يكونوا من أسبق من اخترعوا الساعات الدقيقة التى بلغت درجة عالية من الإتقان أذهلت الدنيا فى تلك العصور.

6

قلاقل ومشاكل تواجه الرشيد

- المواجهة مع أبناء العمومة.
- علماء الأمس.
- الرشيد والإمام موسى الكاظم.
- الرشيد وعمه عبد الملك بن صالح.
- الرشيد وثورات الخوارج عليه.
- الرشيد وملك الروم الذى نقض الصلح.



المواجهة بين حلفاء الأمس وأبناء العمومة «الطالبيين»

كانت ثورة العباسيين على الأمويين تحت لواء أبناء عمومتهم من آل البيت النبوى العلويين ويقال لهم الطالبيين نسبة إلى الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، فقد اتحد أبناء العمومة أبناء عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وأبناء على بن أبى طالب كرم الله وجهه مع مواجهة حكم الأمويين وكانت الرياسة والزعامة فى البداية للطالبيين كما ذكرنا من قبل.

فقد ظل تحالف العباسيين والعلويين والزعامة للعلويين «الطالبيين» أبناء محمد ابن الحنفية ابن الإمام على رضي الله عنه(1)، حتى أوصى عبد الله بن محمد الحنفية بأمر قيادة الثورة ضد الأمويين إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس وبشره أن الخلافة ستكون فى ولده(2)، فدعا إلى نفسه عام ٨٧ هـ وكان ذلك فى بداية الأمر، فتزايد الأتباع.

وأوصى محمد بن على بن عبد الله بن عباس(3) بالأمر من بعده إلى ولده إبراهيم الإمام ثم حين قبض الخليفة الأموى الأخير مروان الحمار عليه وعلم أنه مقتول أوصى بالأمر إلى أخيه عبد الله السفاح الذى قاد الثورة العباسية بعد مقتل أخيه إبراهيم الإمام عام ١٣٢ هـ وكان مقتله هو القشة التى قصمت ظهر البعير وهدمت أركان الدولة الأموية من أساسها على يد عبد الله السفاح حين تولى الزعامة بعد مقتل أخيه إبراهيم الإمام وبايعه أهل الكوفة وسلموا عليه بالخلافة.

---

(١) سمى محمد ابن الحنفية نسبة إلى أمه من بنى حنيفة والتى تزوجها الإمام على رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة بنت النبى ﷺ.

(٢) تولى من أولاد محمد بن على بن عبد الله بن عباس الخلافة الخليفة العباسى الأول والثانى عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور.

(٣) توفى محمد بن على بن عبد الله بن عباس فى خلافة الوليد بن يزيد عام ١٢٥ هـ.

وقد أراد أبو سلمة الخلال أن يحول الخلافة إلى آل على بن أبى طالب لكن غالبية النقباء والأمراء رفضوا ذلك وأحضروا أبا العباس السفاح وكان عمره وقتها ستاً وعشرين سنة وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة الخلال[١].

وكان قائد جيش العباسيين أبا مسلم الخراسانى قد حقق انتصارات باهرة على جيوش الخليفة الأموى مروان الحمار فى خراسان، مما أجبر الخليفة مروان على التحول من «حران» فنزل على نهر الزاب قرب الموصل من أرض الجزيرة وقد وصله أخبار مبايعة أهل الكوفة لعبد الله السفاح بالخلافة واجتماع الأمر له، فجمع مروان جنوده فتقدم إليه جيش السفاح بقيادة أبو عون بن أبى يزيد فنازله على نهر الزاب ولهذا سميت المعركة «بالزاب الكبرى» وكان جيش مروان قد وصل تعداده نحو مائة وخمسين ألفاً وجيش العباسيين لم يتجاوز العشرين ألفاً، وكان على رأسهم عمه عبد الله بن على العباسى الذى أرسله السفاح مدداً وتصاف الفريقان للقتال فى أول النهار.

وقال مروان الحمار لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم[٢] وإن قاتلونا قبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان السفاح قد قال فى خطبته لأهل الكوفة حين بايعوه بالخلافة إنهم أى العباسيين سيتولون أمر الخلافة حتى يسلموها إلى عيسى بن مريم عليه السلام آخر الزمان.

وكان رد عبد الله بن على العباسى قائد جيش العباسيين لما علم بمقولة مروان الحمار وقد أرسل إليه يطلب الصلح: كذب ابن زريق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله.

وكانت تلك المعركة فى شهر جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ ودارت المعركة بين الفريقين قبل زوال الشمس وهى معركة فاصلة بين عصرين ودولتين حتى إن

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى.

(٢) أى تكون خلافتهم إلى نهاية الدهر (قرب الساعة).

عبد الله بن على جعل يمشى فى الصفوف على قدميه ويقول: يا رب حتى متى نُقتل فيك، ونادى أهل خراسان بإشارات إبراهيم الإمام، يا محمد يا منصور.

وانهزم جيش الشام من الأمويين وقُتل منهم خلق كثير واتبعهم أهل خراسان فى أدبارهم يقتلون ويأسرون وغرق الكثير من جيش مروان فى النهر وأمر عبد الله بن على بعقد الجسر واستخرج فأغرق فى الماء وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٠).

وهكذا انهزم الأمويون وانتهت دولتهم وهرب آخر خلفائهم مروان الحمار إلى «حران» ثم قنسرين ثم حمص وثار القتال بينه وبين أهل حمص لما رأوا قلة من معه من الجنود، وقدم مروان إلى دمشق ثم هرب إلى الديار المصرية وهناك قتل.

وسار عبد الله بن على يتتبع مروان الحمار وقد أرسل له السفاح صالح بن على وهو أخو عبد الله بن على فى ثمانية ألف لاستكمال فتح دمشق التى حاضرها أخوه عبد الله بن على واستطاع أن يفتحها عنوة وهدم أسوارها وقتل منها الكثير وكان سبب هزيمة الدمشقيين اختلافهم فيما بينهم كما ذكر ذلك المؤرخون.

وكان مقتل مروان الحمار فى شهر ذى الحجة عام ١٣٢ هـ فى مصر على يد صالح بن على الذى تتبعه فى مصر وهزمه حتى إنه لجأ إلى كنيسة فى أبو صير بصعيد مصر.

وقتله رجل من أهل البصرة يقال له معود وهو لا يعرفه حتى عرفه أحد الجنود العباسيين وصاح: صرع أمير المؤمنين، فابتدره رجل من أهل الكوفة فاجتز رأسه وأرسلت إلى أمير المؤمنين الجديد عبد الله السفاح، وعاد صالح بن على إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون بن أبى يزيد.

وهكذا زالت الدولة الأموية وقد دامت نحو اثنين وتسعين سنة[1].

واستقرت أمور الخلافة لعبد الله السفاح وخضعت لحكمه بلاد العراق

---

(١) هذا بخلاف تسع سنين هى خلافة عبد الله بن الزبير حيث اجتمع المسلمون على خلافته بعد وفاة الخليفة الأموى يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد.

والشام والحجاز ومصر وخراسان فيما عدا بلاد الأندلس التى لجأ إليها من تبقى من الأمويين وأقاموا فيها دولتهم.

وبعد استقرار الحكم والخلافة للعباسية نازعهم أبناء عمومتهم من العلويين الأمر حيث إن الناس قد تجمعوا حولهم وبايعوا أئمتهم وقد حدث ذلك أيام الأمويين فى عصر يزيد بن معاوية حين بايع أهل الكوفة الحسين بن على رضى الله عنهما ثم تخلوا عنه وقتل شهيداً فى كربلاء وتكرر الأمر مع أئمة آل البيت الثائرين ضد حكم الأمويين ثم العباسيين أيضاً.

وبعد هذه النبذة التاريخية عن التحالف العباسى وآل البيت العلوى ضد الأمويين نعود إلى عصر الرشيد الذى استهل حكمه عام ١٧٠ هـ بخروج الطالبيين «العلويين» عليه كما خرجوا أيضاً على الخليفة المنصور جده من قبل.

ففى عام ١٤٥ هـ خرج على المنصور الأخوان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، وظفر بهما المنصور فقتلهما وجماعة كثيرة من آل البيت، وكان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل ذلك شيئاً واحداً[1].

وقد آذى الخليفة المنصور خلقاً من العلماء ممن خرج مع الأخوين محمد وإبراهيم فقتل منهم الكثير وضرب وسجن البعض ومنهم الإمام أبو حنيفة النعمان، وابن عجلان وأذى من أفتى بجواز الخروج معهما.

وقد حدث أيضاً انشقاق فى البيت العباسى حين خلع المنصور عمه عيسى بن موسى من ولاية العهد وكان السفاح قد عهد إليه من بعد المنصور وكان عيسى هو الذى تولى قتال الأخوين إبراهيم ومحمد وظفر بهما فكانت مكافأته من المنصور الخلع من ولاية العهد حيث عهد بها إلى ابنه المهدى.

واستمر الصراع على الحكم والملك بين العباسيين وأبناء العمومة العلويين وكذلك الصراع الداخلى فى البيت العباسى.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى.

الرشيد وموسى الكاظم

قد بدأ عصر الرشيد بخروج الطالبيين «العلويين» عليه واستمر طوال عصره أيضاً، وكان الخلفاء العباسيون يتحفظون على من يشكون فى ولائه لهم من العلويين وقد حدث ذلك مع الرشيد حين خاف من موسى الكاظم فحبسه حتى مات والسبب إنه علم عام ١٧٩ أن الناس يبايعون موسى الكاظم بن جعفر الصادق ويحملون إليه الخمس من أموالهم.

فأما الإمام موسى الكاظم فقد ذكر الذهبى عنه فى سير أعلام النبلاء:

إنه موسى الكاظم بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين الإمام القدوة السيد، أبو الحسن العلوى، والد الإمام على بن موسى الرضى، مدنى نزل بغداد وحدث بأحاديث عن أبيه. وقيل إنه روى عن عبد الله بن دينار، وعبد الملك بن قدامة. حدث عنه أولاده على وإبراهيم، وإسماعيل، وحسين، وأخواه على بن جعفر، ومحمد بن جعفر، ومحمد بن صدقة العنبرى، وصالح بن يزيد. وروايته يسيرة لأنه مات قبل أوان الرواية رحمه الله.

ذكره أبو حاتم فقال: ثقة صدوق، إمام من أئمة المسلمين قلت: له عند الترمذى وابن ماجه حديثان.

قيل إنه ولد سنة ثمان وعشرين ومئة بالمدينة. قال الخطيب: أقدمه المهدى بغداد ورده، ثم قدمها، وأقام ببغداد فى أيام الرشيد قدم فى صحبة الرشيد سنة تسع وسبعين ومئة، وحبسه بها إلى أن توفى فى محبسه.

ثم قال الخطيب: أنبأنا الحسن بن أبى بكر، أنبأنا الحسن بن محمد بن يحيى العلوى، حدثنى جدى يحيى بن الحسن بن عبيد الله بن الحسين بن على بن الحسين، قال: كان موسى بن جعفر يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده.

روى أصحابنا أنه دخل مسجد رسول الله ﷺ فسجد سجدة فى أول الليل فسمع وهو يقول فى سجوده: «عظم الذنب عندى، فليحسن العفو من عندك، يا أهل التقوى، ويا أهل المغفرة». فجعل يرددها حتى أصبح.

وكان سخياً كريماً، يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه فيبعث إليه بصرة فيها ألف دينار، وكان يصر الصرر بثلاث مئة دينار، وأربع مئة، ومئتين، ثم يقسمها بالمدينة، فمن جاءته صرة استغنى.

ثم قال يحيى: حدثنا إسماعيل بن يعقوب، حدثنا محمد بن عبد الله البكرى، قال: قدمت المدينة أطلب بها ديناً، فقلت: لو أتيت موسى بن جعفر فشكوت إليه، فأتيته بنقمى فى ضيعته فخرج إلى وأكلت معه فذكرت له قصتى فأعطانى ثلاث مئة دينار. ثم قال يحيى: وذكر لى غير واحد، أن رجلاً من آل عمر كان بالمدينة يؤذيه ويشتم علياً، وكان قد قال له بعض حاشيته: دعنا نقتله، فنهاهم وزجرهم. وذكر له أن العمرى يزرع بأرض، فركب إليه فى مزرعته فوجده، فدخل بحماره، فصاح العمرى: لا توطئ زرعنا. فوطئ بالحمار حتى وصل إليه فنزل عنده وضاحكه، وقال: كم غرمت فى زرعك هذا؟

قال: مئة دينار.

قال: فكم ترجو؟

قال: لا أعلم الغيب، وأرجو أن يجيئنى مئتا دينار. فأعطاه ثلاث مئة دينار.

وقال: هذا زرعك على حاله، فقام العمرى فقبل رأسه.

وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

وجعل يدعو له كل وقت. فقال أبو الحسن لخاصته الذين أرادوا قتل العمرى: أيما هو خير؟ ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار.

قال أبو عبد الله المحاملى: حدثنا عبد الله بن أبى سعد، حدثنى محمد بن الحسين الكنانى الليثى، حدثنى عيسى ابن محمد بن مغيث القرشى، وبلغ تسعين سنة، قال: زرعت بطيخاً وقثاء وقرعاً بالجوانية، فلما قرب الخير، بيتنى الجراد، فأتى على الزرع كله. وكنت غرمت عليه وفى ثمن جملين مئة وعشرين ديناراً، فبينما أنا جالس، طلع موسى بن جعفر، فسلم ثم قال: أيش حالك؟

فقلت: أصبحت كالصريم.

قال: وكم غرمت فيه؟

قلت: مئة وعشرين ديناراً مع ثمن الجملين. وقلت: يا مبارك، ادخل وادع لى فيها.

فدخل ودعا، وحدثنى عن النبى ﷺ أنه قال: «تمسكوا ببقايا المصائب[1]».

ثم علقت عليه الجملين وسقيته فجعل الله فيها البركة زكت، فبعت منها بعشرة آلاف.

وقد تعرض موسى الكاظم للاضطهاد أيضاً فى عصر الخليفة المهدى فعن الصولى، حدثنا عون بن محمد، سمعت إسحاق الموصلى غير مرة يقول: حدثنى الفضل بن الربيع، عن أبيه قال: لما حبس المهدى موسى بن جعفر رأى فى النوم علياً يقول: يا محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢).

قال الربيع: فأرسل إلى ليلاً فراعنى، فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان أحسن الناس صوتاً، وقال: علىَّ بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جنبه وقال: يا أبا الحسن، إنى رأيت أمير المؤمنين يقرأ على كذا، فتؤمنى أن تخرج علىَّ أو على أحد من ولدى؟

فقال: لا والله، لا فعلت ذلك، ولا هو من شأنى.

قال: صدقت.. يا ربيع، أعطه ثلاثة آلاف دينار، ورده إلى أهله إلى المدينة؟ فأحكمت أمره ليلاً، فما أصبح إلا وهو فى الطريق خوف العوائق.

ممن أخبرنى عبدالرحمن بن صالح الأزدى، قال: حج الرشيد، فأتى قبر النبى ﷺ ومعه موسى بن جعفر، فقال السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عم، افتخاراً على من حوله، فدنا موسى وقال: السلام عليك يا أبت، فتغير وجه هارون، وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً.

قال يحيى بن الحسن العلوى: حدثنى عمار بن أبان قال: حبس موسى بن جعفر عند السندى بن شاهك، فسألته أخته أن تولى حبسه، وكانت تدين، ففعل،

(١) حديث مرسل.

فكانت على خدمته، فحكى لنا أنها قالت: كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجده ودعاه، فلم يزل كذلك حتى يزول الليل، فإذا زال الليل قام يصلى حتى يصبح الصبح، ثم يذكر حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيأ ويستاك، ويأكل. ثم يرقد إلى قبل الزوال، ثم يتوضأ ويصلى العصر، ثم يذكر فى القبلة حتى يصلى المغرب، ثم يصلى ما بين المغرب إلى العتمة. فكانت تقول خاب قوم تعرضوا لهذا الرجل.

وقيل: بعث موسى الكاظم إلى الرشيد برسالة من الحبس يقول: إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء حتى نفضى إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون.

وعن عبدالسلام بن السندى قال: كان موسى عندنا محبوساً، فلما مات بعثنا إلى جماعة من العدول من الكرخ فأدخلناهم عليه فأشهدناهم على موته، ودفن فى مقابر الشونيزية.

قلت: له مشهد عظيم مشهور ببغداد دفن معه فيه حفيده الجواد وولولده على بن موسى مشهد عظيم بطوس وكانت وفاة الكاظم فى رجب سنة ثلاثين وثمانين وسنة وقد عاش خمساً وخمسين سنة، وخلف عدة أولاد الجميع من إماء: على، والعباس، وإسماعيل، وجعفر، وهارون، وحسن، وأحمد، ومحمد، وعبيدالله، وحمزة، وزيد، وإسحاق، وعبدالله، والحسين، وفضل، وسليمان، سوى البنات، سمى الجميع الزبير فى النسب[١].

■ ■ ■

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبى.

الرشيد وثورة الطالبيين عليه

شهد عصر الرشيد خروج العلويين منذ بدايته عليه رغم أن الرشيد ابتدأ خلافته مع أبناء عمومته بالعفو عمن سجن منهم، وتأمين الهارب والمستخفى، فأخرج من كان محبوساً منه كيعقوب بن داود وغيره، وسيرهم إلى المدينة مكرمين، وأحسن إليهم وأغدق عليهم.

وخرج من كان مستخفياً منهم مثل طباطبا العلوى، ويدعى إبراهيم بن إسماعيل، ومنهم على بن الحسن بن إبراهيم بن عبدالله بن الحسن.

وكان من الذين ثاروا على الرشيد من العلويين «الطالبيين» يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، رباه جعفر الصادق بالمدينة، فتفقه وروى الحديث، وكان مع ابن عمه، الحسين بن على بن الحسن فى ثورته بالمدينة أيام موسى الهادى، وحضر كذلك معركة فخ سنة ١٦٩ هـ، ونجا منها، ثم ذهب إلى اليمن وأقام مدة فيها، ثم غادر إلى أن وصل العراق متنكراً، ثم غادر إلى الرى ومنها إلى خاقان ملك الترك، ثم إلى بلاد الديلم، حيث ثار وأخذ يدعو لنفسه.

قوى أمر يحيى الطالبى فى بلاد الديلم، وسار الناس إليه، فاغتم الرشيد لذلك، فندب إليه الفضل بن يحيى البرمكى سنة ١٧٥ هـ فى خمسين ألف رجل، وولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان، وحمل معه الأموال والعطايا، ففرق منها الشىء الكثير، فقد أراد الرشيد إنهاء تلك الثورة بالمال.

وبدأ الفضل بمكاتبة يحيى الطالبى ورفق به واستماله وحذره، كما كتب صاحب الديلم، وجعل له ألف ألف درهم، على أن يسهل خروج يحيى إليه، أو يجعله على الصلح، أى أنه استخدم نظام العصا والجزرة.

ورأى يحيى الطالبى أنه بين فكى الكماشة بدا له الصلح وأجاب الفضل إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطة على نسخة يبعث بها إليه.

وكتب الفضل إلى الرشيد بذلك، ففرح الرشيد، وكتب أماناً ليحيى بن عبدالله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة بنى هاشم، ووجه به مع جوائز وهدايا ليصير كل ذلك ليحيى بن عبدالله، فقدم يحيى الطالبى إليه، وعادا معاً إلى بغداد، فلقيه الرشيد وأمر له بمال كثير، وأجرى له أرزاقاً ثم أقام فى منزل يحيى البرمكى، وسمح للناس بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى البرمكى أيضاً.

وبعد فترة كثر الناس فى التوافد عليه وعلم الرشيد بأن يحيى الطالبى يدعو لنفسه، فاستدعاه وسأله عمن يأتيه، فذكر له أنهم ممن كان معه ويسلمهم كتاب العفو، فسأله عن أسمائهم فرفض يحيى وقال للرشيد: والله لو كانوا تحت قدمى ما رفعته عنهم، فكيف أشى بهم.

فأخذه الرشيد وحبسه، وذلك بعد أن شاور الفقهاء فى نقض كتاب الأمان، فرفض القاضى محمد بن الحسن الشيبانى نقض الأمان وأفتى بصحته، ثم أفتى أبو البخترى بنقضه من وجوه ومزقه، فحبس الرشيد يحيى، وكان كثيراً ما يخرجه من السجن يناقشه ويناظره.

وكان بكار بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير يكره آل طالب، ويغرى الرشيد بهم، فحدث أن أخرج الرشيد مرة يحيى بن عبدالله وعنده بكار الزبيرى. فقال الرشيد ليحيى: هيه هيه! متضاحكاً، وهذا يزعم أيضاً أننا سممناه!

فقال يحيى: ها هو ذا لسانى ـ وأخرج لسانه أخضر مثل السلق ـ وفى رواية أخرى: أن يحيى قال: لا يا أمير المؤمنين، إنما هو أثر علة بى.

ثم أردف يحيى قائلاً:

وإن لنا قرابة ورحماً وحقاً، فعلام تعذبنى وتحبسنى؟

فرق له الرشيد، فاعترض بكار ابن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير

فقال: يا أمير المؤمنين لا يغرنك هذا الكلام من هذا، فإنه عاص شاق، وإنما هذا منه مكر وخبث، وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر فيها العصيان.

فقال له يحيى: ومن أنتم عافاكم الله؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائى وآباء هذا، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين لقد جاءنى هذا حين قتل أخى محمد بن عبدالله فقال: لعن الله قاتله، وأنشدنى فيه نحواً من عشرين بيتاً، وقال لى، إن تحركت إلى هذا الأمر فأنا أول من يبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك؟

قال: فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيرى وأنكر وشرع يحلف بالأيمان المغلظة إنه لكاذب فى ذلك، وتحير الرشيد، ثم قال ليحيى: أتحفظ شيئاً من المرثية؟

قال: نعم.

وأنشده منها جانباً، فازداد الزبيرى فى الإنكار، فقال له يحيى بن عبدالله: فقل: إن كنت كاذباً فقد برئت من حول الله وقوته، ووكلنى الله إلى حولى وقوتى.

فامتنع من الحلف بذلك، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه، فحلف بذلك، فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد فرماه الله بالفالج فمات من ساعته.

والفالج هو الشلل النصفى.

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبدالله وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال إنما حبسه بعض يوم وقيل ثلاثة أيام. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله.

وكان الرشيد يحسن إلى أبناء عمه آل على رضى الله عنهم، فقد أخرجهم من الحبس وقت ولى الخلافة وأوصلهم إلى المدينة، إلا العباس بن الحسن، وأخرج معهم كل من يمت لهم بصلة، فقد أخرج يعقوب بن داود الذى استوزره المهدى مدة طويلة، ثم نما إليه ميل يعقوب إلى العلويين وأنه أحد المحبوسين عنده، ثم كذب

على المهدى بذلك فغضب عليه، وألقاه فى جب مدة خلافته ثم أخرجه الرشيد، وجعل له رزقاً من الخراج، وأوصله إلى مكة حسب رغبته إلى أن وافته المنية سنة ١٨٢ هـ.

وقد أشهد الرشيد على نفسه حبه لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه فقال: بلغنى أن العامة يظنون بأنى أبغض على بن أبى طالب!؟ والله ما أحب أحداً حبى له[١].

■ ■ ■



(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى رحمه الله.

الـرشـيـد
وعمه عبدالملك بن صالح

لم يترك كرسى الحكم والخلافة للحاكم أقرباء أو أصدقاء وهذا ما حدث مع الرشيد حين أمر كما ذكرنا بقتل أخيه فى الرضاعة وصديقه جعفر البرمكى وما فعله مع عمه عبدالملك بن صالح بن على بن عبدالله بن عباس الذى قاد أبوه صالح بن على الجيوش العباسية ضد آخر خلفاء بنى أمية مروان الحمار.

وكان عبدالملك بن صالح من ولى المدينة المنورة وغزو الصوائف للرشيد[1] وقد ولى الشام للأمين بن الرشيد وسبب الوحشة بين الرشيد وعمه عبدالملك أنه بلغه أن عمه عبدالملك يريد الوثوب إلى الخلافة فقلق منه الرشيد واستدعاه ثم أمر بحبسه ثم أفرج عنه والغم عليه ثم حبسه وظل فى محبة حتى وفاة الرشيد وله معه مواقف كثيرة.

قال الذهبى فى سير أعلام النبلاء عن عبدالملك بن صالح:

قيل بلغ الرشيد إن هذا فى عزم الوثوب على الخلافة فقلق ثم حبسه ثم لاح له براءته فأنعم عليه وكان فصيحاً بليغاً شريف الأخلاق مهيباً شجاعاً سائساً.

قيل إن يحيى البرمكى قال له: بلغنى أنك حقود.

قال: إن كان الحقد بقاء الخير والشر إنهما لباقيان فى قلبى.

فقال الرشيد: ما رأيت أحداً احتج للحقد بأحسن من هذا.

قال الصولى: كان أفصح الناس وأخطبهم لم يكن فى دهره مثله فى فصاحته وصيانته وجلالته وله شعر وقيل إن عبدالملك أراد أن يغتال ملك الروم بمكيدة وكان من دهاة بنى هاشم.

---

(١) غزو الصوائف هى غزوات كانت يقوم بها أى خليفة أموى أو عباسى لبلاد الروم المجاورة لحدود الدولة الإسلامية وكان أول من أمر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما كان معاوية والى الشام.

قال الزبير بن بكار: كان عبدالملك نسيجاً وحده أدباً ولساناً وشىء به وتتابعت فيه الأخبار.

وكثر حاسدوه وبلغ الرشيد عنه أنه على عزم الخروج ويقال إنه ما حبسه إلا لما رآه له نظيراً فى السؤدد.

مات بالرقة سنة ست وتسعين ومئة.

وهو أخو الأمير أبى العباس بن صالح نائب دمشق ثم مصر للمهدى وهو الذى عمل أبواب جامع دمشق وقبة المال بالجامع فكان الأكبر مات سنة اثنين وسبعين ومئة عن خمسين سنة ومات أخوه نائب مصر ثم نائب حلب فى حدود سنة تسعين وهو إسماعيل بن صالح وله ذرية بحلب وكان أديباً شاعراً متفلسفاً عواداً ذا كرم وشجعة وأخوهم عبدالله أمير الثغور.

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهى فى كتابه «المستطرف فى كل فن مُسْتَطْرف»:

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم ما حكى عن إبراهيم بن المهدى قال: قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه إنى قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غداً فهل من مساعدة.

فقلت: جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك.

فقال: بكر بكور الغراب.

قال: فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرنى فى الميعاد فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم خلعت علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الستائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب فدعا بالحاجب وقال له إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له: ولو كان عبدالملك بن صالح بنفسه.

فاتفق بالأمر المقدر إن عم الرشيد عبدالملك بن صالح قدم علينا فى ذلك

الوقت وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه فلما قدم دخل به الحاجب علينا ورأيناه رمينا ما فى أيدينا وقمنا إجلالاً له نقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا وزاد بنا الحياء.

فقال لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه ثم صاح بغلام فدفع له ثيابه ثم أقبل علينا وقال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم.

قال: فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب فطعم وشرب الشراب لساعته.

ثم قال :خففوا عنى فإنه شيء ما فعلته والله قط.

قال: فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبدالملك فقال له: جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت فهل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت.

قال: بلى إن فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير على فتسأله الرضا عنى.

فقال جعفر: قد رضى عنك أمير المؤمنين.

قال: وعلى عشرة الاف دينار.

فقال جعفر هى حاضرة لك من مالى ولك من مال أمير المؤمنين مثلها.

قال: أريد أن أشد ظهر ابنى إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين.

قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية.

قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه.

قال: وقد ولاه أمير المؤمنين مصر.

فانصرف عبدالملك بن صالح وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة.

قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ثم بإبراهيم بن عبدالملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كل من فى القصر معه إلى بيت عبدالملك بن صالح قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر.

وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبدالملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك قلنا: هو كما ظننت.

قال: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبدالملك بن صالح فكان متكئاً فاستوى جالساً وقال: لله أبوك ما سألك؟

قلت: سائل رضاك عنه يا أمير المؤمنين.

قال: بم أجبته؟ قلت قد رضى عنك أمير المؤمنين.

قال: قد رضيت عنه.

ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار.

قال: فبم أجبته؟

قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين.

قال: وقد قضيتها عنه.

ثم ماذا قلت.

ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال فبم أجبته؟

قلت: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية قال قد أجبته إلى ذلك ثم ماذا قلت؟

قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه.

قال: فبم أجبته؟

قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر قال قد وليته إياها ثم نجز له جميع ذلك من ساعته.

قال إبراهيم بن المهدى: فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلاً ما ابتدأه عبدالملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازى قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى جسد من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله فقلت بالله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود فقلت له: أعد على ما سمعت فقال والله لو كان عندى قرى أقريكه لفعلت ولكنى أجعله قراك فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط أو عطشان فأروى ثم اندفع يغنى ويقول:

وكنت إذا ما جئت سعدى أزورها … أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسها … إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

قال عمر: فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التى وصفها إلى فإذا هى كما ذكر والله سبحانه وتعالى أعلم(١).

وذكر بعض المؤرخين أن سبب غضب الرشيد على عمه عبدالملك بن صالح عام ١٨٧ هـ أن ابن عمه عبدالرحمن بن عبدالملك(٢) قد سعى بالوشاية على أبيه عبدالملك بن صالح وشهد معه كاتب أبيه «قمامة». وقالا للرشيد: إنه يطلب الخلافة، ويطمع فيها، فأخذه، وحبسه عند الفضل بن الربيع، وأحضره يوماً، حين سخط عليه، وقال له: أكفراً بالنعمة، وجحوداً لجليل المنة والتكرمة؟

فقال: يا أمير المؤمنين! لقد بؤت إذا بالندم، وتعرضت لاستحلال النقم، وما ذاك إلا بغى حاسدنا، فنسى فيك مودة القرابة وتقديم الولاية، إنك، يا أمير

(١) انظر المستطرف ـ الأبشيهى.

(٢) أى ابن عبد الملك بن صالح.. وهذا من الغرابة والعقوق للوالدين.

المؤمنين، خليفة رسول الله ﷺ، على أمته، وأمينة على عترته، لك عليها فرض الطاعة، وأداء النصيحة، ولها عليك العدل فى حكمها، والغفران لذنوبها والتثبت فى حادثها.

فقال له الرشيد: أتضع لى من لسانك، وترفع لى من جنانك؟ هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك، فاسمع كلامه.

فقال عبدالملك: أعطاك ما ليس فى عقده، ولعله لا يقدر أن يعضهنى أو يبهتنى بما لم يعرفه منى.

فأحضر قمامة فقال له الرشيد: تكلم غير هائب ولا خائف!

فقال: أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك.

فقال عبدالملك: كيف لا يكذب علىَّ من خلفى من يبهتنى فى وجهى؟

فقال الرشيد: فهذا ابنك عبدالرحمن يخبرنى بعتوك، وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتج عليك لم أجد أعدل من هذين الاثنين لك، فلم تدفعهما عنك؟

فقال عبدالملك: هو مأمور، أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً فمعذور، وإن كان عاماً ففاجر كفور، أخبر الله عز وجل بعداوته، وحذر منه بقوله: «إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم».

فنهض الرشيد وهو يقول: ما أمرك إلا قد وضح، ولكنى لا أعجل، حتى أعلم الذى رضى الله عز وجل فيك، فإنه الحكم بينى وبينك[1].

فقال عبدالملك: رضيت بالله حكماً، وبأمير المؤمنين حاكماً، فإنى أعلم أنه لن يؤثر هواه على رضى ربه.

وأحضره الرشيد يوماً آخر، فكان مما قال له:

أريد حياته ويريد قتلى   عذيرك من خليلك من مراد

---

(١) هكذا أوضح الرشيد لعمه أن ما ادانه هو كاتبه وابنه أى أقرب الأقربين له، وكما يقال من تسبب فى الحكم عليك بالقتل هو من شهد عليك وهنا تأتى خطورة شاهدى الزور.

ثم قال: أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبوبها - مطرها - قد همع، وعارضها قد همع، وكأنى بالوعيد قد أورى زناداً يسطع، فأقلع عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بلا غلاصم، فمهلاً مهلاً بنى هاشم، فبى والله سهل لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمتها، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل.

فقال عبدالملك: اتق الله، يا أمير المؤمنين، فيما ولاك من رعيته التى استرعاك، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد نخلت لك النصيحة، ومحضت لك الطاعة، وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم، وتركت عدوك مشتغلاً، فالله! الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن وصلته، يظن أفصح الكتاب لى بعضه، أو يبغى باغ ينهس اللحم، وبلغ الدم، فقد والله سهلت لك الوعور، وذللت لك الأمور، وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور، فكم ليل تمام فيك كابدته، وقمام ضيق لك قمته، كنت فيه كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب، يعنى لبيداً:

ومقام ضيق فرجته ... ببيان ولسان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله ... زل عن مثل مقامى وزحل

فقال له الرشيد: والله لولا إبقائى على بنى هاشم لضربت عنقك، ثم أعاده إلى محبسه.

ودخل رئيس شرطة الرشيد عليه فقال له: والله العظيم، يا أمير المؤمنين، ما علمت عبدالملك إلا ناصحاً، فعلام حبسته؟

فقال: بلغنى عنه ما أوحشنى ولم آمنه أن يضرب بين ابنى هذين «يعنى الأمين والمأمون» فإن كنت ترى أن نطلقه من الحبس أطلقناه.

فقال: أما إذا حبسته، فلست أرى فى قرب المدة أن تطلقه، ولكن تحبسه محبساً كريماً.

قال: فإنى أفعل، فأمر الفضل بن الربيع أن يمضى إليه، وينظر ما يحتاج إليه فيوظفه له، ففعل.

وأرسل الرشيد يوماً إلى يحيى بن خالد بن برمك: إن عبدالملك أراد الخروج علىَّ ومنازعى فى الملك. وعلمت ذلك، فأعلمنى ما عندك فيه، فإنك إن صدقتنى أعدتك إلى حالك، فأنكر يحيى أن يكون لعبدالملك صلة بهم، فلم يصدقه الرشيد، واشتد عليهم فى محابيسهم لقناعته بتآمرهم مع عبدالملك ضده، «وقد وصل الأمر بالرشيد أن هدد يحيى بقتل ولده الفضل إن لم يفصح عما بينه وبين عبدالملك.

وظل عبدالملك بن صالح فى محبسه أو كما يقال متحفظاً عليه فى مكان، أمين حتى وفاة الرشيد حيث أخرجه الخليفة الأمين بن الرشيد وولاه الشام فأقام بالرقة، وتوفى قبل مقتل الأمين حيث توفى ١٩٦ هـ.

ففى سنة وفاته ١٩٦ هـ ولاه الخليفة الأمين بن الرشيد نيابة الشام وأمره أن يبعث له رجلاً وجنوداً لقتال طاهر وهرثمة، فلما وصل بجيشه إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة فقدم عليه منهم خلق كثير، ومات عبدالملك بن صالح فى الرقة، وعاد بالجيش إلى بغداد الحسين بن على بن ماهان[1].

■ ■ ■

---

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق، وذكر ابن كثير انقلاب الحسين بن علي بن ماهان علي الأمين لصالح المأمون ثم مقتله من نفس العام ١٩٦ هـ.

قتال هارون الرشيد الخوارج في عصره

ظهرت الخوارج أثناء القتال الذى جرى بين الإمام على بنى أبى طالب كرم الله وجهه ومنازعه على الخلافة معاوية بن أبى سفيان، فخرجت طائفة من اتباع الإمام على رضى الله عنه عليه وقاتلوه وقاتلهم ثم استمر خروج هذه الطائفة على ملوك بنى أمية وملوك بنى العباس ولم يتوقف خروجهم إلا فى عصر الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وهدأت ثوراتهم حين رأوا من عدله وحسن معاملته للرعية وسيرته الحسنة.

وظهرت الخوارج فى عصر الرشيد ولكنهم لم يكونوا بالخطورة التى كانوا عليها فى العصور السابقة ولذلك سهل على الرشيد القضاء على ثوراتهم.

فكان أول خروجم فى عصر الرشيد بعد توليه الحكم فى العام التالى ١٧١ هـ حين خرج عليه الفضل بن سعيد الحرورى الذى قتل بعد فترة وجيزة من خروجه.

وخرج أيضاً عام ١٧١ هـ الصحصح الخارجى بالجزيرة فتصدى له والى الجزيرة أبو هريرة محمد بن فروخ ولكنه انهزم أمامه، وسار الصحصح إلى الموصل فقاتله عسكرها بباجرمى فقتل منهم كثيراً ورجع إلى الجزيرة، فأرسل له الرشيد جيشاً لحقه بدورين فقتله وقضى عليه.

وفى سنة ١٧٥ هـ خرج حصين الخارجى فى خراسان، وهو من أهل أوق، وكان على سجستان عثمان بن عمارة، فأرسل له جيشاً، فلقيهم حصين وهزمهم، ثم أتى خراسان وقصد باذغيس، وبوشنج، وهراة، فكتب الرشيد إلى الغطريف فى طلبه، فسير الغطريف داود بن يزيد فى اثنى عشر ألفاً فهزمهم حصين، ثم قتل فى خراسان سنة ١٧٧ هـ.

وفى سنة ١٧٨ هـ خرج الوليد بن طريف التغلبى بالجزيرة، ففتك بإبراهيم بن خازم ابن خزيمة بنصيبين، ثم قويت شوكة الوليد، فدخل إلى أرمينية، وحاصر مدينة خلاط عشرين يوماً، فافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفاً.

ثم سار إلى أذربيجان، ثم إلى حلوان وأرض السواد، ثم عبر إلى غرب دجلة، وقصد مدينة بلد، فافتدوا منه بمائة ألف، وعاش فى أرض الجزيرة فسير إليه الرشيد يزيد بن مزيد ابن زائدة الشيبانى، وهو ابن أخى معن بن زائدة، فقال الوليد:

ستعلم يا يزيد إذا التقينا ... بشط الزاب أى فت يكون

فجعل يزيد يخاتله ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد فقالوا للرشيد: إنما يتجافى يزيد عن الوليد للرحم لأن كليهما من وائل وهونوا أمر الوليد، فكتب إليه الرشيد كتابا له، وقال له: لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن، متعصب، وأقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك.

فلقى الوليد عشية خميس فى شهر رمضان سنة تسع وسبعين، وجهد عطشاً حتى رمى بخاتمة فى فيه، وجعل يلوكه ويقول: اللهم إنها شدة شديدة، فاسترها! وقال لأصحابه: فداكم أبى وأمى إنما هى الخوارج، ولهم حملة، فاثبتوا، فإذا انقضت حملتهم فاحملوا عليهم فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا.

فحملوا عليهم حملة، فثبت يزيد ومن معه من عشيرته، ثم حمل عليهم فانكشفوا، وأتبع يزيد الوليد بن طريف، فلحقه فاحتز رأسه، فقال بعض الشعراء:

وائل بعضهم يقتل بعضاً ... لا يفل الحديد إلا الحديد

فلما قتل الوليد صبحتهم أخته ليلى بنت طريف تقاتل، عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس، فعرفت فقال يزيد: دعوها!

ثم خرج إليها فضرب بالرمح فرسها، ثم قال: أعزبى عزب الله عليك، فقد فضحت العشيرة.

فاستحيت وانصرفت وهى تقول ترثى أخاها الوليد:

فــإن يـك أرداه يزيد بن مــزيـد ... فـيـا رب خـيـل فـضـهـا وصـفـوف
إلا يا لقـومى للنوائب والردي ... ودهـر مـلـح بـالـكـرام عـنـيـف
وللبدر من بين الكواكب قد هوى ... وللشمس همت بعده بكسوف
فيا شجر الخابور ما لك مورقاً ... كـأنك تجـزع علي ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقي ... ولا المال إلا من قناً وسـيـوف
ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة ... وكل حـصـان باليدين عـروف
فلا تجزعا يا ابني طريف فإنني ... أري الموت نزالاً بكل شـريـف
فـقـدناك فـقـدان الربيع فليـتنا ... فـديناك من دهـمـائنا بألوف

واعتمر الرشيد فى شهر رمضان من سنة ١٧٩ هـ شكراً لله على قتل الوليد بن طريف، وعاد إلى المدينة، فأقام بها إلى وقت الحج، وحج بالناس، ومشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات، وشهد المشاعر كلها ماشياً.

وفى عام ١٧٩ هـ خرج حمزة بن أترك السجستانى، واشتد أمره ووصل أقصاه سنة ١٨٥ هـ فعاث فساداً فى أرض باذغيس بخراسان، فتصدى له عيسى بن على بن عيسى وقتل الكثير من أصحابه ففر حمزه إلى كابل.

وخرج خراشة الشيبانى الخارجى فقتل عام ١٨٠ هـ.

وفى ١٨٥ هـ قتل عبدالرحمن الأنبارى أبان بن قحطبة الخارجى وذلك فى مرج القلعة.

وكذلك قتل الخارجى أبو عمر والشارى بالجزيرة ١٨٤ هـ.

وفى سنة ١٩١ هـ خرج ثروان بن سيف فى سواد العراق، فقاتله طوق بن مالك فهزمه وقتل عامة أصحابه، ولكن ثروان فر هارباً، ولم يعد له من أثر يذكر.

تصدى الرشيد للفتن الداخلية في عصره

هى حركات استقلالية ظهرت فى دولة الخلافة ترغب فى الاستقلال وتصدى لها الرشيد وقضى عليها ففى سنة ١٧٨ هـ وثبت طائفة من قيس وقضاعة على عامل مصر اسحق بن سليمان فقاتلوه، فبعث الرشيد عامله على فلسطين هرثمة بن أعين فقاتلهم حتى أذعنوا بالطاعة، وأدوا ما عليهم من الخراج.

وأخمد هرثمة بن أعين كذلك فتنة قامت فى إفريقيا بقيادة عبدوية الأنبارى، وكان الفضل فيها ليحيى بن خالد البرمكى الذى كاتب عبدوية، ووعده الأمان إن استجاب له وقد استسلم عبدويه، ووفى له يحيى بالأمام.

وظهرت بعض الفتن فى عام ١٧٦ هـ فى الشام بين القبائل المنصرية واليمانية وتقاتل الطرفان ودامت الحروب بينهما طويلاً وقتل منهم خلق كثير وقام أبو الهندام زعيم المنصرية بقتل الكثير من اليمانية فأرسل إليه الرشيد جيشاً بقيادة السندى بن سهل وموسى بن عيسى وانتهت تلك الفتنة عام ١٧٧ هـ.

وفى عام ١٨٠ هـ ظهرت طائفة بجرجان يطلق عليها المحمرة، لبسوا ألبسة حمراء واتبعوا رجلاً يدعى عمرو بن محمد العمركى، وكان ينسب إلى الزندقة، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل.

وفى عام ١٨٣ هـ خرجت الخزر على الناس من ثلمة أرمينية، فاعاشوا فى تلك البلاد فساداً، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف، وقتلوا بشراً كثيراً، فانهزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم، فأرسل الرشيد إليهم خازم بن خزيمة ويزيد بن مزيد فى جيوش كثيرة كثيفة، فأصلحوا ما فسد فى تلك البلاد.

وفى سنة ١٨٥ خرج أبو الخصيب وهيب بن عبدالله النسائى، وكان خروجه

ببلدة «نسا» واحتل أبيورد وطوس ونيسابور، ثم هزم فى مرو، وخرج إليه على بن عيسى بن ماهان واستطاع القضاء عليه عام ١٨٦ هـ.

وقام رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند بثورة بسبب زواجه من امرأة يحيى بن الأشعث بحيلة ورفع أمره للرشيد(١).

فأمر واليه على بن عيسى على خراسان أن يفرق بينهما، وأن يجلد رافعاً، فهرب من السجن، ولحق بعلى بن عيسى ببلخ، فطلب منه الأمان فلم يجبه إليه، وسمح له بالعودة إلى سمرقند، فعاد إليها، ووثب على عاملها سليمان بن حميد فقتله.

فأرسل إلى على بن عيسى ابنه عيسى ثم سار إليه بنفسه وذلك عام ١٩٠ هـ وعظم أمر رافع عام ١٩١ هـ وأطاعه أهل «نسف»، ودعمه الأتراك، وقتلوا عيسى بن على.

وولى الرشيد هرثمة بن أعين على خراسان، وعزل على بن عيسى عنها.

وقاتل هرثمة رافع، وتمكن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير الليث أخى رافع وأرسله إلى الرشيد وهو فى «طوس» متوجهاً لقتال رافع فضرب عنق بشير.

ولكن أمر رافع استمر إلى ما بعد أيام الرشيد، حيث دخل فى الطاعة فى عهد الخليفة المأمون.

وخرجت طائفة الخرمية بالجبل وبلاد أذربيجان ١٩٢ هـ فوجه إليهم الرشيد عبدالله بن مالك بن الهيثم الخزاعى فى عشرة آلاف فارس، فقتل منهم خلقاً وأسر وسبى ذراريهم وقدم بهم بغداد، فأمره الرشيد بقتل الرجال منهم، وببيع الذرية.

وهكذا استطاع الرشيد القضاء على الثورات التى قام بها الخوارج وغيرهم، واستقرت دولته وازدهرت وعاش الناس فى عصره فى رخاء، فقد اعتبر عصر الرشيد واسطة العقد بالنسبة للخلافة الإسلامية فقد اكتملت فيه ألوان العظمة

---

(١) أراد رافع الزواج من امرأة يحيي بن الأشعث وكانت ذات مال وجمال وقد غاب عنها زوجها ببغداد. فأشاروا عليه أن تعلن شركها بالله وتكشف شعرها أمام شهود فيتم التفريق لها من زوجها، وبالفعل قامت بذلك وتزوجها.

والقوة والمجد فى شتى أنواع العلوم، فقد عاش فى عصره وأيامه زخم من كبار العلماء أمثال مالك بن أنس والليث بن سعد والشافعى وصاحب أبى حنيفة أبو يوسف القاضى ومحمد بن الحسن الشيبانى وأبو إسحاق الغزارى وإبراهيم بن أبى يحيى شيخ الشافعى ونوح الجامع والحافظ أبو عوانة اليشكرى وإبراهيم بن سعد الزهرى وكبار أصحاب أبى حنيفة وخلائق آخرين من العلماء والفقهاء فى شتى المجالات.

■ ■ ■



الرشيد وملك الروم النقفور

فى عام ١٨٧ هـ نقضت الروم الصلح الذى كان بينهم وبين المسلمين والذى كان عقده الرشيد بينه وبين ملكة الروم «أغسطه».

وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور، وكان شجاعاً يقال: إنه من سلالة آل جفنة، فخلعوا أغسطه وسملوا عينيها «أى جعلوها عمياء».

فكتب نقفور إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابى هذا فاردد إلى ما حملته إليك من الأموال وافتدى نفسك به، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام.

ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرب وأحرق، فطلب نقفور منه الموادعة على خراج يؤديه إليه فى كل سنة فأجابه الرشيد إلى ذلك.

فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان البرد قد اشتد جداً، فلما يقدر أن يجىء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد، حتى يخرج فصل الشتاء.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة وفيها: عزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة، فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف، فخرج النقفور للقائه، فجرح النقفور ثلاثة جراح وانهزم، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفاً وغنموا أكثر من أربعة آلافة دابة.

وفيها: رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق.

وفيها: حج بالناس الرشيد، وكانت آخر حجاته.

وقد قال أبو بكر حين رأى الرشيد منصرفاً من الحج ـ وقد اجتاز بالكوفة ـ لا يحج الرشيد بعدها، ولا يحج بعده خليفة أبداً(١).

■ ■ ■



(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.



البرامكة والرشيد:

- تاريخ البرامكة مع الرشيد.
- أسباب نكبة البرامكة.
- الساعات الأخيرة فى حياة جعفر بن يحيى البرمكى.



تاريخ البرامكة مع الرشيد

ترجع أصول البرامكة إلى الفرس وحبرهم برمك المجوسى، والبرامكة يسمون بالفارسية (برمكيان) هم عائلة ترجع أصولها إلى برمك المجوسى من مدينك بلخ، وقد كان للبرامكة منزلة عالية واستحوذوا على الكثير من المناصب فى الدولة العباسية وكان لهم حضور كبير فى بلاط الخليفة هارون الرشيد، الذى أرضعته زوجة يحيى بن خالد البرمكى الذى حفظ لهارون الرشيد ولاية العهد بعد أن أراد الخليفة الهادى خلع هارون الرشيد.

فى زمن الخليفة المهدى أبي هارون، قوى ساعد البرامكة وتولى يحيى البرمكى تربية الرشيد، وقامت زوجة يحيى بإرضاع هارون الرشيد طفلا، فأصبح (أخا بالرضاعة) لابنها «الفضل بن يحيى البرمكى» و«جعفر بن يحيى البرمكى» الذى حظى بمكانة خاصة عند الرشيد، ويقال بأنه كان الحاكم الفعلى لبعض أمور الدولة العباسية.

وأما انقلاب الرشيد عليهم فلا يوجد سبب واضح يشار إليه ولعل البداية حين بذل أمراء البيت العباسى جهودا كبيرة لإقناع الرشيد ببيعة الأمين، ابنه من زبيدة وكان لهم ما أرادوا بحجة أن الأمين بن هارون الرشيد من أب وأم هاشميين، رغم أن الأمين كان صغير السن وقد ولد فى نفس العام الذى ولد فيه المأمون، كما تمكن البرمكيون من الضغط على الرشيد، فأمر ببيعة المأمون بعد الأمين، وكانت أم المأمون جارية فارسية أى أن أخواله كانوا من الفرس وقد وقفوا إلى جواره فى صراعه وقتاله مع أخيه الأمين.

تعاظم نفوذ البرامكة فى عهد هارون الرشيد، لدرجة أن بعض حاشية الخليفة بدأت تضمر لهم شرا، واحتدم الصراع بين البرمكيين وخصومهم. إلى أن تمكن خصوم البرامكة بعد حشد كل طاقاتهم من إقناع الخليفة بالتخلص منهم. وقد قيل

أن البرامكة قد قتلوا بالسم الإمام موسى بن جعفر الكاظم وهم الذين قد وشوا على موسى بأنه يريد الانقلاب عليه وبكى هارون على ابن عمه وعرف هارون مخطط البرامكة.

فقد كان هارون الرشيد ذكيا، وكان يعرف نفوذ البرامكة فى الدولة، وأدرك أن التخلص منهم ليس بالأمر السهل، لذا لجأ للمكر، وقرر فجأة فى سنة (٨٠٣م) القبض على جميع أفراد العائلة البرمكية، وصادر أموالهم وممتلكاتهم، وشرد بعضهم، وقتل البعض، بينما دخل الكثيرون منهم إلى السجون.

لعل البداية فى سوء العلاقة بين الرشيد والبرامكة وأسباب سوء تلك العلاقة سياسية، فقد أراد البرامكة تولية المأمون ولاية العهد بوصفهم أخواله ولكن زوجة الرشيد والعرب أرادوا تولية الأمين ذى الأصول العربية الخالصة.

وكانت حجتهم فى ذلك أن الأمين هاشمى الأبوين، وأن ذلك لم يجتمع لغيره من خلفاء بنى العباس، وكان يؤجج تلك الرغبة كرههم لـ «آل برمك» الذين استأثروا بالرشيد، ونالوا لديه حظوة ومكانة كبيرة.

استدعى الرشيد الأمراء والقواد ورجال الحاشية، وطلب الفقهاء ليُشهدهم على قراره الذى عقد عليه العزم، وهو البيعة لابنه الثانى «محمد الأمين».

وفى يوم الخميس (٦ من شعبان ١٧٥هـ ـ ٨ من ديسمبر ٧٩١م) عقد الرشيد مجلس البيعة، وأخذت لمحمد البيعة، ولقبه أبوه بـ «الأمين»، وولاه فى الحال على بلاد الشام والعراق، وجعل ولايته تحت إدارة مربيه «الفضل بن يحيى البرمكى».

عندما أصبح الأمين شابًا يافعًا، وبعد ظهور نفوذ أمه «زبيدة»، التى أصبحت تنقم على البرامكة ما صاروا إليه من النفوذ والسلطان فى بلاط الرشيد، وتسعى إلى استقطاب العنصر العربى فى مواجهة تصاعد النفوذ الفارسى ممثلا فى البرامكة، وتفاقم الصراع الذى اتخذ صورة قومية داخل البلاد بين العرب والفرس عندئذ بدأ البرامكة يعيدون النظر فى مسألة ولاية العهد، فاستخدموا نفوذهم، واستغلوا قربهم من الرشيد ومنزلتهم عنده فى إيجاد منافس للأمين وأمه زبيدة،

ووجدوا بغيهم فى شخص «المأمون» الأخ الأكبر، خاصة أن أمه فارسية، واستطاع البرامكة أن يجعلوا الرشيد يعقد البيعة لولده «عبد الله المأمون»، على أن تكون ولاية العهد له من بعد أخيه الأمين، وذلك فى سنة (١٨٢هـ ـ ٧٩٨م) بعد مضى نحو ثمانى سنوات من بيعته الأولى للأمين.

وأخذ «الرشيد» على ولديه «الأمين» و«المأمون» المواثيق المؤكدة، وأشهد عليهما، ثم وضع تلك البيعة فى حافظة من الفضة، وعلقها فى جوف الكعبة، بعد ذلك بأربعة أعوام فى سنة (١٨٦هـ ـ ٨٠٢م) عقد الرشيد ولاية العهد لابنه «القاسم» من بعد أخويه، ولقبه بـ «المؤتمن».

وإزاء تعاظم نفوذ البرامكة، واحتدام الصراع بين الفريقين، بدأت الأمور تتخذ منحًى جديدًا، بعد أن نجحت الدسائس والوشايات فى إيغار صدر الرشيد على البرامكة، وذلك بتصويره بمظهر العاجز أمام استبداد البرامكة بالأمر دونه، والمبالغة فى إظهار ما بلغه هؤلاء من الجرأة على الخليفة، وتحكُّمِهم فى أمور الدولة، حتى قرر الرشيد التخلص من البرامكة ووضع حد لنفوذهم.

فقد تغلغل البرامكة فى كل أمور الدولة، وصار لهم كثير من الأنصار والأعوان، فاتبع الرشيد سياسة الكتمان، واستخدم عنصر المفاجأة، حتى يلحق بهم الضربة القاضية.

وفى ليلة السبت (أول صفر ١٨٧هـ ـ ٢٩ يناير ٨٠٣م) أمر رجاله بالقبض على البرامكة جميعًا، وأعلن ألا أمان لمن آواهم، وأخذ أموالهم وصادر دورهم وضياعهم، وفى ساعات قليلة انتهت أسطورة البرامكة وزالت دولتهم، وتبددت سطوة تلك الأسرة التى انتهت إليها مقاليد الحكم وأمور الخلافة لفترة طويلة من الزمان، تلك النهاية المأساوية التى اصطلح على تسميتها فى التاريخ بـ «نكبة البرامكة».

■ ■ ■

أسباب نكبة البرامكة

ذكر المؤرخون القدامى الكثير من الأسباب التى يظنون أنها السبب المباشر فى انقلاب الرشيد على البرامكة، ولعل كل ما قيل يندرج تحت خوف الحاكم من فئة معينة على مملكته حيث اتسع نفوذهم وقد ذكر تلك الأسباب المحتملة الطبرى فى تاريخه.

فقد ذكر الطَّبرى تحت عنوان: (ذكر الخبر عن إيقاع الرَّشيد بالبرامكة) فى كتابه تاريخ الأمم والملوك أن سبب غضب الرشيد على جعفر بن يحيى ـ الَّذى قتله عنده، فإنَّه مختلَف فيه، فمن ذلك ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل[1]، عن أبيه أنَّه قال: إنِّى لقاعد فى مجلس الرَّشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقُرب من الرَّشيد وسلَّم عليه ردَّ عليه ردّاً ضعيفًا، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيَّر.

قال: ثمّ أقبل على الرَّشيد، فقال الرَّشيد: يا جبريل! يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا إذنك؟

فقلت: لا، ولا يطمع فى ذلك.

قال: فما بالُنا يُدخلُ علينا بلا إذن.

فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدَّمنى الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك السَّاعة، وما هو إلاَّ شىء كان خصَّنى فيه أمير المؤمنين، ورفع به ذكرى، وإذ قد علمتُ فإنِّى أكون عنده فى الطَّبقة الثَّانية من أهل الإذن، أو الثَّالثة إن أمرنى سيدى بذلك.

قال: فاستحيا وكان من أرقِّ الخلفاء وجهاً، وعيناه فى الأرض، ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردتُ ما تكره، ولكن النَّاس يقولون.

---

(١) ابن طبيب الرَّشيد (جبريل بن بختيشوع).

قال: فظننت أنَّه لم يسنح له جواب يرضيه فأجاب بهذا القول ثمّ أمسك عنه، وخرج يحيى.

٢ ـ وذكر الطبرى وغيره أن محمد بن اللَّيث بعث رسالة إلى الرَّشيد يعظه فيها، ويذكره قائلاً: إنَّ يحيى بن خالد لا يغنى عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت فى عباده وبلاده، فقلت: يا رب إنّى اسكتفيتُ يحيى أمور عبادك! أتراك تحتجُّ بحجّة يرضى بها عنك!! مع كلام فيه توبيخ وتقريع.

فدعا الرَّشيد يحيى بن خالد البرمكى فقال: تعرف محمد بن الليث؟

قال: نعم.

قال: فأىُّ الرِّجال هو؟

قال: متَّهم على الإسلام.

فأمر به فوضع فى المطبَق دهراً، فلما تنكَّر الرَّشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأُحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبنى؟

قال: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: تقول هذا؟

قال: نعم، وضعت فى رجلى الأكبال، وحُلتَ بينى وبين العيال بلا ذنب أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أُحبُّك؟

قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثمّ قال: يا محمد أتحبنى؟

قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب ما فى قلبى.

فأمر أن يُعطى مئة ألف درهم، فأُحضِرَت، فقال: يا محمد، أتُحبنى؟

قال: أما الآن فنعم، قد أنعمت علىَّ، وأحسنت إلىَّ.

قال: انتقم الله ممن ظلمك، وأخذ لك بحقك ممن بعثنى عليك.

قال: فقال النَّاس فى البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوَّل ما ظهر من تغيُّر حالهم.

٣ ـ دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرَّشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرَّشيد لمسرور الخادم: مُرِ اللمان ألاَّ يقوموا ليحيى إذا دخل الدَّار. فقال: فدخل فلم يقم إليه أحد، فاربدَّ لونه، فقال: وكان الغلمان والحجّاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه. فكان ربّما استسقى الشُّربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه، وبالحرى إنْ سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً[١].

ذكر أبو محمد اليزيدى ـ وكان فيما قبل من أعلم النَّاس بأخبار القوم ـ قال: مَن قال إنَّ الرَّشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن الطالبى[٢] فلا تصدّقه، وذلك أنَّ الرَّشد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثمّ دعا به ليلة من اللَّيالى فسأله عن شيء من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتَّق الله فى أمرى، ولا تتعرَّض أن يكون خصمك غداً محمَّد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا آويت محدثاً.

فرقَّ عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال: وكيف أذهب ولا أمن أن أُؤخذ بعد قليل فأُردَّ إليك أو إلى غيرك.

فوَّجه معه من أدَّاه إلى مأمنه، وبلغ الخبر الفضل بن الرَّبيع، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه، فجلا الأمر، فوجده حقّاً، وانكشف عنده، فخل على الرَّشيد فأخبره، فأراه أنَّه لا يعبأ بخبره، وقال: وما أنت وهذا لا أُمّ لك! فلعل ذلك عن أمرى.

فانكسر الفضل، وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقّمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟

قال: بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيِّق والأكبال.

وقال: بحياتى!

فأحجم جعفر ـ وكان من أدقّ الخلق ذهناً، وأصحَّهم فكراً ـ وهجس فى نفسه أنَّه قد علم بشيء من أمره.

---

(١) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى.

(٢) سبق ذكر يحيى الطالبى.

فقال: لا وحياتك يا سيدى ولكن أطلقته وعلمت أنَّه لا حياة به ولا مكروه عنده.

قال: نِعمَ ما فعلت، ما عدوتَ ما كان فى نفسى.

فلما خرج أتبعه بصره حتَّى كان أن يتوارى عن وجهه، ثمّ قال: قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضَّلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان[١].

ثمَّ ذكر الطَّبرى: وحدَّث إدريس بن بدر، قال: عرض رجل للرَّشيد وهو يناظر يحيى بن خالد البرمكى، فقال: يا أمير المؤمنين نصيحة، فادعُ بى إليك، فقال لهرثمة: خذ الرَّجل إليك، وسله عن نصيحته هذه.

فسأله، فأبى أن يخبره وقال: هى سرٌّ من أسرار الخليفة، فأخبر هرثمة الرَّشيد بقوله، قال: فقل له لا يبرح الباب حتَّى أفرغ له.

قال: فلما كان فى الهاجرة انصرف من كان عنده، فدعا به، فقال: أخلنى، فالتفت هارون إلى بنيه فقال: انصرفوا يا فتيان، فوثبوا وبقى خاقان وحسين على رأسه، فنظر إليهما الرَّجل، قال الرَّشيد: تنحَّيا عنى، ففعلا، ثمَّ أقبل على الرَّجل، فقال: هاتِ ما عندك.

فقال: على أن تؤمِّننى.

قال: على أن أؤمِّنك وأُحسن إليك.

قال: كنت بحلوان[٢] فى خان من خاناتها، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله فى دُرَّاعة صوف غليظة، وكساء صوف أخضر غليظ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل، ويرحلون إذا رحل، ويكونون منه بصدد، يوهمون مَن رآهم أنَّهم لا يعرفونه وهم من أعوانه، ومع كلٍّ واحد منهم منشور يأمن به إن عُرض له، قال: أو تعرف يحيى بن عبدالله؟

قال: أعرفه قديماً، وذلك الَّذى حقَّق معرفتى به بالأمس.

قال: فصفه لى.

قال: مربوع أسمر رقيق السُّمرة، أجلح[٣] حسن العينين، عظيم البطن.

---

(١) تاريخ الطبرى.

(٢) حلوان العراق هى فى آخر حدود السَّواد مما يلى الجبال من بغداد. (معجم البلدان).

(٣) الجلح: انحسار الشعر عن جانبى الرأس.

قال: صدقت، هو ذاك.

قال: فما سمعته يقول؟ قال: ما سمعته يقول شيئاً، غير أنّى رأيته يصلّى، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب الخان، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوب نظيف، فألقاه فى عنقه ونزع جبّة الصّوف، فلما كان بعد الزّوال صلّى صلاة ظننتها العصر، وأنا أرمقه، أطال فى الأُولين، وخفّف فى الأُخريين.

فقال الرّشيد: لله أبوك! لجاد ما حفظت عليه، نعم تلك صلاة العصر، وذاك وقتها عند القوم، أحسن الله جزاءك وشكر سعيك! فمن أنت؟

قال: أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدّولة، وأصلى من مرو، ومولدى مدينة السّلام.

قال: فمنزلك بها؟

قال: نعم.

فأطرق مليّاً، ثمّ قال: كيف احتمالك لمكروه تمتحن به فى طاعتى!

قال: أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين.

قال: كن بمكانك حتّى أرجع، فزخل في حجرة كات خلف ظهره، فأخرج كيساً فيه ألْفا دينار، فقال: خذ هذه، ودعنى وما أُدبِّر فيك.

فأخذها، وضمّ عليها ثيابه، ثمّ قال: يا غلام، فأجابه خاقان وحسين، فقال: اصفعا ابن اللَّخناء[1]، فصفعاه نحواً من مئة صفعة، ثمّ قال: أخرجاه إلى من بقى فى الدّار، وعمامته فى عنقه وقولا: هذا جزاء من يسعى بباطنة أمير المؤمنين وأوليائه!

ففعلا ذلك، وتحدّثوا بخبره، ولم يعلم بحال الرّجل أحد، ولا بما كان ألقى إلى الرّشيد حتّى كان من أمر البرامكة ما كان.

وذكر يعقوب بن إسحاق أنّ إبراهيم بن المهدى حدّثه، قال: أتيت جعفر بن

(١) اللَّخَنُ: نتَنُ الرّيح عامة، واللَّخَنُ: قُبْح ريح الفَرْج.

يحيى فى داره الَّتى ابتناها، فقال لى: أما تعجب من منصور بن زياد؟

قال: قلت فماذا؟

قال: سألته هل ترى فى دارى عيباً؟

قال: نعم، ليس فيها لبِنة ولا صنوبرة.

قال إبراهيم: فقلت: الَّذى يعيبها عندى أنَّك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم، وهو شىء لا آمنه عليك غداً بين يدى أمير المؤمنين.

قال: هو يعلم أنَّه قد وصلنى بأكثر من ذلك وضعف ذلك، سوى ما عوَّضنى له.

قال: قلت: إنَّ العدو إنَّما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول: يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم، فأين نفقاته! وأين صِلاته! وأين النَّوائب الَّتى تنوبه! وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك! وهذه جملة سريعة إلى القلب، والموقف على الحاصل منها صعب، قال: إن سمع منى قلت: إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالسَّتر لها أو بإظهار القليل من كثيرها، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندى، فوضعتها فى رأس جبل، ثمّ قلت للنَّاس: تعالوا فانظروا.

وأما ما قيل من أن سبب نكبة البرامكة ما جرى بين العباسة أخت الرشيد والوزير جعفر بن يحيى البرمكى فقد تحدثنا عن ذلك وذكرنا آراء المؤرخين القدماء والمحدثين وكيف أنها قصة ملفقة وليست سبباً فى نكبة البرامكة، وأن العباسة لم تتزوج من جعفر البرمكى.

ولعل أهم أسباب نكبة البرامكة ازدياد نفوذهم فى دولة الرشيد وعدم إطاعة أوامره وتصرفهم دون الرجوع إليه، وأنهم امتلكوا من الأموال الكثير حتى قدرت أموالهم وممتلكاتهم نحو ٤٢ مليون دينار بالقيمة المالية فى هذا الزمن كما ذكر المسعودى فى مروج الذهب، فقد تطاول البرامكة فى البنيان كما ذكر ابن كثير فى تاريخ أن البرامكة أنفقوا المال الكثير فى بناء القصور التى نافسوا بها الرشيد وقصوره وأنهم يتشبهون بالرشيد ولعل هذا من أسباب ما حدث لهم.

ومال قاله وذكره المؤرخون نجد أن أهم أسباب نكبة البرامكة هو خوف الرشيد منهم بسبب طمعهم فى الحكم إلى فارسية كسروية ويظهرون الإسلام.

ويؤيد هذا الاحتمال ما ذكره الجهشيارى أنَّ الفضل بن سهل (وكان مجوسيّاً) نقل ليحيى بن خالد البرمكى كتاباً من الفارسيّة إلى العربية، فأُعجب بفهمه وبجودة عبارته، فقال له يحيى: إنِّى أراك ذكياً، وستبلغ مبلغاً رفيعاً، فأَسْلِم حتَّى أجد السَّبيل إلى إدخالك فى أُمورنا والإحسان إليك، وقال له يحيى: الآن، ودعا بسلاَّم مولاه فقال خذ بيد هذا الفتى، وامضِ به إلى جعفر وقل له يدخله على المأمون حتَّى يسلم على يديه.

ففعل وأسلم على يد المأمون، وهو الَّذى صار فيما بعد وزير المأمون، والَّذى لُقِّب بذى الرِّياستَيْن لتوليه الوزارة وقيادة الجيش.

كما هو أيضاً إسلام (كاووس) ملك أشروسنة[1]، فإنه لما غُلِب فى الحرب أظهر الإسلام، وكذلك ابنه حيدر المعروف (بالإفشين حيدر بن كاووس)، الذى مات فى سجن المعتصم لزندقته ومجوسيته.

واستطاع البرامكة الفُرْس بجاههم، وبالأموال الَّتى وضعت بى أيديهم - رفع الثَّقافةَ الفارسيَّة، ونشروها بما لهم من جاه وسلطان فقد روى الجاحظ عن ثُمامة، قال: كان أصحابنا يقولون: لم يكن يُرى لجليس خالد (البرمكى) دار إلاَّ وخالد بناها له، ولا ضيعة إلاَّ وخالد ابتاعها له، ولا ولد إلاَّ وخالد ابتاع أُمَّه إن كانت أمَة أو أدَّى مهرها إن كانت حُرَّة، ولا دابة إلاَّ وخالد حمله عليها، إما من نتاجه أو من غير نتاجه[2].

وكذلك آوى البرامكة كثيرين ممن اتهموا بالزَّندقة كمحمد بن اللَّيث الخطيب، وهشام بن الحكم الرافضى.

قال الأصمعى فى البرامكة:

(١) أشروسنة: مقاطعة فى بلاد ما وراء النهر، تقع إلى الغرب من فَرغانة والشَّاس، وتقع سمرقند وبخارى إلى الجنوب منها.

(٢) انظر الجهشيارى، وتاريخ بغداد.

إذا ذُكِـرَ الشِّـركُ فى مـجلسٍ ... أنـارتْ وُجـــوه بنى بَـرْمَـكْ
وإن تُـلـيـتْ عِـنْـدَهُـم آيَـةٌ ... أتوا بـالأحـاديثِ عَنْ مَـزْدَكْ

وقال آخر:

إنَّ الـفَـــراغَ دَعـــانى ... إلى ابْـتِناءِ الْمسـاجِـدْ
وَإنَّ رأيى فـيـهـا ... كَـرَأْيِ يحـيى بن خـالدْ(١)

وقال (أبو عمرو) كلثوم بن عمرو بن الحارث التَّغلبى:

إنَّ البـرامكَ لا تنفكُّ أنجـيـة ... بـصـفحـةِ الدِّين من نجواهم نُدَبُ
تجـرّمت حـجج منهم ومُنصلُهم ... مضـرَّج بدم الإسلام مختضبُ

ومما عـجل من هـلاكهم أيضـاً إطلاقهم سـراح يحـيى بن عبـد الله الطالبى، والبت والأمر والنهى دون الرجوع إليه، بل مخالفة أمره، فقد أطلق سراحه ووجَّه معه مَن أوصله إلى بلاده دون علم الرشيد.

فقد أرادوا أن يظهروا سيطرتهم وحكمهم فى دولة الرشيد حتى اعتبرهم المؤرخون أصحاب دولة وفى هذا يقول المسعودى: «وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيَّامهم النَّضرة الحسنة من استخلاف هارون الرَّشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوماً..».

ذكر الذهبى فى سير أعلام النبلاء: قيل إن ولدا ليحيى قال له وهم فى القيود: يا أبة بعد الأمر والنهى والأموال صرنا إلى هذا؟

قال: يا بنى دعوة المظلوم غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها.

وإذا صور البعض أن ما فعله الرشيد كان عن غضبة غضبها عليهم فلا يجوز ذلك لأنه من الثابت أن الرشيد لم يندم على ما فعله معهم ولم يوافق على إطلاق سراح يحيى بن خالد رغم أنه كتب له من الحبس حين أحسَّ الموت: قد تقدَّم الخصمُ إلى موقف الفَصل، وأنتَ بالأثر، والله الحَكَمُ العدل، وستُقدَّم فتعلم، فرد عليه الرَّشيد: الحَكَمُ الَّذى رضيتُه فى الآخرة لك، هو الَّذى أعدى الخصمَ فى الدُّنيا عليك، وهو مَنْ لا يُرد حكمه، ولا يصرف قضاؤه(٢).

(١) انظر عيون الأخبار ـ مصدر سابق.
(٢) العقد الفريد ـ مصدر سابق.

قال الأصمعى: وجَّه إلىَّ الرَّشيدُ بعد قتله جعفراً، فجئت فقال: أبيات أردتُ أن تسمعها، فقلت: إذا شاء أمير المؤمنين، فأنشدنى:

لو أن جعفر خاف أسباب الرَّدى ... لنَجا بِهِ منها طِمِرٌ مُلْجَمُ

ولكان من حذر المنيَّة حيث لا ... يرجو اللحاق به العقابُ القَشْعَمُ

لكنه لما أتاه يومه ... لم يدفع الحدثان عنه مُنَجِّمُ

فعلمت أنَّها له، فقلت: إنَّها أحسن أبيات فى معناها، فقال: إلحق الآن بأهلك يا بن قريب إن شئت(١).

ولا يصح قول بعض المؤرخين أن الرشيد قال: «لعن الله من أغرانى بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذَّة ولا راحة ولا رجاء، وددت والله أنِّى شطرت نصف عمرى وملكى وأنِّى تركتهم على حالهم».

والدليل على كذب تلك المقولة أنه لما طال حبس يحيى البرمكى جاءت زوجته إلى الرشيد فلما دخلت عليه قام الرشيد متحفياً واكب على تقبيل رأسها وقالت:

ـ أمير المؤمنين.. لقد ربيتك وأخذت لك الأمان من دهرى، ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك، ومع ذلك يردُّ الرَّشيد: قَدَرٌ سبقَ، وقضاءٌ حُمَّ، وغضب من الله نزل.

وتعالت المناجاة، فكان يلوذ بذكر الله، ويقول: «لله الأمر من قبل ومن بعد».. وطال استرحامها، فقال لها الرشيد: «يا أُمَّ الرَّشيد أما لى من الحق مثل الذى لهم؟» يقصد زوجها وأولادها.

قالت: إنَّك لأعزّ علىَّ وهم أحب إلىَّ، وقامت عنه.

وهكذا كانت إنسانية الرشيد العالية تستحيل قسوة ضارية كلما كانت الدولة محل هجوم عليها، أو دفاع عنها.

فلو ندم لأطلق سراحهم من سجن الرَّافِقَة (فى الرَّقَّة)، الذى بقى يحيى فيه حتى توفى سنة ١٩٠هـ فى ٣ المحرم وهو ابن سبعين سنة(٢).

---

(١) وفيات الأعيان ـ مصدر سابق.

(٢) انظر تاريخ بغداد.

الساعات الأخيرة في حياة الوزير جعفر البرمكى

كان مقتل جعفر البرمكى عام ١٨٧هـ بعد صداقة طويلة بينه وبين الرشيد أخيه فى الرضاعة، وقد اختلف فى سبب ذلك على أقوال ذكرها ابن جرير وغيره، وقد ذكر ابن كثير معظم هذه الأسباب التى ذكرها أيضاً الطبرى فقال ابن كثير:

قيل: إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن إلى جعفر البرمكى ليسجن عنده، فما زال يحيى يترفق له حتى أطلقه، فنمَّ الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد، فقال له الرشيد: ويلك! لا تدخل بينى وبين جعفر، فلعله أطلقه عن أمرى وأنا لا أشعر.

ثم سأل الرشيد جعفرا عن ذلك فصدقه فتغيظ عليه وحلف ليقتلنه، وكره البرامكة، ثم قتلهم وقلاهم بعدما كانوا أحظى الناس عنده، وأحبهم إليه، وكانت أم جعفر والفضل أم الرشيد من الرضاعة، وقد جعلهم الرشيد من الرفعة فى الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئا كثيرا لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء، بحيث إن جعفرا بنى دارا غرم عليها عشرين ألف ألف درهم، وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد.

ويقال: إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل: هذا لجعفر.

ويقال: إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة.

وقيل: إنما قتلهم بسبب العباسة.

ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره.

وذكر ابن الجوزى أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال: لو أعلم أن

قميصى يعلم ذلك لأحرقته.

وقد حج الرشيد عام ١٨٧هـ ومعه يحيى بن خالد، فجعل يدعو عند الكعبة: اللهم إن كان يرضيك عنى سلب جميع مالى وولدى وأهلى فافعل ذلك وأبق منهم الفضل، ثم خرج.

فلما كان عند باب المسجد رجع فقال: اللهم والفضل معهم فإنى راض برضاك عنى ولا تستثن منهم أحدا.

فلما عاد الرشيد من الحج صار إلى الحيرة ثم ركب فى السفن إلى الغمر من أرض الأنبار، فلما كانت ليلة السبت سلخ المحرم من هذه السنة أرسل مسرورا الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة فى جماعة من الجند، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلا، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بختيشوع المتطبب، وأبو ركانة الأعمى المغنى الكلوذانى، وهو فى أمره وسروره، وأبو ركانة يغنيه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

فقال الخادم له: يا أبا الفضل! هذا الموت قد طرقك، أجب أمير المؤمنين.

فقام إليه يقبل قدميه ويدخل عليه أن يمكنه فيدخل إلى أهله فيوصى إليهم ويودعهم، فقال: أما الدخول فلا سبيل إليه، ولكن أوصى.

فأوصى وأعتق جميع مماليكه أو جماعة منهم، وجاءت رسل الرشيد تستحثه فأُخرج إخراجا عنيفا، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذى فيه الرشيد، فحبسه وقيده بقيد حمار، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل، فأمر بضرب عنقه، فجاء السياف إلى جعفر فقال: إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن آتيه برأسك.

فقال: يا أبا هاشم! لعل أمير المؤمنين سكران، فإذا صحا عاتبك فىَّ، فعاوده.

فرجع إلى الرشيد فقال: إنه يقول: لعلك مشغول.

فقال: يا ماص بظر أمه ائتنى برأسه.

فكرر عليه جعفر المقالة فقال الرشيد فى الثالثة: برئت من المهدى إن لم تأتنى

برأسه لأبعثن من يأتينى برأسك ورأسه.

فرجع إلى جعفر فحز رأسه وأتى به إلى الرشيد فألقاه بين يديه، وأرسل الرشيد من ليلته بالرسائل والأوامر بالاحتياط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها، ومن كان منهم بسبيل.

فأخذوا كلهم عن آخرهم، فلم يفلت منهم أحد.

وحبس يحيى بن خالد فى منزله، وحبس الفضل بن يحيى فى منزل آخر، وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الدنيا، وبعث الرشيد برأس جعفر وجثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلى، وشقت الجثة باثنتين فنصب نصفها الواحد عند الجسر الأسفل، والآخر عند الجسر الآخر، ثم أحرقت بعد ذلك.

ونودى فى بغداد: أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم، إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه مستثنى منهم لنصحه للخليفة.

وأتى الرشيد بأنس بن أبى شيخ كان يتهم بالزندقة، وكان مصاحبا لجعفر، فدار بينه وبين الرشيد كلام، ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفا وأمر بضرب عنقه به.

وجعل يتمثل ببيت قيل فى قتل أنس قبل ذلك:

تلمظ السيف من شوق إلى أنس ... فالسيف يلحظ والأقدار تنتظر

فضربت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد: رحم الله عبدالله بن مصعب.

فقال الناس: إن السيف كان للزبير بن العوام.

ثم ملئت السجون بالبرامكة، واسلبت أموالهم كلها، وزالت عنهم النعمة.

وقد كان الرشيد فى اليوم الذى قتل جعفرا فى آخره، هو وإياه راكبين فى الصيد فى أوله، وقد خلا ه دون ولاة العهود، وطيبه فى ذلك بالغالية بيده، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضمه إليه وقال: لولا أن الليلة ليلة خلوتى بالنساء ما فارقتك، فاذهب إلى منزلك واشرب واطرب وطب عيشا حتى تكون على مثل حالى،

فأكون أنا وأنت فى اللذة سواء.

فقال: والله يا أمير المؤمنين لا أشتهى ذلك إلا معك.

فقال: لا! انصرف إلى منزلك.

فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل بعضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره.

وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة من المحرم ١٨٧هـ.

وقيل: إنها أول ليلة من صفر فى هذه السنة، وكان عمر جعفر إذ ذاك سبعا وثلاثين سنة.

ولما جاء الخبر إلى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال: قتل الله ابنه.

ولما قيل له: قد خربت دارك.

قال: خرب الله دوره.

ويقال: إن يحيى لما نظر إلى دوره وقد هتكت ستورها، واستبيحت قصورها، وانتهب ما فيها.

قال: هكذا تقوم الساعة.

وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزيه فيما جرى له، فكتب إليه جواب التعزية: أنا بقضاء الله راض، وباختياره عال، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم، وما الله بظلام للعبيد، وما يغفر الله أكثر، ولله الحمد.

وقد أكثر الشعراء من المراثى فى البرامكة فمن ذلك قول الرقاشى، وقيل: إنها لأبى نواس:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يحدى ومن كان يحتدى

فقل للمطايا قد أمنت من السُرى ... وطىّ الفيافى فدفدا بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفرى من بعده بمسوَّدٍ

وقل للعطايا بعد فضل تعطلى | وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفا برمكيا مهندا | أصيب بسيف هاشمى مهند

وقال الرقاشى، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعه:

أما والله لولا خوف واشٍ | وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا | كما للناس بالحجر استلام
فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى | حساما فلّه السيف الحسام
على اللذاب والدنيا جميعا | ودولة آل برمكٍ السلام

قال: فاستدعاه الرشيد فقال له: كم كان يعطيك جعفر كل عام؟

قال: ألف دينار.

فأمر له بألفى دينار.

وقال الزبير بن بكار: عن عمه مصعب الزبيرى، قال: لما قتل الرشيد جعفرا وقفت امرأة على حمار فاره فقالت بلسان فصيح: والله يا جعفر لئن صرت اليوم آية لقد كنت فى المكارم غاية، ثم أنشأت تقول:

ولما رأيت السيف خالط جعفرا | ونادى منادٍ للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنما | قصارى الفتى يوما مفارقة الدنيا
وما هى إلا دولة بعد دولة | تخوّل ذا نعمى وتعقب ذا بلوى
إذا أنزلت هذا منازل رفعة | من الملك حطت إلى الغاية القصوى

قال: ثم حركت حمارها فذهبت فكأنها كانت ريحا لا أثر لها، ولا يعرف أين ذهبت.

وذكر ابن الجوزى: أن جعفرا كانت له جارية يقال لها: فتينة مغنية، لم يكن لها فى الدنيا نظير، كان مشتراها عليه بمن معها من الجوارى مائة ألف دينار، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلك، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرها

ليلة فى مجلس شرابه وعنده جماعة من جلسائه وسماره، فأمر من معها أن يغنين فاندفعت كل واحدة تغنى، حتى انتهت النوبة إلى فتينة، فأمرها بالغناء فأسبلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا.

فغضب الرشيد غضبا شديدا، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقد وهبها له، ثم لما أراد الانصراف قال لها فيما بينه وبينه: لا تطأها.

ففهم أنه إنما يريد بذلك كسرها.

فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهر أنه قد رضى عنها وأمرها بالغناء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا.

فغضب الرشيد أشد من غضبه فى المرة الأولى وقال: النطع والسيف.

وجاء السياف فوقف على رأسها فقال له الرشيد: إذا أمرتك ثلاثا وعقدت أصابعى ثلاثا فاضرب.

ثم قال لها: غنّ، فبكت وقالت: أما بعد السادة فلا.

فعقد أصبعه الخنصر، ثم أمرها الثانية فامتنعت، فعقد اثنتين، فارتعد الحاضرون وأشفقوا غاية الإشفاق وأقبلوا عليها يسألونها أن تغنى لئلا تقتل نفسها، وأن تجيب أمير المؤمنين إلى ما يريد.

ثم أمرها الثالثة فاندفعت تغنى كارهة:

لما رأيت الدنيـــا قـــد درست أيقنت أن النعـــيم لم يعـــد

قال: فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر، وأقبلت الدماء وتطايرت الجوارى من حولها، وحملت من بين يديه فماتت بعد ثلاث.

وحكى ابن خلكان: أن جعفرا اشترى جارية من رجل بأربعين ألف دينار، فالتفتت إلى بائعها وقالت: اذكر العهد الذى بينى وبينك، لا تأكل من ثمنى شيئا.

فبكى سيدها وقال: اشهدوا أنها حرة، وأنى قد تزوجتها.

فقال جعفر: اشهدوا أن الثمن له أيضا.

وكتب إلى نائب له: أما بعد فقد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما أن تعدل، وإما تعتزل.

ومن أحسن ما وقع منه من التلطف فى إزالة همّ الرشيد، وقد دخل عليه منجم يهودى فأخبره أنه سيموت فى هذه السنة، فحمل الرشيد هما عظيما، فدخل عليه جعفر فسأله: ما الخبر؟

فأخبره بقول اليهودى فاستدعى جعفر اليهودى، فقال له: كم بقى لك من العمر؟ فذكر مدة طويلة.

فقال: يا أمير المؤمنين! اقتله حتى تعلم كذبه فيما أخبر عن عمره.

فأمر الرشيد باليهودى فقتل، وسرّى عن الرشيد الذى كان فيه.

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك، وذلك أنه حزن على البرامكة، ولاسيما على جعفر، كان يكثر البكاء عليهم، مث خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ بثأرهم.

وكان إذا شرب فى منزله يقول لجاريته: ائتنى بسيفى، فيسله ثم يقول: واللّه لأقتلن قاتله.

فأكثر أن يقول ذلك، فخشى ابن عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه، فأخبر الفضل الخليفة، فاستدعى به فاستخبره فأخبره، فقال: من يشهد معك عليه؟

فقال: فلان الخادم.

فجاء به فشهد، فقال الرشيد: لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصى، لعلهما قد تواطآ على ذلك.

فأحضره الرشيد معه على الشراب ثم خلا به فقال: ويحك يا إبراهيم! إن عندى سرا أحب أن أطلعك عليه، أقلقنى فى الليل والنهار.

قال: ما هو؟

قال: إنى ندمت على قتل البرامكة، وودت أنى خرجت من نصف ملكى ونصف عمرى ولم أكن فعلت بهم ما فعلت، فإنى لم أجد بعدهم لذة ولا راحة.

فقال: رحمة الله على أبى الفضل ـ يعنى: جعفرا ـ وبكى، وقال: والله يا سيدى لقد أخطأت فى قتله.

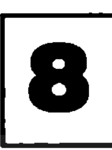
فقال له: قم لعنك الله، ثم حبسه، ثم قتله بعد ثلاثة أيام، وسلم أهله وولده.

وفى هذه السنة ١٨٧هـ غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة، واشتد غضبه بسببه على البرامكة الذين هم فى الحبوس، ثم سجنه فلم يزل فى السجن حتى مات الرشيد، فأخرجه الأمين وعقد له على نيابة الشام(١).

وذلك كما ذكرنا من قبل.

■ ■ ■

(١) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.



وفاة الرشيد المفاجئة

ـ شبهات حول وفاة الرشيد هل هى وفاة طبيعية أم اغتيال قام به طبيبه الخاص؟


FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

وفاة الرشيد المفاجئة
تثير الشبهات حول اغتياله

توفى الرشيد ـ رحمه الله ـ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره وقد أثار موته المفاجئ تساؤلات وصلت إلى الحد باتهام البعض باغتياله، والسبب هو ذلك المرض المفاجئ الذى ألم بالرشيد وهو فى طريقه للتصدى لثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار الذى ثار فيما وراء النهر فى سمرقند.

فمن المتهم الرئيسى فى قتل الرشيد وما هى أسباب قتله؟

فالمتهم الأول بقتل الرشيد هو طبيبه الخاص جبريل بن بختيشوع بن جرجس[١]، والسبب والدافع هو الثأر للبرامكة وجعفر البرمكى الذى كان صديقا مقرباً للطبيب جبريل بن بختيشوع، فقد كان عند جعفر البرمكى حين جاءه خادم الرشيد مسرور لإلقاء القبض عليه وقتله.

ومن الأدلة القوية فى اتهام بختيشوع بقتله أنه ترك الرشيد يموت دون أن يقدم له العلاج وقد بعث الرشيد يطلبه حين اشتدت علته ومرضه إلا أنه لم يحضر حتى مات الرشيد وكان الرشيد قد همَّ ليلة موته بقتله[٢].

وانتهى الأمر بالرشيد ليلة موته وعدم حضور طبيبه الخاص المشتبه فى أمره أنه دعا قصاب فأمر به ففصل أعضاءه[٣].

فهل قام ابن بختيشوع بالانتقام من الرشيد لما فعله مع البرامكة وقتله لجعفر البرمكى؟

---

(١) توفى ابن بختيشوع عام ٢١٣هـ ـ ٨٢٨م، وبعد وفاة الرشيد خدم ابنه الأمين، ودفن فى دير جرجس بالمدائن.

(٢) انظر البداية والنهاية وتاريخ الطبرى والكامل فى التاريخ.

(٣) انظر الكامل فى التاريخ ومقدمة ابن خلدون.

ذكر المؤرخون أن الطبيب بختيشوع كان يعلم مرض الرشيد وأنه سيموت منه وكتم ذلك ومما قيل عن مرضه المفاجئ أنه مرض يصيب الدم.

فأمر الرشيد رجلاً أن يأخذ ماءه فى قارورة ويذهب به إلى جبريل، فيريه إياه، ولا يذكر بول من هو، فإن سأله قال: هو بول مريض عندنا، فلما رآه جبريل.

قال لرجل عنده: هذا مثل ماء ذلك الرجل، ففهم صاحب القارورة من عنى به.

فقال له: بالله عليك أخبرنى عن حال صاحب هذا الماء، فإنَّ لى عليه مالاً، فإن كان به رجاء، وإلاَّ أخذت مالى منه.

فقال: اذهب فتخلص منه، فإنَّه لا يعيش إلاَّ أيَّاماً.

فلما جاء وأخبر الرشيد، بعث إلى جبريل فتغيب، حتى مات الرشيد، وقد قال الرشيد وهو فى هذه الحال:

إنى بطوس مقيم ... مالى بطوسٍ حميمُ

أرجو إلهى لما بى ... فإنَّه بى رحيمُ

لقد أتى بى طوساً ... قضاؤه المحتومُ

وليس إلاَّ رضائى ... والصَّبرُ والتَّسليمُ[1]

ونرى من شعر الرشيد مدى الحالة المرضية التى وصلها وكيف صار به الحال وحيداً فى طوس وكأن الجميع قد رضوا بموته!!

ولعل ما وصل إليه حال الرشيد من استسلامه للموت أنه رأى رؤيا قبل سفره هذا وقد تحققت بمقدمه إلى مدينة طوس وتلك الرؤيا رآها الرشيد فى الكوفة.

وقد أفزعته وأصابته بالكآبة حتى أن طبيبه جبريل بن بختيشوع رأى ذلك عليه فقال: مالك يا أمير المؤمنين؟

فقال: رأيت كفاً فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريرى، وقائلاً يقول: هذه

(١) انظر البداية والنهاية.

تربة هارون.

فهوَّن عليه جبريل بن بختيشوع أمرها، وقال: هذه من أضغاث الأحلام، من حديث النَّفس، فتناسها يا أمير المؤمنين.

ولما سار الرشيد إلى خراسان عام ١٩٣هـ، مرَّ بِطُوس(١) واعتلته العلَّة بها.

وذكر رؤياه، فهاله ذلك، وقال لجبريل: ويحك! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا؟

فقال: بلى.

فدعا مسروراً الخادم وقال: ائتنى بشىء من تربة هذه الأرض.

فجاءه بتربة حمراء فى يده، فلما رآها قال: والله هذه الكف التى رأيت، والتربة التى كانت فيها.

قال جبريل: فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفى.

وقد أمر بحفر قبره قبل موته فى الدار التى كان فيها، وهى دار حميد بن أبى غانم الطَّائى، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول: يا ابن آدم تصير إلى هذا، ثم أمر بأن يقرأوا القرآن فى قبره، فقرأوه حتى ختموه، وهو فى محفة على شفير القبر.

ولما حضرته الوفاة احتبى بملاءة، وجلس يقاسى سكرات الموت، فقال له بعض من حضر: لو اضطجعت كان أهون عليك. فضحك ضحكاً صحيحاً ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

وإنى من قَوْمٍ كرام يزيدهم   شماساً وصبراً شدة الحدثان(٢)

ومما قاله عندما حضره الموت: «اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت، ارحم من يموت»(٣)، وقال:

---

(١) طوس مدينة بإيران بالقرب من مدينة نيسابور وهى من ضواحى مدينة مشهر الإيرانية.

(٢) انظر البداية والنهاية ـ مصدر سابق.

(٣) انظر تاريخ بغداد ـ مصدر سابق.

إنَّ الطبـــيب بطبـــه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور القضا

مـا للطَّبـيب يموت بالدَّاء الَّذى قد كان يشفى مثله فيما مضى[1]

وهكذا توفى الرَّشيد «بطوس»، ليلة السبت لأربع خلون من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وتسعين ومئة، ودفن بقرية يقال لها (سناباذ)[2]، وصلَّى عليه ابنه صالح.

وكان عمره خمساً وأربعين سنة ومدة حكمة ثلاثاً وعشرين سنة رحمه اللّه.

ولا ننسى أن أطباء الملوك من غير المسلمين قد قاموا بعمليات اغتيالات وخاصة مع الملوك العظام الذين حققوا إنجازات وفتوحات كبيرة مثل السلطان العثمانى محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية فلا يستبعد أن يكون موت الرشيد مدبراً من قبل أعدائه من البرامكة أو غيرهم من النصارى، واللّه أعلم.

وكان الرشيد حين حضرته الوفاة يقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩).

وقيل إنه لما احْتُضِر قال: اللهم انفعنى بالإحسان واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت أرحم من يموت[3].

قال ابن الجوزى: وقد خلف الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف «أى مائة مليون» دينار وخمسة وثلاثون ألف دينار.

وقال ابن جرير: وكان فى بيت المال سبعمائة ألف ألف ونيف «أى ٧٠٠ مليون» بقيمة العملة وقتها[4].

---

(١) مروج الذهب للمسعودى.

(٢) ولا يوجد الآن أثر لقبر الرشيد فقد هدم التتار مدينة طوس القديمة وطوس الجديدة بنيت بالقرب منها وهى من ضواحى مشهر حيث يوجد مقام الإمام الرضا أحد أئمة آل البيت ويوجد فى طوس قبر الإمام الغزالى حجة الإسلام.

(٣)، (٤) البداية والنهاية ـ مصدر سابق.



صراع الأخوين الأمين والمأمون

بعد وفاة الرشيد:

- صراع الأخوين الأمين والمأمون يجدد الصراع بين العرب وجيرانهم.
- أسباب الاختلاف وبدايته ونهايته بمقتل الأمين وانتقال السلطة والخلافة للمأمون.


مجلة
FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

صراع الأخوين الأمين والمأمون يجدد الصراع بين الفرس والعرب

سقط محمد الأمين ضحية نظام ولاية العهد الثنائى، الذى ذهب ضحيته الخليفة الأموى الوليد وكانت النتيجة واحدة فى الحالتين حيث حياة قلقة مضطربة لخليفة مضطهد، تنتهى بصورة درامية مفزعة بحز رأسه، ثم لا يبقى من ذكراه سوى سطور مبهمة وأقوال متضاربة فى سجل التاريخ، وقد تكرر هذا الأمر فى الخلافتين الأموية والعباسية والأنظمة الملكية قديماً وحديثاً فكيف حدث ذلك الصراع بين الأخوين وتتطور إلى صراع بين الفرس والعرب؟!

ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد سنة (١٧٠هـ = ٧٨٦م)، وهى السنة نفسها التى استخلف فيها أبوه الرشيد، وكان مولده عقب مولد أخيه المأمون بنحو ستة أشهر، وكان المأمون قد ولد فى الليلة التى استُخلف فيها الرشيد.

وأم الأمين هى «زبيدة بنت جعفر بن المنصور»، بينما كانت أم أخيه المأمون جارية فارسية تُدعى «مراجل»، ما لبثت أن تُوفيت بعد أيام من ولادته متأثرة بحُمّى النفاس.

نشأ الأمين فى ظلال بيت ترف عليه أبهاء الخلافة وجلالها، يرفل فى النعيم والسعادة، وينعم بطفولة مرحة سعيدة، ويتمتع برعاية أمه زبيدة، وقد اجتمع له ما لا يجتمع لأحد من أبناء الخلفاء، فقد كان هاشمى الأبوين، كما جمع بين سلطان أبيه، وجاه أخواله، وثراء أمه.

واتخذ له أبوه المربين والمعلمين لتأديبه وتعليمه، وكان ممن اختارهم «قطرب» النحوى، و«حماد عجرد» راوية العرب الشهير، ورغم هذا زعم بعض المؤرخين أنه أرعن وليس أهلاً للخلافة وانشغاله باللعب واللهو.

فقد عُرف الأمين منذ حداثة سنه بتوقد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح، وكان سريع البديهة، حاضر الجواب، ظريف النكتة، حلو التندر، لطيف الدعابة، كما

كان سخيا، ويصفه الكثيرون بأنه كان مسرفاً فى السخاء.

ذكر الطبرى وغيره أخباراً ترميه بالسفه والجهل والإهمال، وهو ما لا يقبله العقل، ولا يتفق مع ما عُرف به الرشيد من الحكمة والحزم حتى يجعل أمر المسلمين من بعده لسفيه أو أحمق ويترك من هو أحق وأصلح منه، فقد تم أخذ البيعة للأمين وهو فى الخامسة من عمره بناء على وصية أمه زبيدة وأخواله.

ثم جعل ولاية العهد للمأمون بعد أخيه الأمين ثم ابنه الثالث القاسم.

ولعل رغبة أمراء البيت العباسى واجتماعهم على تولية الأمين كانت وراء نزول الرشيد على رأيهم، وتحقيق تلك الرغبة التى اجتمعوا عليها.

وكانت حجتهم فى ذلك أن الأمين هاشمى الأبوين، وأن ذلك لم يجتمع لغيره من خلفاء بنى العباس، وكان يؤجج تلك الرغبة كرههم لـ «آل برمك» الذين استأثروا بالرشيد، ونالوا لديه حظوة ومكانة كبيرة.

استدعى الرشيد الأمراء والقواد ورجال الحاشية، وطلب الفقهاء ليُشهدهم على قراره الخطير الذى عقد عليه العزم، وهو البيعة لابنه الثانى «محمد الأمين». (٦ من شعبان ١٧٥هـ = ٨ من ديسمبر ٧٩١م) عقد الرشيد مجلس البيعة، وأخذت لمحمد البيعة، ولقبه أبوه بـ «الأمين»، وولاه فى الحال على بلاد الشام والعراق، وجعل ولايته تحت إدارة مربيه «الفضل بن يحيى البرمكى».

وبالرغم من عدم معارضة البرامكة فى مسألة ولاية عهد الرشيد لابنه الأمين وسعيهم ـ فى أول الأمر ـ إلى تزكية هذا الاختيار وتزيينه للرشيد ودفعهم له إلى إتمامه، إلا أنهم ما لبثوا أن شعروا بأنهم أساءوا الاختيار، وخصوصاً عندما أصبح الأمين شابًا يافعاً، وبعد ظهور نفوذ أمه «زبيدة»، التى أصبحت تنقم على البرامكة ما صاروا إليه من النفوذ والسلطان فى بلاط الرشيد، وتسعى إلى استقطاب العنصر العربى فى مواجهة تصاعد النفوذ العجمى ممثلاً فى البرامكة، وتفاقم الصراع الذى اتخذ صورة قومية داخل البلاط بين العرب والعجم.

عندئذ بدأ البرامكة يعيدون النظر فى مسألة ولاية العهد، فاستخدموا

نفوذهم، واستغلوا قربهم من الرشيد ومنزلتهم عنده فى إيجاد منافس للأمين وأمه زبيدة، ووجدوا بغيتهم فى شخص «المأمون» الأخ الأكبر، خاصة أن أمه أعجمية.

واستطاع البرامكة أن يجعلوا الرشيد يعقد البيعة لولده «عبدالله المأمون»، على أن تكون ولاية العهد له من بعد أخيه الأمين، وذلك فى سنة (١٨٢هـ = ٧٩٨م)، بعد مضى نحو ثمانى سنوات من بيعته الأولى للأمين.

وأخذ «الرشيد» على ولديه «الأمين» و«المأمون» المواثيق المؤكدة، وأشهد عليهما، ثم وضع تلك البيعة فى حافظة من الفضة، وعلقها فى جوف الكعبة.

بعد ذلك بأربعة أعوام فى سنة (١٨٦هـ = ٨٠٢م) عقد الرشيد ولاية العهد لابنه «القاسم» من بعد أخويه، ولقبه بـ «المؤتمن».

تولى الأمين الخلافة وعمره ثلاث وعشرون سنة، ولكن لم تتم له البيعة إلا فى (منتصف جمادى الآخرة ١٩٣هـ = ٤ من إبريل ٨٠٩م)، وذلك عقب إعلان وفاة الرشيد فى طوس.

وقد أدى تولى الأمين الخلافة إلى إثارة الفتنة بينه وبين أخيه المأمون، ومما زكّى نار هذه الفتنة وقوع التنافس بين رجلين قويين كان أحدهما الوزير «الفضل بن الربيع»، الذى يسيطر على الأمين، والآخر هو «الفضل بن سهل»، الذى يسيطر على المأمون، بالإضافة إلى اتخاذ العنصر العربى والعجمى من ابنى الرشيد رمزاً للصراع بين العرب والعجم، والتفاف كل فريق حول صاحبه.

واستطاع الفضل بن الربيع إقناع الأمين بعزل أخيه المأمون من ولاية العهد، وأن يجعلها فى ابنه «موسى بن الأمين»، ثم ما لبث أن خلع أخاه المؤتمن من ولاية العهد.

ومن ناحية أخرى عمل الفضل بن سهل على توسيع هوة الخلاف بين الأخوين، وحرص المأمون على الاستقلال بخراسان.

وأعلن الأمين البيعة بولاية العهد لابنه موسى وسماه «الناطق بالحق»، وأمر بالدعاء له على المنابر بعده، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن. وبذلك يكون قد نكث عما أخذه عليه أبوه الرشيد من عهود ومواثيق.

وقد أثار موقف الأمين من أخيه غضب أهل خراسان، فانحازوا إلى المأمون ضد أخيه، وكان على رأس المؤيدين «هرثمة بن أعين» قائد الجند، و«طاهر بن الحسين» الذى خرج على رأس جيش كبير معظمه من الفرس من خراسان. وفى المقابل جهز الأمين جيشاً مكونا من ثمانين ألف مقاتل معظمهم من عرب البادية، وجعل عليه «على بن عيسى»، وكان يكره أهل خراسان، لأنهم دسوا عليه عند الرشيد، فعزله من ولاية خراسان وحبسه، حتى أطلقه الأمين واتخذه قائداً لجيشه.

والتقى الجيشان على مشارف «الرى»، ودارت بينهما معركة عنيفة، كان النصر فيها حليفا لجيش المأمون بقيادة «طاهر بن الحسين»، وقُتل «على بن عيسى» قائد جيش الأمين.

وأعلن طاهر بن الحسين خلع الأمين، ونادى بالبيعة للمأمون بالخلافة، فأرسل الأمين جيشاً آخر قوامه عشرون ألف مقاتل، وجعل على رأسه «عبد الرحمن بن جبلة الأبنادى»، لكنه لقى هزيمة منكرة وقُتل الكثير من جنوده، وما لبث أن قُتل.

وأرسل الأمين جيشاً ثالثاً بقيادة «أحمد بن مزيد» على رأس أربعين ألف مقاتل من عرب العراق، ولكن طاهر بن الحسين استطاع أن يبث جواسيسه داخل الجيش فأشاعوا الفرقة بين قواده وجنوده حتى اقتتلوا وانسحبوا عائدين قبل أن يلقوا خصومهم.

ولم يستطع الأمين أن يجهز جيشاً آخر لملاقاة أهل خراسان، بعد أن رفض الشاميون السير معه، وانضم عدد كبير من جنوده وأعوانه إلى خصومه، وفر كثير منهم إلى المدائن.

وقد سادت الفوضى والاضطراب «ببغداد» عاصمة الخلافة، حتى قام «الحسين بن على بن عيسى بن ماهان» بانقلاب ضد الأمين، وأعلن خلعه من الخلافة، وحبسه هو وأمه زبيدة فى قصر المنصور فى (رجب ١٩٦هـ = مارس ٨١٢م)، وأعطى بيعته للمأمون، لكن فريقاً من أنصار الأمين استطاعوا تخليصه من الأسر، وأعادوه إلى قصر الخلافة.

وتقدم جيش المأمون نحو بغداد فحاصرها خمسة عشرا شهراً، وضربها

بالمجانيق حتى أصيبت بأضرار بالغة، وتهدمت أسوارها، وأصابها الخراب والدمار، وسادت فيها الفوضى، وعمت المجاعات حتى اضطر الأمين إلى بيع ما فى خزائنه للإنفاق على جنوده وأتباعه.

وسقطت بغداد فى أيدى المأمون وجنوده وقبض على الأمين وهو يطلب الأمان وقطعت رأسه وقدمت للمأمون وانتهت خلافة الأمين التى استمرت نحو خمس سنوات من المشاكل والاضطرابات.

وهكذا ساد العجم على دولة الخلافة وحدثت الفتنة الكبرى المعروفة بفتنة «خلق القرآن» التى أثارها المأمون فى الأمة الإسلامية.

أسباب الاختلاف وبدايته بين الأخوين

يقول ابن كثير: كان السبب فى ذلك أن الرشيد لما وصل إلى أول بلاد خراسان وهب جميع ما فيها من الحواصل والدواب والسلاح لولده المأمون، وجدد له البيعة، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتمر بكتب فى خفية ليوصلها إلى الأمراء إذا مات الرشيد.

فلما توفى الرشيد نفذت الكتب إلى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين.

وارتحل الفضل بن الربيع بالجيش إلى بغداد وقد بقى فى نفوسهم تحرج من البيعة التى أخذت للمأمون، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه، فوقعت الوحشة بين الأخوين، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين.

فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم، وبعث إليه من هدايا خرسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك، وهو نائبه عليها، وقد أمر الأمين فى صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصيد، فقال فى ذلك بعض الشعراء: ـ

بنى أمين الله ميدانا ... وصير الساحة بستانا

وكانت الغزلان فيه بانا ... يهدى إليه فيه غزلانا

وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والرى وغير ذلك، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة من الهجرة وفيها: فى صفر منها أمر الأمين الناس ألا يتعاملوا بالدراهم والدنانير التى عليها اسم أخيه المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر، وأن يدعى له ولولده من بعده وفيها تسمى المأمون: بإمام المؤمنين.

وفى ربيع الآخر فيها: عقد الأمين لعلى بن عيسى بن ماهان الإمارة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم وتلك البلاد، وأمره بحرب المأمون وجهز معه جيشاً كبيراً، وأنفق فيهم نفقات عظيمة، وأعطاه مائتى ألف دينار، ولولده خمسين ألف دينار وألفى سيف محلى، وستة آلاف ثوب للفلع فخرة على بن عيسى بن ماهان من بغداد فى أربعين ألف مقاتل فارس، ومعه قيد من فضة ليأتى فيه بالمأمون.

وخرج الأمين معه مشيعا فسار حتى وصل الرى فتلقاه الأمير طاهر فى أربعة آلاف، فجرت بينهم أمور آل الحال فيها أن اقتتلوا، فقتل على بن عيسى وانهزم أصحابه وحمل رأسه وجثته إلى الأمير طاهر، فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذى الرياستين.

وكان الذى قتل على بن عيسى رجل يقال له: طاهر الصغير، فسمى: ذا اليمينين، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتين فذبح به على بن عيسى بن مهان، ففرح بذلك المأمون وذووه.

وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة فقال: ويحك! دعنى من هذا فإن كوثرا قد صاد سمكتين، ولم أصد بعد شيئا.

وأرجف الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخى المأمون، وما وقع من الأمر الفظيع.

وكان رجوع الخبر إليه فى شوال من هذه السنة.

ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى فى عشرين ألفا من المقاتلة إلى همذان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية، فلما اقتربوا منهم تواجهوا فتقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى بينهم، ثم انهزم أصحاب

عبدالرحمن بن جبلة فلجأوا إلى همذان فحاصرهم بها طاهر حتى اضطرهم إلى أن دعوا إلى الصلح، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم، وانصرف عبدالرحمن بن جبلة على أن يكون راجعا إلى بغداد.

ثم غدروا بأصحاب طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون فقتلوا منهم خلقا، وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا إليهم وحملوا عليهم فهزموهم وقتل أميرهم عبدالرحمن بن جبلة، وفر أصحابه خائبين فلما رجعوا إلى بغداد اضطربت الأمور وكثرت الأراجيف، وكان ذلك فى ذى الحجة من هذه السنة، وطرد طار عمال الأمين عن قزوين وتلك النواحى، وقوى أمر المأمون جدا بتلك البلاد.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة للهجرة وفيها: وجه الأمين أحمد بن يزيد وعبدالله بن حميد بن قحطبة فى أربعين ألفا إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين من جهة المأمون، فلما وصلوا إلى قريب من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقا، وجعل يعمل الحيلة فى إيقاع الفتنة بين الأميرين، فاختلفا فرعا ولم يقاتلاه، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين، وأن يتوجه هو إلى الأهواز، ففعل ذلك.

وفيها: رفع المأمون وزيره الفضل بن سهل وولاه أعمالا كبارا وسماه: ذا الرياستين.

وفيها: ولى الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح بن على - وقد كان أخرجه من سجن الرشيد - وأمره أن يبعث له رجالا وجنودا لقتال طاهر وهرثمة.

فلما وصل إلى الرقة أقام بها، وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة، فقدم عليه منهم خلق كثير، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس، ومات عبد الملك بن صالح هنالك، فرجع الجيش إلى بغداد صحبة الحسين بن على بن ماهان، فتلقاه أهل بغداد بالإكرام، وذلك فى شهر رجب من هذه السنة.

فلما وصل جاء رسول الأمين يطلبه فقال: والله ما أنا بمسامر ولا مضحك، ولا وليت له عملا، ولا جبى على يدى مالا، فلماذا يطلبنى فى هذه الليلة[1].

(١) البداية والنهاية - لابن كثير.

أما سبب خلع الأمين وكيف أفضت الخلافة إلى أخيه المأمون، يقول ابن كثير:

لما أصبح الحسين بن على بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الشام قام فى الناس خطيبا وألبهم على الأمين، وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصى، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حالة، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس، ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه، وندبهم لذلك، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير.

وبعث محمد الأمين إليه خيلاً فاقتتلوا مليا من النهار، فأمر الحسين أصحابه بالترجل إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرماح، فانهزم جيش الأمين وخلعه وأخذ البيعة لعبد الله المأمون، وذلك يوم الأحد الحادى عشر من شهر رجب من هذه السنة.

ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبى جعفر وسط بغداد، وضيق عليه وقيده واضطهده، وأمر العباس بن عيسى بن موسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فضربها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها.

فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن على أعطياتهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين: فرقة مع الأمين، وفرقة عليه.

فاقتتلوا قتالا شديدا فغلب حزب الخليفة أولئك، وأسروا الحسين بن على بن عيسى بن ماهان وقيدوه ودخلوا به على الخليفة ففكوا عنه قيوده وأجلسوه على سريره، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحا من الخزائن، فانتهب الناس الخزائن التى فيها السلاح بسبب ذلك.

وأمر الأمين فأتى بالحسين بن على بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك، فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه الخاتم وولاه ما وراء بابه، وولاه الحرب وسيَّره إلى حلوان.

فلما وصل إلى الجسر هرب فى حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من يرده، فركبت الخيول وراءه فأدركوه فقاتلهم فقتلوه لمنتصف رجب وجاءوا برأسه إلى الأمين، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة.

ولما قتل الحسين بن على بن عيسى هرب الفضل بن الربيع الحاجب، واستحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد للمأمون، واستناب بها النواب، وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون، ودنا طاهر إلى المدائن فأخذها مع واسط وأعمالها، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك، ولم يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل.

وفى شعبان منها: عقد الأمين أربعمائة لواء مع كل لواء أمير، وبعثهم لقتال هرثمة، فالتقوا فى شهر رمضان فكسرهم هرثمة وأسر مقدمهم على بن محمد بن عيسى بن نهيك، وبعث به إلى المأمون وهرب جماعة من جند طاهر فساروا إلى الأمين بأعطاهم أموالا كثيرة، وأكرمهم وغلف لحاهم بالغالة فسموا: جيش الغالية.

ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشا كثيفا لقتال طاهر فهزمهم طاهر وفرق شملهم، وأخذ ما كان معهم.

واقترب طاهر من بغداد فحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجند حتى تفرقوا شيعا، ثم وقع بين الجيش وتشعبت الأصاغر على الأكابر واختلفوا على الأمين فى سادس ذى الحجة، فقال بعض البغادرة:

قل لأمين الله فى نفسه	ما شتت الجند سوى الغاليه
وطاهر نفسى فدا طاهر	برسله والعدة الكافيه
أضحى زمام الملك فى كفه	مقاتلا للفئة الباغيه
يا ناكثا أسلمه نكثه	عيوبه فى خبثه فاشيه
قد جاءك الليث بشدَّاته	مستكلبا فى أسد ضاريه
فاهرب ولا مهرب من مثله	إلا إلى النار أو الهاويه

فتفرق على الأمين شمله، وحار فى أمره وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة، واشتد

الحال على أهل البلد وأخاف الدعارُ والشطارُ أهل الصلاح، وخربت الديار، وثارت الفتنة بين الناس، حتى قاتل الأخ أخاه للأهواء المختلفة، والابن أباه، وجرت شرور عظيمة، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل داخل البلد.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة للهجرة واستُهِلَّت هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ومن معهما فى حصار بغداد والتضييق على الأمين، وهرب القاسم بن الرشيد وعمه منصور بن المهدى إلى المأمون فأكرمهما، وولى أخاه القاسم جرجان، واشتد حصار بغداد ونصب عليها المجانيق والعرَّادات.

وضاق الأمين بهم ذرعا، ولم يبق معه ما ينفق فى الجند، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير، وهرب كثير من جنده إلى طاهر، وقتل من أهل البلد خلق كثير، وأخذت أموال كثيرة منهم.

وبعث الأمين إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأماكن ومحال كثيرة فحرقها بالنار لما رأى فى ذلك من المصلحة فعل كل هذا فرارا من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم، وقتل وخربت دياره وفعل طاهر مثل ما فعل الأمين حتى كادت بغداد تخرب بكمالها، فقال بعضهم فى ذلك:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكونى زمانا قرة العين

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زينا من الزين

صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين

استودع الله قوما ما ذكرتهم ... إلا تحدَّر ماء العين من عينى

كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

واستحوذ طاهر على ما فى الضياع من الغلال والحواصل للأمراء وغيرهم، ودعاهم إلى الأمان والبيعة للمأمون فاستجابوا جميعهم، منهم: عبدالله بن حميد بن قحطبة، ويحيى بن على بن ماهان، ومحمد بن أبى العباس الطوسى، وكاتبه خلق من الهاشمين والأمراء، وصارت قلوبهم معه.

واتفق فى بعض الأيام أن ظفر أصحاب الأمين ببعض أصحاب طاهر فقتلوا منهم طائفة عند قصر صالح، فلما سمع الأمين بذلك بطر وأشر وأقبل على اللهو والشرب واللعب، ووكل الأمور وتدبيرها إلى محمد بن عيسى بن نهيك.

ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأمين جدا، وانحاز الناس إلى جيش طاهر - وكان جانبه آمنا جدا لا يخاف أحد فيه من سرقة ولا نهب ولا غير ذلك - وقد أخذ طاهر أكثر محال بغداد وأرباضها، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاما إلى من خالفه، فغلت الأسعار جدا عند من خالفه، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك، ومنعت التجار من القدوم إلى بغداد بشىء من البضائع أو الدقيق، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها.

وجرت بين الفريقين حروب كثيرة، فمن ذلك:

وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأمين، قتل فيها خلق من أصحاب طاهر، كان الرجل من العيَّارين والحرافشة من البغادد يأتى عريانا ومعه بارية مقيرة، وتحت كتفه مخلاة فيها حجارة، فإذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاه بباريته فلا يؤذيه، وإذا اقترب منه رماه بحجر فى المقلاع أصابه، فهزموهم لذلك.

ووقعة الشماسية أسر فيها هرثمة بن أعين، فشق ذلك على طاهر وأمر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم، واسترد منهم هرثمة وجماعة ممن كانوا أسروهم من أصحابه، فشق ذلك على من الأمين وقال فى ذلك:

منيت بأشجع الثقلين قلبا ... إذا ما طال ليس كما يطول

له مع كل ذى بدد رقيب ... يشاهده ويعلم ما يقول

فليس بمغفل أمرا عنادا ... إذا ما الأمر ضيَّعه الغفول

وضعف أمر الأمين جدا ولم يبق عنده مال ينفقه على جنده ولا على نفسه، وتفرق أكثر أصحابه عنه، وبقى مضطهدا ذليلا.

ثم انقضت هذه السنة بكمالها والناس فى بغداد فى قلاقل وأهوية مختلفة، وقتال وحريق، وسرقات، وساءت بغداد فلم يبق فيها أحد يرد عن أحد كما هى عادة الفتن.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة فيها: خامر خزيمة بن خازم على محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر.

ودخل هرثمة بن أعين من الجانب الشرقى.

وفى يوم الأربعاء: لثمان خلون من المحرم وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن على بن عيسى على جسر بغداد فقطعاه ونصبا رايتهما عليه.

ودعوا إلى بيعة عبدالله المأمون وخلع محمد الأمين، ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقى فباشر القتال بنفسه، ونادى بالأمان لمن لزم منزله.

وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما وقعات، وأحاطوا بمدينة أبى جعفر والخلد وقصر زبيدة، ونصبت المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة، ورماه بالمنجنيق.

فخرج الأمين بأمه وولده إلى مدينة أبى جعفر، وتفرق عنه عامة الناس فى الطريق، لا يلوى أحد على أحد، حتى دخل قصر أبى جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمى المنجنيق، وأمر بتحريق ما كان فى من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك، ثم حصر حصرا شديدا.

ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه على الهلاك خرج ذات ليلة فى ضوء القمر إلى شاطئ دجلة واستدعى بنبيذ وجارية فغنته فلم ينطلق لسانها إلا بالفراقيات وذكر الموت، وهو يقول: غير هذا، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته:

أما وربِّ السكون والحرك ... إن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء فى الفلك

إلا لنقل السلطان من ملك ... قد انقضى ملكه إلى ملك

وملك ذى العرش دائم أبدا ... ليس بفان ولا بمشترك

قال: فسبها وأقامها من عنده فعثرت فى قدح كان له بلور فكسرته فتطيَّر بذلك.

ولما ذهبت الجارية سمع صارخا يقول: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١).

فقال لجليسه: ويحك! ألا تسمع، فتسمع فلا يسمع شيئا، ثم عاد الصوت بذلك.

فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل فى رابع صفر يوم الأحد، وقد حصل له من الجهد والضيق فى حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق له طعام يأكله ولا شراب، بحيث إنه جاع ليلة فما أتى برغيف ودجاجة إلا بعد شدة عظيمة، ثم طلب ماء فلم يوجد له فبات عطشانا، فلما أصبح قتل قبل أن يشرب الماء.

وسبحان المعز المذل من بيده الملك هكذا يؤدى الصراع على السلطة والملك.

لما اشتد به الأمر اجتمع عنده من بقى معه من الأمراء والخدم والجند، فشاورهم فى أمره فقالت طائفة: تذهب بمن بقى معك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال وتستخدم الرجال.

وقال بعضهم: تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أمانا وتبايع لأخيك، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمر لك بما يكفيك ويكفى أهلك من أمر الدنيا، وغاية مرادك الدعة والراحة، وذلك يحصل لك تاما.

وقال بعضهم: بل هرثمة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فإنه مولاكم وهو أحنى عليك، فما إلى ذلك.

فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخرة واعد هرثمة أن يخرج إليه، ثم لبس ثياب الخلافة وطيلسانا واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال: أستودعكما الله، ومسح دموعه بطرف كمه، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة.

فلما انتهى إلى هرثمة أكرمه وعظمه وركبا فى حراقة فى دجلة، وبلغ هذا كله طاهرا فغضب من ذلك وقال: أنا الذى فعلت هذا كله ويذهب لغيرى، وينسب هذا كله إلى هرثمة؟

فلحقهما وهما فى الحراقة فأمالها أصحابه فغرق من فيها، غير أن الأمين سبح إلى الجانب الآخر وأسره بعض الجند

وجاء فأعلم طاهرا فبعث إليه جندا من العجم فجاؤوا إلى البيت الذى هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له: ادن منى فإنى أجد وحشة شديدة.

وجعل يلتف فى ثيابه شديدا، وقلبه يخفق خفقانا عظيما، كاد يخرج من صدره.

فلما دخل عليه أولئك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول: ويحكم! أنا ابن عم رسول الله، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله فى دمى.

فلم يلتفتوا إلى شىء من ذلك، بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه، وذهبوا برأسه إلى طاهر، وتركوا جثته، ثم جاؤوا بكرة إليها فلفوها فى جلٍّ فرس وذهبوا بها.

وذلك ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر سنة ١٩٨هـ[١].

وهكذا انتقلت الخلافة إلى المأمون وكان عصره قد شهد أسوأ فتنة فى تاريخ الإسلام وهى فتنة خلق القرآن التى قتل فيها الكثير من العلماء وعذب فيها العالم الكبير وصاحب المذهب أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ وكان بداية الاستيلاء على الخلافة فى العصر العباسى بالسيف قد بدأ بما فعله المأمون مع أخيه الأمين لم ينته وتكرر ذلك فى مدة الدولة العباسية.

■ ■ ■

(١) المصدر السابق.

10

كلمة أخيرة

الرشيد المفترَى عليه


مجلة
الابتسامة
FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

هارون الرشيد
الخليفة المفترى عليه

هارون الرشيد حاكم مسلم لإمبراطورية إسلامية كبرى وهو رجل سياسة وحكم نشأ فى بيت خلفاء وحكام أى فى بيت ملك.

وقد أعده أبوه الخليفة المهدى ليتولى المناصب القيادية وأن يكون خليفة وقد خرج فى عهد أبيه وهو صغير السن كقائد عسكرى بحملة عسكرية لقتال الروم وعاد منتصراً فجعله أبوه ولياً للعهد بعد أخيه.

فالرشيد فى فترة حكمه أصاب وأخطأ ولكنه حقق المجد والعزة والكرامة لشعبه وظل يحارب الروم ويأخذ منهم الجزية، وهذا دليل قوة وسيطرة، وقد كتب على قلنسوته (غاز وحاج).

واستطاع الرشيد تنظيم الثغور وهى البلاد المطلة على بلاد الروم على نحو لم يعرفه أحد من قبله عمرها بالجند وزاد فى تحصيناتها وجعل منطقة الجزيرة وقنسرين منطقة واحدة بعيدة عن الثغور وجعل عاصمتها أنطاكية وأطلق عليها العواصم كى تكون الخط الثانى للثغور الملاصقة لبلاد الروم وكان يولى عليها أقرب الأقربين.

واستطاع الرشيد أن يعيد للأسطول الإسلامى مجده وقوته ونشاطه ليواصل ويدعم جهاده مع الروم ويسيطر على الملاحة فى البحر المتوسط وأقام مصنعا لصناعة السفن بل إنه فكر فى حفر قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط واستطاع الأسطول الإسلامى فتح جزيرة رودس عام ١٧٥هـ وأغار على جزيرة قبرص عام ١٩٠هـ مما جعل الروم تطلب الصلح من الرشيد وتدفع الجزية.

لقد ذاع صيت الرشيد فى الآفاق من شرق الكرة الأرضية إلى غربها حتى أرسلت بلاد الهند والصين أن تطلب وده وصداقته كما فعل شارلمان ملك الفرنجة وقد أهدى الرشيد لشارلمان ساعة كبيرة من البرونز المطلى بالذهب صنعت فى بغداد وكانت

أعجوبة زمانه أدهشت ملك الفرنجة وحاشيته حيث ظنوا أنها ضرب من السحر.

لقد كان عصر الرشيد من أزهى العصور الإسلامية رغم ما فيه من مساوئ توجد في كل العصور، إلا أن البعض من أعداء الرشيد والإسلام يصورون الرشيد على أنه ملك ألف ليلة وليلة يجلس في مجلسه ويشرب الخمور ويحيط به الجوارى والغلمان والراقصات والمغنيات حتى قال بعضهم إن الرشيد مزدوج الشخصية مريض بالإنفصام.

وكانت الاتهامات الموجه إلى الرشيد أنه كان يشرب الخمور وأنه سمَّاع للغناء، وأنه مزدوج الشخصية.

ومن الكتب التى أساءت إلى الرشيد كتاب ألف ليلة وليلة والأغانى للأصفهانى وكتاب أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس للإتليدى وكذلك كتاب ضحى الإسلام لأحمد أمين وكتاب العقد الفريد لابن عبد رَبِّه فهل كان الرشيد يشرب الخمر حتى الثمالة؟

بالطبع لم يشرب الرشيد الخمر وإنما شرب النبيذ الحلال[1] وهذا ما ذكرته كتب المؤرخين وليس كتب الأدب التى ذكرنا مثل الأغانى وألف ليلة وليلة، فالرشيد كان يشرب النبيذ غير المسكر والذى يرفض بشربه فقهاء العراق أصحاب المذاهب ذكر الشيخ محمد الخضرى فى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية» أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذى يرفض أهل العراق فى شربه وهذا ما اشتهر به الرشيد.

وهناك فرق بين النبيذ الذى أباحه الأصناف والنبيذ المسكر «الخمر».

فالخمور مصنوعة من سوائل يتم تخميرها من الحبوب والفاكهة.

والنبيذ فهو الذى يؤخذ من ماء الزبيب إذا طبخ ويحل شربه ما دام حلواً، أما إذا غلا واشتد وقذف بالزيد يحل شربه ما دون السكر عن أبى حنيفة وأبى يوسف[2].

(١) تمرات أو زبيب تنبذ فى الماء ويشرب من مائها.

(٢) انظر بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ـ للكاسانى.

وقد نفى الجاحظ اتهام الرشيد بشرب الخمر فقال: من أخبرك أنه رآه قط يشرب إلا الماء فكذبه وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه(١).

فقد جاء فى كتاب (بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع)، للإمام علاء الدين الكاسانى الملقَّب بملك العلماء: «وما يتخذ من الزبيب شيئان: نقيع ونبيذ، فالنقيع أن ينقع الزبيب فى الماء أياماً حتى تخرج حلاوته إلى الماء، ثم يطبخ أدنى طبخ، فمادام حلواً يحل شربه، وإذا غلا واشتد وقذف بالزبد يحرم - أى تخمَّر -، وأما النبيذ فهو الذى يؤخذ من ماء الزبيب إذا طُبخ أوفى طبخ، يحل شربه مادام حلواً، فإذا غلا واشتد وقذف بالزبد يحل شربه ما دون السكر عند أبى حنيفة وأبى يوسف، وعند محمد والشافعى لا يحل شربه».

كما يحل عند أبى حنيفة وصاحبه أبى يوسف شرب نبيذ التمر مادام حلواً ويحرم إذا أسكر، وكذلك الشراب المتخذ من حل العسل بالما دون تخمر، وكذلك الأشربة المتخذة من الشعير والدخن والذرة والتين والسكر، وأبو حنيفة يجيز الوضوء بالنبيذ عند انعدام الماء، عن على عن النبى ﷺ: «نبيذ التمر وضوء من لم يجد الماء».

فقد كان شرب الرشيد النبيذ بعرف زمانهم لا نبيذ هذا الزمان، ولقد تنبه لذلك العلامة ابن خلدون فقال: لم يعاقر الرشيد الخمر لأنه كان يصحب العلماء والأولياء، ويحافظ على الصلوات والعبادات ويصلى الصبح فى وقته، ويغزو عاماً ويحج عاماً، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاواهم فيه معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، ولا تقليد الأخبار الواهية بها، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملة.

وقال ابن حزم عن الرشيد أيضاً: أراه كان يشرب النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المتفق على حرمتها(٢).

أضف إلى ذلك أن العلماء الأتقياء، والأولياء النصحاء، كالفضيل بن عياض،

---

(١) انظر التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبى.

وأبى يوسف، والإمام مالك لم ينبهوا الرشيد ولو مرة واحدة إلى ارتكابه الحرام، كشرب الخمر مثلاً، لقد كانت نصائحهم كلها عامة، لقاء الله، الخشية من الله، ذكر الموت والدار الآخرة، الزهد فى الملك، ولو وجد خمر مسكر فى حياة الرشيد لنبهه لذلك الفضيل، أو أبو يوسف، أو أبو العتاهية، أو الإمام مالك، أو الكسائى، أو أبومعاوية الضرير.

وقد خالف فقهاء العراق جمهور العلماء فى تحليل النبيذ، ولهم أدلتهم وحججهم المبسوطة فى كتب الفقه، ومن هؤلاء العلماء الذين لا يرون بأسا بشربة: إبراهيم النخعى، وسفيان الثورى، وابن أبى ليلى، وشريك، وابن شبرمة، وسائر فقهاء الكوفيين،و وأكثر علماء البصريين، وأبى حنيفة، فإهم قالوا: بتحريم القليل والكثير من الخمر التى هى من عصير العنب، أما ما كان من الأنبذة من غير العنب، فإنه يحرم الكثير منه، أما القليل الذى لا يسكر فإنه حلال[1].

يقول ابن خلدون رحمه الله: وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان، فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة؟ من الدين والعدالة؟ وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء؟ ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك، والعمرى وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة فى طوافه؟ وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها؟

وأما سماع الرشيد لغناء الجوارى، فهو أمر واقع هده عصر الرشيد وكل العصور السابقة واللاحقة عليه، والجوارى هن إماء مملوكات اشتراهن بخالص ماله أو أسرى من بلاد الروم والأمة حلال لسيدها أن يتمتع بجسدها وله وطؤها لأنها ملك له وسماع صوتها ورقصها له لاشىء فيه[2]، فهى فى ذلك مثل الزوجة والغناء فى عصر الرشيد كان غناء القصائد وليس الطرب وقتها مثل الطرب

---

(١) انظر فيه السنة للشيخ السيد سابق.

(٢) ونحن هنا لا نحلل الموسيقى والغناء إلا فى فيما أحله الشرع الإسلامى فى المناسبات والمعازف محرمة إلا الدف.

والغناء الحالى المثير للغرائز.

وكان الرشيد يطرب للشعر وتحركه الكلمة مثل الفصحاء والبلغاء وكان يقدم عليه الشعراء والفضحاء كما ذكرنا.

فأمر الموسيقى والغناء من الأمور المختلفة فيها ولاشك أن الرشيد كان يسأل عن ذلك من كوكبة العلماء والفقهاء المحيطه به وكان بعضهم يحرم الموسيقى والغناء مثل القاضى أبى يوسف الذى ذهب إلى تحريم الغناء وكان الوشيد يرجع إليه ويأخذ منه الفتوى فلو كان الغناء الذى كان يسمعه الرشيد مثلاً حراما لنهاه عنه أبو يوسف.

وكان مالك بن أنس فقيه المدينة المنورة يحرم الفناد على إطلاقه فى أى وقت ويجيزه فى أوقات الأفراح.

فقد قال إبراهيم بن سعد الزهرى للرشيد حين سأله عن تحريم مالك للغناء قال: يا أمير المؤمنين، أو لمالك أن يحرم ويحلل؟

والله ما كان ذلك لابن عمك محمد ﷺ إلا بوحى من ربه، فمن جعل هذا لمالك؟

فشهادتى على أبى أنه سمع مالكا فى عرس ابن خنطلة غسيل الملائكة يتغنى:

سُلِمْىَ أزمعت بَيْنَا
فأين بوصلها أيْنا

وأضاف: ولو سمعت مالكاً يحرمه ويدى تناله لأحسنت أدبه.

فتبسم الرشيد(١).

وقول إبراهيم بن سعد الزهرى يدل على أن الرشيد كان لا يرى بالغناء حرمة، وأما سماع الرشيد للغناء من الموصل وغيره فهو أمر هين بالنسبة لما يحدث الآن من المغنيين.

لقد كان الرشيد فريد عصره وأمير الملوك من بنى العباس وقد تصدعت

---

(١) انظر العقد الفريد ـ مصدر سابق.

الدولة العباسية بعده وشهدت الصراعات على الحكم والملك ورغم أنها عمرت حتى عام ٦٥٦هـ إلا أنها لم تكن بالقوة والازدهار الذى كانت عليه فى عصر الرشيد.

نسأل الله العظيم أن يتقبل منا هذا العمل وغيره من الأعمال الصالحة ويكون فى ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه وصَلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف



أهم المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٥ ـ سنن الترمذى.

٦ ـ مقدمة ابن خلدون.

٧ ـ إبراز المعانى من حرز الأمانى ـ لأبى شامة عبد الرحمن بن إسماعيل.

٨ ـ هدية العارفين ـ للألبانى.

٩ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء ـ لابن الجوزى.

١٠ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى.

١١ ـ إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس ـ محمد المعروف بدياب الإتليدى.

١٢ ـ أبو نواس ـ عباس محمود العقاد.

١٣ ـ أخبار القضاة ـ محمد بن خلف حيان.

١٤ ـ أمالى المرتضى ـ للشريف المرتضى على بن الحسين العلوى.

١٥ ـ إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ إسماعيل محمد أمين البابانى.

١٦ ـ تاريخ الطبرى.

١٧ ـ البداية والنهاية لابن كثير.

١٨ ـ تاريخ ابن خلدون.

١٩ ـ تاريخ الأمم الإسلامية ـ الشيخ محمد الخضرى.

٢٠ ـ تاريخ الخلفاء ـ للسيوطى.

٢١ ـ تاريخ اليعقوبى ـ أحمد بن أبى يعقوب.

٢٢ ـ حُسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ـ للسيوطى.

٢٣ ـ الموطأ للإمام مالك.

٢٤ ـ سير أعلام النبلاء للذهبى.

٢٥ ـ ضحى الإسلام ـ أحمد أمين.

٢٦ ـ عيون الأخبار ـ لابن تيمية.

٢٧ ـ العِقْد الفريد ـ لابن عبد رَبِّه.

٢٨ ـ فتوح البلدان ـ للإمام أبى الحسن البلاذرى.

٢٩ ـ الكامل فى التاريخ ـ لابن الأثير.

٣٠ ـ كتاب الحيوان ـ لابن بحر الجاحظ.

٣١ ـ الأغانى للأصفهانى.

٣٢ ـ مروج الذهب ومعادن الجواهر ـ للمسعودى.

٣٣ ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموى.

٣٤ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان.

٣٥ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد.

٣٦ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى.

٣٧ ـ هارون الرشيد ـ خليل شوقى.

٣٨ ـ هارون الرشيد الخليفة المظلوم ـ أحمد القطان ومحمد طاهر الأمين.

الكاتب فى سطور

ـ منصور عبد الحكيم محمد عبد الجليل.

ـ حاصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٧٨ جامعة عين شمس.

ـ من مواليد القاهرة عام ١٩٥٥م.

ـ يعمل بالمحاماة والكتابة فى الصحف والمجلات العربية والإسلامية وله العديد من الإصدارات والمقالات والأبحاث فى الصحف والمجلات العربية والإسلامية واللقاءات على الفضائيات العربية وترجمت بعض كتبه للغة الإنجليزية.

ـ وعدد الكتب التى صدرت له حتى عام ٢٠١٠ ـ ١٢٠ كتابا متنوعا أثرت المكتبة العربية والإسلامية.

كتب صدرت للمؤلف:ـ

١ ـ جنكيز خان إمبراطور الشر.

٢ ـ صلاح الدين المنقذ المنتظر.

٣ ـ هولاكو مارد من الشرق.

٤ ـ تيمورلنك إمبرطور على صهوة جواد.

٥ ـ مصطفى كمال أتاتورك ذئب الطورانية الأغبر.

٦ ـ الحجاج بن يوسف الثقفى طاغية بنى أمية.

٧ ـ عمرو بن العاص داهية العرب.

٨ ـ خالد بن الوليد قاهر الأكاسرة والقياصرة.

٩ ـ مالك خازن النار ـ النار وأهوالها.

٣١ ـ الحياة الأخرى.

٣٢ ـ الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان.

٣٣ ـ هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية.

٣٤ ـ معجزات الشفاء بالأدوية الإلهية والنبوية.

٣٥ ـ الفراسة فى معرفة الآخرين.

٣٦ ـ ازدراء وإيذاء الأنبياء.

٣٧ ـ جبريل عليه السلام أمين الوحى الإلهى.

٣٨ ـ السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.

٣٩ ـ نهاية العالم وأشراط الساعة.

٤٠ ـ عشرة ينتظرها العالم.

٤١ ـ تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود.

٤٢ ـ يأجوج ومأجوج من البدء حتى الفناء.

٤٣ ـ البداية فتن والنهاية ملاحم.

٤٤ ـ أقدم تنظيم سرى فى العالم.

٤٥ ـ العالم رقعة شطرنج.

٤٦ ـ من يحكم العالم سراً؟

٤٧ ـ أسرار الماسونية الكبرى.

٤٨ ـ أوراق ماسونية سرية للغاية.

٤٩ ـ العراق أرض النبوءات والفتن.

٥٠ ـ الإمبراطورية الأمريكية ـ البداية والنهاية.

٥١ ـ نيويورك وسلطان الخوف.

٥٢ ـ بلاد الحجاز معقل الإيمان أخر الزمان.

٥٣ ـ بلاد الشام أرض الأنبياء والنبوات.

٥٤ ـ المهدى فى مواجهة الدجال.

٥٥ ـ الحرب السابعة ونهاية اليهود.

٥٦ ـ هرمجدون ونهاية أمريكا وزوال إسرائيل.

٥٧ ـ السفيانى صدام آخر على وشك الظهور.

٥٨ ـ إسرافيل وأهوال القيامة.

٥٩ ـ مؤامرات وحروب صنعتها الماسونية.

٦٠ ـ عزرائيل ملك الموت.

٦١ ـ نهاية دولة إسرائيل سنة ٢٠٢٢.

٦٢ ـ الحرب القادمة الثالثة قادمة.

٦٣ ـ المهدى المنتظر.

٦٤ ـ نهاية ودمار إسرائيل وأمريكا.

٦٥ ـ السلطان قطز قاهر المغول.

وكتب أخرى متنوعة تطلب من دار الكتاب العربى.

فهرس المحتويات


FARES_MASRY
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

هارون الرشيد..

▪ هارون الرشيد الخليفة العباسي الخامس كان عصره أزهى العصور العباسية والإسلامية بعد عصر الخلفاء الراشدين الأربعة والخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز، وقد حكم دولته مدة ثلاثة وعشرين عاماً شهدت الكثير من الأحداث الهامة والتاريخية ومن أهم هذه الأحداث نكبة البرامكة التي لا يزال تحيطها الغموض والأسرار مما جعل بعض الأدباء ممن يكتبون القصص ينسجون الخرافات حول شخص وعصر الرشيد فجعلوه بطل ألف ليلة وليلة وبطل الليالي الحمراء وشوهوا سيرته وصورته عن عمد أو خطأ.

وتقرأ في هذا الكتاب السيرة الموضوعية للرشيد بما له وما عليه، فتقرأ عن العباسيين والثورة على الخلافة الأموية، وعن الخلفاء العباسيين قبل الرشيد هارون.

وتقرأ عن أهم النساء في حياة الرشيد، أمه الخيزران وزوجته وابنة عمه زُبَيْدة، وأخته العباسة وما قيل عنها من أكاذيب.

وتقرأ عن النبوغ السياسي والعسكري المبكر للرشيد قبل ولايته للعهد، ثم تقرأ عن محاولة أخيه الهادي خلعه من ولاية العهد.

وتقرأ عن السنوات الأولى في حكم الرشيد، وعن مواقف الرشيد مع العلماء والثورات وحركات التمرد عليه في خلافته.

وتقرأ عن حاشية الرشيد وأهم الرجال والعلماء في حياته. وتقرأ عن مواقف الرشيد مع العلماء والشعراء وسخائه وعطاياه وكيف أن مجلسه كان مجلس علم وعلماء وليس مجلس لهو ومجون وخمر ونساء كما أشاعوا عنه.

وتقرأ عن مواجهات الرشيد مع خصومه من الخوارج وطالبي الخلافة وغيرهم من أبناء عمومته أيضاً.

ثم تقرأ عن أزمة الرشيد مع البرامكة، وأسباب قتله لوزيره جعفر البرمكي وحبس أبيه من الرضاعة ووزيره يحي بن خالد البرمكي وقضائه على دولة البرامكة.

ثم تقرأ عن وفاة الرشيد وما أشيع حول اغتياله على يد طبيبه الخاص.

إنها شخصية وكتاب يستحق أن تقرأه أكثر من مرة لتتعرف على الحقيقة في سيرة الخليفة هارون الرشيد المفترى عليه من البعض، تقرأه أكثر من مرة وتطلب من غيرك اقتناءه.

W.Salama 010 15 17 873

I.S.B.N. 978-977-376-595-9






Exclusive
For
www.ibtesama.com